

مخطوطة جامع التواريخ . جنكيز خان جالسا على عرشه ومن حولة حاشيته .
دار الكتب القومية بباريس . هراة . من العصر التيموزى (١٤٢٥) .

اعصار من التنكرت

الطبعة الأولى	١٩٥١	دار الفكر العربي
الطبعة الثانية	١٩٥٧	الكتاب الذهبي
الطبعة الثالثة	١٩٦٢	الناشر الحديث
الطبعة الرابعة	١٩٧٥	دار المعارف
الطبعة الخامسة	١٩٩٢	دار الشروق

الإخراج الفني
الفنان حلمى التونى

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦٠ شارع جواد حسنى - هاتف . ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بريقيا - شروق - فاكس : 93091 SHROK UN
بيروت . ص . ب . ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
بريقيا : دافشروق - فاكس . SHOROK 20175 LE

دكتور شروت عكاشة

اعصار من النمنمة ”جنكيزخان“

دار الشروق

إهداء

إلى الأديب الفنان رجاء النقاش

كلمة أولى

للمغول تاريخ حافل بالأحداث ، اعتمد حقبةً من الزمن على الأساطير ، واعتمد حقبةً أخرى على الأخبار المروية على السنة رواة مختلف ميولهم واتجاهاتهم فتأثروا بما عُرِف عن المغول من بطش وعنف ؛ كما اعتمد على ما جاء على السنة قوم لاعلم لهم بحديث المغول فاكتفوا بقليل لا يفيد . ثم اعتمد أخيراً على أخبار قوم يطلقون لأخيالتهم تصوير الوقائع في صورة عجيبة أخاذاً .

وقد شجّع هؤلاء وهؤلاء أن المغول أنفسهم كانوا غير مَعْنِينَ بأن يكون لهم تاريخ مدوّن ، يجمع ما لهم على حقيقته ، ويقطع على المسرفين في القول الطريق ، ويزوّد من لاعلم عندهم بما ليس لديهم ، ويردّ على المغالين شططهم ومغالاتهم ، ذلك لأن المغول كانوا قد شُغِلُوا في أعوامهم الأولى الصاخبة بالغزو والفتح عن أن يتفرّغوا لشئ من هذا التدوين أو أن يشجّعوا عليه ، كما أنهم كانوا قد تردّوا خلال أعوامهم الأخيرة في هوة من الجهل نسوا معه مجدهم الأول وصلتهم بأسلافهم حتى باتوا لا يعون منه شيئاً ، وإذا أنسى التاريخ

أهله فلا أهل له . ولقد بدا ذلك جلياً عندما ذاب هؤلاء المغول في غيرهم من الأمم ، وطواهم المغلوبون بمعتقداتهم وعاداتهم ، وأصبحت تلك الفتوحات المغولية الجبّارة غير معروفة لدى شعوب الشرق أو شعوب الغرب على وجهها الصحيح ، ولم تكن غير أخبار جافة فيها كثير من الغموض وكثير من التنافر يملئها البغض وتمليها الكراهية ، وجاءت في جملتها سلسلة ناقصة ، ثم هى على نقصها كانت غير صادقة .

وهكذا عاشت منسيّة أو شبه منسيّة تلك الفتوحات التى لاتدانيها فتوح الإسكندر ولا فتوح الرومان ، وتلك الانتصارات التى تشبه المستحيلات ، وتلك الأعمال التى جمعت بين النقيضين ، من وحشية تُثير الهلع والفرع ، وبطولة تحرّك الإكبار والإجلال .

وهكذا كاد التاريخ ينسى ذلك الزعيم القبلى الذى خرج من أقصى الشرق ، من إقليم ضيق محدود يرمى بنفسه وبجيوشه ، التى لم تكن قد لقنت فنون الحرب ولا خداع الحصار ، إلى أمم كانت لها الكثرة من الجيوش وكانت لها الخبرة الحربية والعتاد الضخم ، لينقضّ عليها كالصاعقة يتخطّفها دولة بعد دولة ، ويثُلّ عروشها عرشاً بعد عرش ، تذلّ بين يديه أمنع المدن وتتداعى لهجومه أقوى الحصون ولا توقفه الأسوار الراسخة . وإذا آسيا كلها تقريباً تحت إمرتهم ، وإذا جزء من القارة الأوربية يدين هؤلاء الفاتحين بالسيادة ، وإذا أوروبا كلها فزعّة وجلّة تجتمع لوقف هذا الزحف وصدّ هذا العدوان ،

فتقيم فى سبيله السُّدود والحواجز .

وكما كاد التاريخ ينسى لهؤلاء المغول هذا الجانب الحربى ، كاد ينسى لهم جانبهم الحضارى ، وإنَّا لنعرف أنه ما كاد يتم لهؤلاء الفاتحين الاختلاط بالشعوب المهزومة حتى تحللوا شيئاً فشيئاً من عنفهم الموروث ووحشيتهم التي طبعوا عليها وراحوا يسايرون الحضارات بخطى وثيدة ، وما كان ذلك باليسير على هؤلاء الذين لما يَطْرَحُوا عن أنفسهم غبار البيئة ولما يَطْرَحُوا عن أنفسهم عاداتها وتقاليدها ، ولكنهم على الرغم من هذا أعطوا وأفادوا .

لقد شرَّع جنكيزخان قوانين تنظِّم للناس حياتهم ، ومضى ابنه «أوجتاي» على نهجه ، وعاش مدته القصيرة يجمع بين شجاعة الجندى وعدل الملك ، وجمع الناس حوله بتسامح وسخاء غير مألوفين لمثله ممن يخرج من صحارى «مغولستان» . كما استطاع «قوبلاي خان» بها عُرِف عنه من صفات فريدة ومعرفة واسعة وحكمة بالغة وحكومة رشيدة ، أن يفوز بإعجاب الصينيين أنفسهم . من أجل هذا كله ، كان مثل هذا التاريخ بحلوه ومُرة جديراً بأن يعنى به المغول أنفسهم ، وأن يعنى به مع المغول العالم أجمع .

ولعلَّ هذا هو ما حدا «غازان خان» (٦٩٤هـ - ١٢٩٥) إلى أن يكل إلى وزيره فضل الله رشيد الدين الهمداني (٦٤٥هـ - ٧١٨هـ) (١٢٤٧م - ١٣١٨م) أن يضع للمغول تاريخاً يكون لهم سجلاً حافلاً بالحقائق مجرداً من الترهات هو «جامع التواريخ» الذى تنتظم هذه

الطبعة الخامسة ستاً من منمنمات نسخة له أُعدّت بهراة عام ١٤٢٥م محفوظة بدار الكتب القومية بباريس ، فضلاً عن منمنمتين أخرتين من شاهنشاهنامه شیراز التى أُعدّت عام ١٣٩٧م المحفوظة بالمتحف البريطانى .

ولقد حاول نفر من المؤرخين شيئاً من هذا التاريخ ، فكان يعوز بعضهم حديثٌ لا يعرفونه ، ويُملى على بعضهم بغضٌ يحملونه ، فأصابوا فى شىء وأخطأوا فى أشياء .

وقد أورد ابن الأثير (٥٥٥هـ - ٦٣٠هـ) فى كتابه المسمى بـ «الكامل» عرضاً مختصراً لفتوح المغول ، ومنعه التحفظ والحذر من أن يتورط فيما لا يعرف ، فإذا هو لا يذكر شيئاً عن فتوح «جنكيزخان» ، وإذا هو يقنّع بسرد أخبار أشبه بالحكايات عن تلك الحرب التى شتّها هذا الفاتح الجبار على ولايات سلطات «خوارزم» . ويحذو ابن الفرات (٧٣٥هـ - ٩٠٧هـ) حذو ابن الأثير فلا يزيد شيئاً ولا يعقّب . ويحاول محمد بن النسوى ، الذى كان كاتباً للسلطان جلال الدين منكبرتى أن يجمع أحداث السنين الأولى لحكم جنكيزخان فى تفصيل ، فإذا هو يكتب شيئاً يتفق بعضه والتاريخ ويختلف البعض الآخر مع التاريخ . وله عذره ، فلقد رأى عرش مولاه يتداعى أمام هجمات المغول ، وكان على وشك أن يناله هو الآخر شىء من عسفهم . ولقد عاش فترته تلك تروعه المذابح ، وتصمُّ آذانه قعقة السلاح ، وتهوله رؤية الخرائب ، وتحزّ فى نفسه

صیحات الیاس فی شغلہ ذلک کلہ عن أن یستمع للحقیقة ویکتب مستوحیاً تلک الحقیقة . ثم جاء مؤرخ فارسى هو عبد الله البیضاوى فجمع قلیلاً من الأخبار التى تتصل بالمغول وضمّنها کتابه «نظام التوارىخ» . ولكن عمله هذا جاء مقصوراً على الأحداث الرئیسة ، مبتوراً ینقصه کثیر من التفصیل .

وكان علاء الدین عطاء الملک الجوینى قد شغل بعض المناصب الهامة ، واستطاع بفضل رحلاته العدیدة أن یجمع شیئاً من الروایات التى یمتاز على ما فیها من غرابة بشىء من الصدق عن مهد الإمبراطوریة المغولیة ، فحاول بها اجتمع له من ذلک أن یضع تاریخاً لفتوح «جنکیزخان» وخلفائه ، إلا أنه كان یعوزه الکثیر مما یتصل بالسین الأولی لجنکیزخان ، فنراه قد أهمل ذکر الروایات المغولیة المتصلة بأسلاف جنکیزخان ، والتى تبعد فی القدم إلى الأزمنة الأسطوریة ، لذلك جاء تاریخه خلواً مما یعرف بأصول القبائل المغولیة وبأنساب الأمراء والرؤساء .

وبعد علاء الدین عاش مؤرخ معروف هو عبد الله بن فضل الله الذی وضع کتاباً فی تاریخ المغول أسماه «تاریخ و صاف» . وعلى الرغم مما اجتمع لهذا المؤلف من أحداث کاد یخفیها وراء أسلوبه المسجوع الملىء بالمحسنات اللفظیة ، فقد جاء کتابه أقرب إلى الأدب منه إلى التاریخ .

* * *

وفي ظل هذه البحوث الشرقية نشأت محاولات عربية ، مانشك في أن هذا التراث الشرقى كان مادتها . وكانت بعض هذه المحاولات ترجمة لما كُتب في العربية ، وبعضها تأليفاً استُعين فيه بتلك المادة العربية . ولقد قرأت شيئاً من هذا مما كتب في العربية ، وقرأت شيئاً منه في اللغات الأوربية لاسيما الإنجليزية والفرنسية ، فهالني هذا التاريخ ، ولاسيما تاريخ المؤسس الأول لدولتهم «جنكيزخان» . ورأيت فيه صورة من القسوة العارمة التى لا تأبه للشدائد ، والعنف الصاخب الذى يستهين بالمصاعب ، والإقدام الجريء الذى يشق طريقه وسط العقبات ، ورأيت فيه صورة من الأمل تملأ النفس فلا ترتدّ عن تحقيقه .

رأيت هذا كله فأعجبت به ، لم تعننى صورته التى وقع عليها ، وإنما عتنتى الصورة التى حفزت إليه . ثم رأيت تاريخاً بدأ على صورة وانتهى على صورة . بدأ قاسياً فكان وحشياً ، وانتهى بالمشاركة فى ألوان من الحضارات والمدنيات ، وكان من هؤلاء الغزاة الفاتحين علماء ومشرّعون . ثم لقد كان تاريخاً على كل حال ، شغل من تاريخ العالم صفحات طويلة ، وكان شأنه شأن كل غزو ، إن اتصف بالشر لما فيه من عدوان وسلب ، فهو يتصف بالخير لما فيه من إيقاظ للشعور وإثارة للهمة . وما أردت أن أقف منه موقف المؤرخ ، وإنما أردت أن أجعل منه قصة أقصها ، لا أسرده سرد المؤرخين ، بل أدع تفصيل ذلك لهم ، وحسبى أن أستصفى منه دقيقه الحى .

* * *

وهذه سيرة « جنكيزخان » تكشف لنا عما حققته وحدة أمة المغول البربرية المتوحشة من معجزات مازالت حديث التاريخ ، يقف عندها المؤرخون حيارى . لقد اكتسحت جيوش المغول الوديان والسهول والجبال والبحار والغابات لأنها كانت متّحدة متآخية ، يجمع بينها شعور واحد بخطورة ما تحمل من تبعات ، وما تضطلع به من مسئوليات . وعلى الرغم من تخلفها وتأخرها فإنها صرعت شعوباً ذوات حضارات قديمة ، وأذعن لبطشها أهل هذه الحضارات . وما استطاعت تلك القبائل المتخلفة أن تنال من هذه الشعوب المتحضرة إلا بفضل وحدتها ، وانقسام هؤلاء انقساماً جرّهم إليه الترف الضال والشهوات العابثة والخلاف القاتل والنفاق البغيض .

ولقد تعرّض العرب لما تعرّض له غيرهم من غزوات هؤلاء المغول ، ودفعوا الثمن نفسه الذى دفعه أبناء الصين ، لم يغنهم كفاحهم ولم يردّ عنهم جهادهم ، إذ كانوا قد تنكروا لحياة الجهاد والكفاح ، وشغلوا بالفتن والمؤامرات ، وتفنّنوا فى الاستمتاع بملاذ الحياة ، وأسرفوا فى ذلك على أنفسهم . ولولا بقية من خير عمّرت به النفوس ، وبقية من عزّة تحرّكت فى القلوب ، وبقية من إباء لما تزل تعيش عليها الأفتدة ، لذهبت ريجهم وأصبحوا أثراً بعد عين . وهكذا قدّر لهذه البقية الباقية من هذا كله أن تخرج بالعرب من وقعة عين جالوت صامدين أمام جيوش المغول الجرّارة ، لم تلحقهم هزيمة ولم ييؤوا بفشل .

* * *

وكان بى إكبار ، حين أخرجت هذا الكتاب في طبعته الأولى للناس عام ١٩٥١ ، لجنكيزخان قائداً ومحارباً ، تستهوينى منذ أمد تلك المثل الجريئة المملوءة شجاعة وإقداماً ، ويستهوينى أن أجمع الناس معى عليها ، كما كان بى إشفاق على الشعب العربى ، فأردت أن أدّهم على مواطن الضعف حين يختلفون ويتفرّقون ، وبواعث القوّة مع الوحدة ، وأن أذكرهم بهاض كادوا يخروّن فيه صرعى للجبين حين لانوا وهانوا أمام قوات بربرية متوحشة لم تكن لها حضارتهم ولم يكن لها عزّهم ولا جاههم .

واليوم أشعر بالرثاء « لجنكيزخان » والدولة التى أنشأها على الجهاجم ، وأعتزُّ بشعوبنا التى أرجو لها وحدة شاملة تقوّى من شأنها وتجعلها صامدة أمام الزحف الصهيونى الحديد الذى ظهر فى الأفق وكاد أن يفعل بها ما فعله جنكيز خان ، ولن ينفعها أمام هذا العدوان الغاشم غير أن تكون على قلب رجل واحد ، حكومات وشعوبا . ثم ما بالنا ندين أولئك البدائيين بالوحشية مع جهالتهم وبدائيتهم ، ولازال بيننا من يدّعون انتماءهم إلى المدنية من يأتون ما هو أشد قسوة وبربرية . إن ما فعله همج الأمس لا يقاس شيئاً بما يفعله همج اليوم من تدمير للمدن وقتل للأبرياء وعدوان على النساء والأطفال .

وفى رأى أن مثيرى الحروب جميعاً والسّفاحين الذين يتعطشون إلى الدماء كلهم قادة عصابات يغيرون على الحضارات ويهدمون المثل الإنسانية ، مُصدرين فى ذلك عن النوازع الشريرة الكامنة فى تلك

النفوس المريضة ، ولا إخال جنكيزخان إلا كان من تلك العُصبة

واليوم تصدر هذه الطبعة الخامسة ، والحال تكاد تكون هي الحال
بالأمس ، من عدوان يشنه القوى على الضعيف ، كما لازلنا طُعمة
للغاصب بما نحن عليه من تفرق وتشّتت . وإنى لأجد لها فرصة
لأضرع إلى الله أن يلهمّ الشمل ويجمع الشتات لتكون لنا مكانتنا بين
الشعوب .

ثروت عكاشة

القاهرة في ٢٢ ديسمبر ١٩٩١

مع المغول

إلى الشرق البعيد من تلك البادية القاحلة ، بادية « الجوى » حيث
الجبّالُ شاهقة لا ترقى السُّحب إلى قممها ، وتمرُّ مُتطامنةً من بينها ،
وحيث الرياح الهوجاء تعصف برماها ، والشمس المتقددة تلهب
صخورها ، وأنى مددت الطرف لا تقع إلا على فيافي جرداء ، لا شجر
ولا حيوان ، ولا مُدن ولا إنسان ، كلاً هنا وهناك حول مسارب المياه
التي تنساب شحيحةً بطيئةً ، تثور الرياح مرةً فيثور معها غبارٌ تقذى به
العيون وتضيق منه الأنفاس ، لا يملك الإنسان معه إلا أن ينبطح على
الأرض إلى أن تمرّ العاصفة ويسكن الهواء وتصفو السماء ، وتثور
الرياح أخرى بالبرق والرعد فتنهمر السماء بالبرد وتقذف بالثلج .

في تلك البقاع التى ينتهى فيها المناخ إلى طرفيه من قيظ لافح وبرد
قارس ، وبالقرب من بحيرة « بيقول » وما حولها من بُحيرات ،
تكتنفها الحرّجات وتخلّق في سمائها جوارح الطير ، ثمعن حيناً نحو
الشمال وتُصوب حيناً صوب الجنوب ، مُنذرةً بميلها نحو الشمال أو
انحدارها إلى الجنوب بما سيطرأ على المناخ من تقلّب ، وما سيصيب
الجو من اختلاف .

هناك - منذ أعوام سبعمائة خَلَّتْ - عاش قوم لا رداء لهم يسترُ
أبدانهم إلا جلود الحيوان ، ولا طعام لهم يقوتهم إلا اللبن الخائر
واللحم المجفف ، ولا شيء بين أيديهم يقُون به أجسامهم لَفْحُ البرد
ولسع الريح إلا الشحم يَطلونَهَا به . أولئك هم قبائل المغُول بما لهم من
مراس صَعَب وشكيمة قوية ، شرْعَةُ الصحراء شرْعَتُهُمْ ، وعلى
البغضاء والعداوة نشأتهم البيئَةُ المُجدبة ، وأغراهم حُبُّ البقاء .

وهم على ذلك شعب له ماض طويل مُعْن في القدم ، امتاز بصفْرة
الوجه ، والأنف الأفطس ، والشعر السَّبَط غير المُجَعَّد بسواده الحالِك
وبريقه وتألّقه ، كما تَمَيَّز بالعيون المنحرفة التي تشوب سوادَهَا زُرْقَةٌ ،
تَغلب الصفْرة على بشرتهم ، غير أن منهم من يبدو أَسْمَر أو بُرنزيًا أو
نحاسيًّا .

ومن هذا الأصل المغُولي يَنحدر الصينيون واليابانيون والكوريون ،
وبه يتَّصل أهل منشوريا لا يَرَوْنَ لهم أصلاً غيره . والمغُول ينتهون - كما
يقول الدارسون - إلى أصل « تنجوسى إيرانى » نشأ من تزاوج هذين
العُنصرين ، وكان يُطلق عليه « الجنس الأورالتيكى » ، وكان موطنه
الأول مرتفعات آسيا الوسطى ، ومنه أهل التبت والشعوب غير
الآرية ، ثم انتشر غربًا وشرقًا . وعاش المغُولي صاحب الكلمة
وصاحب السلطان تُنزع به إلى ذلك طبيعَتُهُ الأولى التي خرج بها من
مَهْدِهِ ، فكان في فارس الحاكم الأمر ، وكان في الشرق الأوسط وفي
آسيا الصُغرى السيد المسيطر ، وحين اقتحم على الأوربيين بلادهم

حتى بلغ أسوار فيينا المنيعة ، أراد أن يفرض على أهلها سلطانه .
وحسبنا ما يحفظه التاريخ لنا عما كان لقبائل « الهون » و « الما جي ار »
و « البلغار » . . . وهم من هذا العنصر - من جرأة وإقدام . وما وقف
بعُدُ القارة الأمريكية حائلا دون طموحهم ، فلقد تدفقت إليها
جموعهم ؛ يُحدِّثنا بذلك الكاشفون حين يُنبِّئون بأن سكان تلك القارة
الأول ينتمون إلى الأصل المغولي .

وحول بحيرة « بويور » عاش التتار ، وكانت تجمعهم بالمغول
عمومة ، ولكن هذه القربى لم تذهب بتلك العدَاوة التي أملتتها البيئة ،
فإذا هما خصمان لا تهدأ بينهما ثائرة ، ولا يكفُّ لهما استعدادٌ لحرب ، لا
يُخلِّصان من قتال إلا إلى قتال ، ولا ينفُضان يداً من غارة إلا ليشغلا بها
غارة أخرى ، يعدُّ هؤلاء على هؤلاء حركاتهم وسكناتهم ، يحفِزهم إلى
هذا التطاحن والتناحر الغلبة على المرعى والاستئثار بمواقع المياه .

* * *

كان الموطن الأول للمغول هو تلك القفار التي تقع إلى الجنوب من
بحيرة « بيقول » حيث تنساب أنهارُ ستة في أرض صلدة جبلية منها :
الأنون وأنجودا وكيرولون التي هي المنابع الرئيسة لنهر الآمو العظيم
الذي يصبُّ في البحر الصيني عند « أوخستك » ، ثم « التولا »
و « أور هون » و « سلنجا » التي تصبُّ في بحيرة « بيقول » . وتنحدر تلك
الأنهار كلها من قمم جبال « كنتى خان » وأعلاها قمة جبل « برهان » .
وما عرّفت تلك البقعة الفسيحة التي كان يغلب عليها الجَدب

من وسط آسيا الجنوبي غير تلك الأنهار الستة .

وفي هذه البادية المنبسطة الأرجاء بدأ المغول حياتهم ، وأملوا تاريخهم الحافل ، فكانوا أول ما كانوا يتنقلون فيها بماشيتهم وخيلهم باحثين عن المرعى واقعين على مواقع الحياة . وهم حين يكتب لماشيتهم وخيلهم أن تنمو في كثرة يكتب عليهم أن يجدوا في إثر المرعى الغنى الخصب . وعليهم حماية ما وقع في أيديهم ليحيوا ، والمكافحة دونه ليعيشوا ، هيأتهم الطبيعة القاسية لهذه الحياة القاسية ، من صيد وقتل وسلب ، ينهبون ويغيرون ، يقتل بعضهم بعضاً للاستئثار بالحياة ، وهم على ذلك كانوا أشد حمية وأهلب غيرة وأعنف قسوة ، وإن بدا للمرأة ظل بينهم فهم ينسون القوت ويذكرونها ، وتُنسيهم الثورة لها الثورة للقوت .

* * *

ولقد آتخذ المغول الطبيعة هادياً ومُعَلِّماً . يستلهمون منها ويسترشدون بها ، ففي الشتاء حين يكسو الجليد الأرض ويغطي المراعى المعشبة فيضوي النبت ويذوى العشب ، ولا تجد الماشية ما تعيش عليه فيذوب شحمها ويضمحل لحمها ويعرض لها الموت يحصد منها الكثير ، عندها يكف القوم عن ذبحها حتى لا يكونوا عوناً للطبيعة على إفنائها ، صابرين على ما يعرضون له أنفسهم من جوع قاتل وحرمان مميت ، قانعين بما قد ادخروا من أذرة يجدون في طبخها ما يسد رمقهم ، ويدفع الجوع عن صبيانهم .

وقد ينفد ما عند القوم من زاد مُدَّخِر ، والجوع لا يقوى عليه
الصَّبْر ، ويسوء معه الطبع ، فينهضون للغارة ، يقتلون ويقتلون ،
ويسلبون وينهبون ، غير مُلقين بالآلما يزرع هذا العُدوان من عداوة
ويغرس من كراهية . ويضيق الصبيان بهذا الضيق كلّهم وما لهم باحتماله
جَلَدُ الكبار ، فينطلقون وراء الجرذان بهراًواتهم ، فإن لم يجدوا جَرَّوا في
إثر الكلاب والذئاب بتلك السهام المتكسرة التى نزل لهم عنها آباؤهم .
فإذا ما أقبل الربيع بصَّحوه انقشع الغمام وظهرت الشمس في
الأفق ، فأصابت الأرض من حرارتها وانكشف عن وجهها الثلج ،
فاعشوشب المرعى ، واخضرت الأرض ، ووجدت الماشية ما تطعم
فأكلت حتى امتلأت . عندها تعود الحياة إلى الناس كما عادت إلى
الأرض ، ويخرجون إلى الصيد وراء الدببة والوعول والأيل ،
ويعودون مع الأصيل بشيء منها تحمله ظهورهم ، وشيء قد ربطوه إلى
خيوهم ، فرحين بما أصابوا ، مُقبلين على هذا الطعام الشهى بعد أن
سئموا لحوم الثعالب والسمور والكلاب . وإذا ما عاد الرجال إلى
بيوتهم قذفوا بالصيد إلى النار ، واقرشوا الأرض من حولها ، وقد
التفت بهم أهلهم يستمعون إليهم ، وهم يقصُّون عليهم ما كان لهم
من مغامرات في الصيد ومخاطلات يستهوون بذلك النساء ويشيرون بها
ضحك الصبيان . فإذا ما نضج الشواء امتدت إليه أيدي الرجال
فاستأثرت بأطيبه ، وحاز الأطفال ما تقوى عليه أصابعهم الرقيقة ،
وتلمست النساء ما يقع هن ، والكلاب من حولهم جميعاً ترقب في لُفَّة

تلك العظام التى يُلقى بها إليها تَعْرِقُهَا فى نَهَمٍ وشراسة .

* * *

ولم تُنس هذه الحياةُ القاسية هؤلاء القومَ من أن يأخذوا نصيبَهُم فيها من لهُوَ واستمتاع . فهم إذا ما خَلَوْا إلى أنفسهم وأخلدوا إلى السكون وأمنوا شر الحروب انكفثوا على الشراب يجرعون ويسرفون . وقد يجرُّهم هذا إلى صخب أو شغب يخرجون منه إلى أذى يُصيب به بعضهم بعضاً قولاً وفعلاً . وإذا لم يأخذوا فى الشراب أخذوا فى ألوان من اللهُوَ تمليها عليهم تلك الطبيعة ، فإذا هم قد عقدوا حَلَبَات للسباق على ظهور الخيل ، وأخرى للمبارزة بالسيف ، وثالثة للمصارعة العنيفة القاسية ؛ فمن هذه الثلاثة حياتهم ، وعلى هذه الثلاثة مجدهم وفخارهم .

ولا تَغيب المرأة عن هذا كُلِّه إلا قليلا ، إذ عليها إعداد البيت ونظافته وطهى الطعام ؛ هذا إلى أعباء أخرى ليس لها غيرها ، فكان عليها صنُّع الثياب وحياتها ، وإعداد اللِّبَاد لصنُّع القِباب وحلب الأبقار وتجهيف الألبان .

* * *

وهم يقيمون بيوتهم من اللِّبَاد السميكة ، يجعلونه قِباباً تستوى على جُدْر من القصب يُشَدُّ بعضه إلى بعض بشراكح من لحاء الأشجار قد جُدلت جَدلاً مُحْكماً . وفى الوسط من القُبَّة يهيئون مكاناً لنارهم التى تظل أبداً مُوقده ، ويجعلون تلقاءها فى سماء القُبَّة منفذاً ينفذُ منه الدخان

ويجدد لهم الهواء . وكما حاطوا تلك الجدر القصبية من الخارج باللباد فهم يحوطونها من الداخل بالحصن يجعلونه لها ملاطاً ، يملأ ثغراتها ويستر عيوبها ويقيها مس النار ، وما أسرعها إلى تلك الجدر إن ظلت عارية . ولقد هياً لهم هذا الصقل لجدرانهم أن يرسموا عليها رسوماً ويصوروا صوراً وينقشوا نقوشاً ، ليست إلا من وحى العقيدة الدينية ، ومن وحى الخرافات والأساطير التي ملأت عليهم أذهانهم . وإلى جانب تلك الرسوم والصور والنقوش يعلقون سلاحهم ، من دروع مصنوعة من الجلد المقوى وأقواس ورماح ؛ هذا إلى سلاح يكونون قد غنموه ، وآخر يكونون قد اشتروه من تجار المسلمين الوافدين عليهم من الغرب .

وهذه القباب مع ضخامتها من اليسير حملها ، فإذا ما هم القوم بالرحيل رفعوها على « اليرت » وهي عربة مستطيلة ، يُثبت عليها البيت تشبيهاً قوياً ، فلا الأعاصير الهوجاء ولا الرياح العاصفة ، بقادرة على أن تُزعزعه أو تطوح به من فوق ظهر « اليرت » ، تُقطر العربتان والثلاث بعضهما إلى بعض فتكون أشبه بالقطار تجرّه عشرات من الثيران القوية . ولا تأخذ تلك العربات في سيرها إلا بعد أن يتم إعدادها كلها ، ومن ثم يُعطى الأذن بالرحلة إذنه في صوت جهورى ، فتمضى الثيران وثيدةً ومن خلفها العربات متأرجحة . ويرتفع في الجو خوار الثيران وصهيل الخيل ونباح الكلاب يخالط ذلك صرير العجلات وزمر الزامرين ، وإذا الجو امتلأ جلبةً صاخبةً يملأ بعضها

على بعض ويردد بعضها بعضًا ، والسماء قد أظلتهم بصفائها ورقة هوائها ، والأرض قد انبسطت تحت أقدامهم مُستوية ممتدة وكأنها بساط أخضر .

ويَصوغ هذه الحياة «ألكسندر بورودين» موسيقى ويصوّره أحيانًا ، يستوحى في هذا وذاك طبعًا نصفه شرقيّ ونصفه غربيّ ، فلقد كان يعزى إلى أب ، أمير من أمراء الكرج : وكان «بورودين» طبيعيًا نبغ في الكيمياء فبلغ الذروة ، ونبغ في الموسيقى فأبدع وفاق ، عرفت له دولته قدره في الأولى بعد موته فخلّدت اسمه في الخالدين ، وعرف له العالم تفوقه في الثانية فوضعه بين كبار الموسيقيين . وكما كان عالما في الأولى كان موهوبًا في الثانية ، فخلّق بخياله في سماء تلك المناطق التي كانت غريبة على غيره ، فكل ما فيه من إحساس وشعور وتصوّر مرده إلى مهدد روسيا الذي فيه درج ، حتى إذا ما أخذ يصوّر بموسيقاه ما يجرى فوق فيافي آسيا الوسطى من ضجيج للقوافل في عبوره ، تخالطه أصوات للعربات في مسيرها ، معه خوار الثيران ونُبّاح الكلاب وصياح الرجال وصراخ الصبيان ، وما تشهده أرضها من معارك يصطدم فيها السلاح بالسلاح ، ويزأر فيها الرجال بالرجال ، ومن بين ذلك أناشيد الحرب تنطلق قوية كالرعد من حناجر خشنة ، ثم ما تشهد من مجالس للحب تنبعث منها أغان هادئة لينة حلوة . كل هذا صوّره «بورودين» في مقطوعته «فيافي آسيا الوسطى» يخلط واقعه الروسي بخياله الشرقي ، تعبر عنه موسيقى يغلب عليها لحن شرقي

أخاذ يسيطر على ألحان رقيقة أخرى ترمز إلى صنعة الغرب ، فإذا هذا
وذاك يبعث جواً من الفتنة الآسرة ويُشيع جواً من السحر الشائق .

* * *

ويبدو « اليرت » وكأنه بيتٌ متحركٌ قد انضم على ما للقوم من متاع
أودعوه كنوزهم واثرواتهم وأسلابهم ، منها ما هو في صناديق : من
حلى فضية وثياب مطرزة موشاة بالحرير ، ومنها ما قد حُزم حزمًا من
سجاجيد وطنافس ، ومنها ما قد أخذ مكانه على الأرض وفوق
الجدران من سلاح وعتاد .

وتمضى القافلة يحيط بها الرجال الأشداء في عُدتهم وسلاحهم ،
تتقدمها كوكبات من الفرسان يكونون كالطليعة ، يُمعنون هنا وهناك
ليؤمنوا لها السبيل وليؤذنوها بالشر إن وقع . يلزمون ظهور الجياد أيامًا
تبلغ الثلاثة لا ينزلون عنها ولا يحلُّون عنها سروجها ، مجتذئين بالزاد
القليل لهم ولجيادهم يتبلَّغون به . وقد انتشر الصبيان هنا وهناك يلهون
حينًا بصيد الأسماك من المستنقعات والجداول التي يمرون بها ، وحينًا
بمطاردة الذئاب ، هذا إلى ما عليهم من سوق الماشية ودفع الخيل وردّ
ما شرد منها .

* * *

وعلى هذا فليس تاريخ المغول بالتاريخ الذي يُستقى من منابع
صحيحة ، أو تؤيده روايات سليمة ، بل لقد كان ولا يزال تاريخًا غير
موصول الحلقات يحوطه كثير من الغموض ، تغطي عليه الخرافات فلا

يُعرف مكان الخبر التاريخي من الخرافة ، ولا مكان الخرافة من الخبر التاريخي ، وتُصوره معتقدات القوم في الأرواح والشياطين فإذا هو شيء لم يُمله التأريخ ولكن أملاه ذلك التصوير . وإذا المؤرخون بعد هذا كله أمام قصص من المعجزات الخارقة عسير عليهم أن يعرفوا الجانب التاريخي السليم منها .

غير أنه مما يكاد يكون مقطوعاً به أن مغول « يكا » كانوا أيام « كابل خان » يُسيطرون السيطرة كلها على شمال « الجوبي » . ثم كانت لهم الغلبة على تلك المراعى الممتدة من بحيرة « بيقول » إلى جبال « خنجان » على حدود منشوريا ، تلك المراعى التى كانت تزدهم بالأعشاب الكثيفة تغطي وجهها كله وتزخر بالماشية التى كانت تُربى لحماً وشحماً على غيرها فى البرارى الجنوبية . كما كانوا يسيطرون على الوديان التى حول نهري « الأنون » و« الكيرلون » تلك الوديان الغنية بمروجها الواسعة ، التى تكتنفها جبال نبتت على مدارجها وفى سفوحها أشجارُ البتولا والتوت ، تهيم خلالها صنوفٌ من الحيوان البرية .

وهكذا هيات طبيعة تلك الوديان عيشاً رغداً لأهلها ، فعلى نباتها يعيشون ، ومن قنصها يطعمون ، والمياه بين أيديهم جارية فلا يظمئون ، والمروج بأعشابها الدائمة مرتع فسيح لماشيتهم ، ولهم من لحومها وألبانها وأوبارها وجلودها ما يشتهون .

وكان « كابل خان » يفرض على القبائل التى تحت سلطانه فريضة سنوية يؤدونها إليه ، من خيل وماشية ، ثمن دفاعه عنهم وسهره على

مصالحهم . ويموت « كابل خان » ويرث الزعامة من بعده « يسوجاي » وكان داهية فطناً ، فدان له المغول بالطاعة وأحسنوا له الاستجابة . ولكن ما إن ولى « يسوجاي » حتى خرجت عليه قبائل ، منها « التايدجوت » و « المركيت » وهم ما هم شدة ودهاء ؛ يظنون أنهم خالعون عنهم نير العبودية الذى فرضه عليهم « كابل خان » ، يشنون عليه الحرب مرة ويحيكون له الدسائس أخرى .

ويخرج « يسوجاي » يوماً إلى شاطئ نهر « الأنون » يترىض ، وقد امتطى صهوة جواده وحمل صقره على ذراعه ، فإذا هو يقع بصره على زعيم من زعماء « المركيت » هو « يك شلاو » وإلى جنبه عروسه « هولون » . وأخذ « يسوجاي » بجمال « هولون » وهاله حسنُها . فعاد أدراجَه يستنفر أخوين له خشية أن يفلت منه « يك شلاو » وعروسه « هولون » . وعاد الإخوة الثلاثة يستحثون جيادهم إلى حيث قُبِعَ « يك شلاو » وزوجُه ، يريدون بهما شراً .

وما إن لمح « يك شلاو » « يسوجاي » وأخويه يسرعون إليه حتى عرف ما يبيتونه له ، وما كان يملك أن يصمد لهم . عندها فكّر في أن ينجو بعروسه من ذلك الشر المحيط ، فالتفت يبحث عن مخبأ فلم يجد ، وأعجله خصومه عن أن يدبر أمره أو عن أن يحمل معه زوجته على فرسه ، ورأت هى الشرّ يدنو من زوجها رويداً رويداً ، ورأت فراره دونها فيه منجاة له وإبقاء على حياته ، فتضرعت إليه أن يسرع فيهرب ، وناشدته أن يفعل ، ثم خلعت عنها قميصها ودفعته إليه رمزاً لما بينهما

من رباط جامع ، ووعدته إن هى نجت فهى لا شك لاحقة به ، وإن خانها الحظ فلم تستطع به لحاقاً ، وكان لابد له أن يتزوج ، فعليه أن يُطلق اسمها على تلك العروس التى سوف يختارها . وقُبعت «هولون» حيث هى تستقبل ما سوف يسوقه لها القدر ، تُعول وتندُب جدّها العاثر . ومضى «يك شلاو» على جواده ينهب به الأرض والإخوة الثلاثة في إثره ، حتى إذا يئسوا من اللحاق به عادوا أدراجهم إلى حيث استقرّت «هولون» .

* * *

وحمل الإخوة «هولون» بعد وعد ووعد ، وبعد أن لم تجد مناصباً من أن تذهب معهم ، وبعد أن رأت أن الحيلة قد تُغنى حيث لم تُغن المقاومة . ولكنّ القدر جرى بغير ما قدرته «هولون» ، وإذا هى بعد أيام زوج لـ «يسوجاى» ، وما كانت تملك من أمرها شيئاً . ولم يفتُ «يسوجاى» أن الزعيم المركيتى سوف لا ينسى ما كان من اغتصاب لزوجته ، وما فاته كذلك أنه سوف يحركّ لهذا الأمر قبيلته «المركيت» التى تنحدر من سلالة «التندرا» المعروفين بالشدة والبطش ، وما فات دهاءه أنّ معاجلة القوم قبل أن يعاجلوه أقوى له وأسلم ، ومن الخير أن ينهض لهم قبل أن يستعدوا ، ومن الخير أن يأخذهم على غرة فيلقى عليهم درساً بعد درس ، ليخافوه ويرهبوه . من أجل ذلك جهّز «يسوجاى» جيوشه ، ومن أجل ذلك فاجأ «يسوجاى» قبائل «المركيت» . وكان له ما كان ، فعاد غانماً أسراً ،

كان فيمن أسر من « المركيت » زعيمهم « تيموجن » . وكان يوم عودته
من تلك الغزوة ظافرا هو يوم أن وضعت له « هولون » ولداً ذكراً ،
فكان له مع قومه بذلك فرحتان : واحدة للظفر ، وأخرى لهذا
الوليد .

تيموجن

وما شُغل «يسوجاي» حين عاد بالنصر والظفر ، ولا شُغل بتأهيل قومه وترحيلهم ، ولكنه أنسى هذا كله وذكر شيئاً واحداً ، ذكر «هولون» وما بلغه عنها من وضعها ولدّاً ذكراً ، فما إن أدرك أن مدينة «القباب» بالقرب من جبل «دليجون بولداك» حتى خَفَّ ليلقى «هولون» ويتطلّع إلى وليده . وهناك في قبة «هولون» جلس «يسوجاي» طروباً يستمع إلى النسوة وهنَّ يُحدّثنه حديث ولادة «هولون» . وكان فيما يروينه له بعد أن ذُكرن له شيئاً عما وجدت «هولون» من عُسر وألم ، أن الوليد خرج من بطن أمه قابضاً بأصابعه على مُضغّة من الدم ، وكما طرب «يسوجاي» لسلامة «هولون» وسلامة الوليد طرب للذي حدّثه به النسوة عن هذا الوليد ، واطمأن له ، وتنبأ له مع المتنبيين بحياة مليئة بالبطش والجبروت .

وكان «يسوجاي» مُعجباً بأسيره «تيموجن» ، مُعجباً بقوّته وبطشه ، مُعجباً بما رزقه الله إياه من خلق مكين وبنية قوية ، يملأ كل ذلك عليه نفسه ويملاً عليه خياله ، فإذا هو يطلق على وليده اسمه ، يستوحى من هذا الإعجاب ، ويستوحى من تلك النفس وذلك الخيال .

ولقد كان للتسمية ظلٌّ من الحقيقة ، فكلمة « تيموجن » عند المغول معناها القوى الصلِّد ، ولعلها حين أُطلقت أولاً على ذلك الأسير أُطلقت ملحوظاً فيها ذلك ، ولعل «يسوجاي» حين أُطلقها على ابنه كان متفائلاً له بذلك .

* * *

ونشأ الوليد في أحضان أمه تغذوه بلبنها ، حتى إذا ما حان فطامه أخذت تغذوه باللبان الخيل والماشية ، حتى إذا ما بدأ يدرج كانت الأم قد حملت بأخ له ثان .

وشب « تيموجن » بين عشيرته يستمع إلى أحاديثهم عن الحرب والسلب . ويُصيح إلى أقاصيصهم وخُرافاتهم ، تملأ عليه الأولى نفسه ، و تملأ عليه الثانية عقله ، فإذا هو صورة من القوم جرأة وبطشاً إذا ناضل ، وخُرافة وأباطيل إذا حَدَّث .

وما إن قويت ساقاه على حمله وصلب عوده واشتدَّ ساعده ؛ حتى أخذ فيما يأخذ فيه أمثاله ، فكان عليه أن يجرس الخيل في محابسها ويعنى بعدتها ، ويقف على الماشية في مراعيها ، ويخرج في طلب الكلا . حتى إذا ما استوى رجلاً ، شارك فيما يشارك فيه الرجال ، وسهر معهم على الجبال ليالى الشتاء القارسة وسط العواصف الثلجية الطاغية وما من مخبأ يستترون فيه ، أو نار تبعث الحرارة في أوصالهم ؛ يصبر على الجوع كما صبر على البرد ، ويصمّد للشدائد لا يجزع ولا يلين .

* * *

ولقد نشأ « تيموجن » كما حَدَسَ أبوه وتنبأ له قوى البنية فارع
الطول ممتلئ الجسم صلب العود ؛ كما رُزِقَ عقلاً راجحاً وقوة حيلة
وحسن تدبير . ولقد قذف به أبوه إلى خضم الحياة قَذْفًا ، لم يَرَحِم
شبابه الغَض ولا عُدوه اليانِع : شارك في السباق فغلب ، ورمى
بالسهام فأصاب الهدف ، وصارع فَبَزَّ ، كما شارك في الرأى فأفاد خبرة
ودراية .

بهذا نشأه أبوه فضمه قوى البدن والعقل .

وفي إثر « تيموجن » جرى أخوه « كاسار » يحدو حذوه ويتسج على
منواله ؛ ولم يكن الفرق بينهما في السن كبيراً . وكما رَمَى « تيموجن »
عن ساعد قوى ، رَمَى « كاسار » عن ساعد قوى . وكان « كاسار »
أقوى وأشد ، ولكنه على هذا لم يشأ أن يسبق خطوه خطو أخيه ، أمناً
لشره وتجنباً لخصومته وكيده .

* * *

ولم يكن للمغول مدارس ولا دور للعلم كما كان لجيرانهم من
المسلمين في القرن الثالث عشر ، فما كانوا في بداوتهم يقرعون لشيء
من ذلك ، بل لقد فرغوا لحياة البادية ، فهم بين حرب أو استعداد
للحرب . وعلى الرغم من ذلك فقد أفاد هذا الشعب من الحياة ،
جعلها مدرسته يَلْقَن عن عنونها ، ويستملى أحداثها ، ويُفيد من تجاربه
فيها ، تمنحه الطبيعة من عنفها به قوة عليها ، ومن تقثيرها عليه .
صبراً لها ، ومن وعورتها دونه حيلة بها . عَرَفَ ألا حياة لضعيف ،

فأخذ في الكثير مما يَخْلُق منه بدنًا قويًا ؛ وعَرَفَ ألاَّ يعيش للذليل ، فارتدَّ
يُعمل عقله ويستمد ذهنه ليتنزَّع من برائن الطبيعة ما يقوُّته ، واختلَّفت
مشاهد الطبيعة بين يديه وتحت سمعه وبصره ، تجمَّد حينًا فتستحيل
الأرض بحرًا من جمَد والسماء ظُلَّةً من غيم مكفهر ، فتعبس نفسه
ويقسو طبعه ويظلم خياله ، ثم تسيل بين يديه حينًا آخر فتستحيل
الأرض عُشْبًا مُخْضِرًّا وأشجارًا مُورقة ، وتنقلب السماء قبة زرقاء متألقة
بنجومها ، ويمتلئ الجوُّ طيرًا يشدو بالأنغام فتنبسط نفسه ويرقُّ طبعه
ويُشرق خياله ، وإذا هو مع الحالمين يحس بالطبيعة ما حوت من جمال ،
يشعر بها ويستلهمها ، ويضم إلى أنسه بها أنسًا بما يُبدع من لُهو وطرب ،
لا ينسى حظه من الحياة الوداعة ؛ وإذا استسلم إلى تلك الحياة شيئًا
تحرك منه قلبه فمضى يُفسح لُحبه ويرخي العنان لعاطفته فإذا له
صفحات من حُب وعشق وغرام ، معها مغامرات ومنافسات .

وهكذا أسعفت الطبيعة هؤلاء الناسَ بالكثير من زاد ماديٍّ وزاد
روحيٍّ وزاد عقليٍّ ، وإذا هم آخر الأمر شَعِبَ يَتَمَيَّز بقوة الجسم وقوة
الروح وقوة العقل . وإذا هو مدفوع إلى أن يُرضى هذه القوى جميعًا ،
فكانت له الفتوح التي حققها ، والنصر الذي ناله ، والخروج من تلك
الطبيعة المحدودة إلى بيئات أخرى ، فانتشر شرقًا وغربًا يطوى الأرض
ويطوى الشعوب طيًا .

* * *

ولقد استمع « تيموجن » كما استمعت عشيرته معه إلى المنشدين

وهم يروون في حَلَقاتهم التى كانوا يعقدونها ويجتمع الناس إليهم فيها ،
ما كان لأسرته من مجد أزلى ، أوكيست تنحدر من سلاله
«البورشيكون» - ذوى العيون الرمادية - التى ثُمّت إلى الآلهة بسبب ؟
وما كان غريباً على القوم أن يُصدّقوا ، فلقد نشثوا يؤمنون بتناسخ
الأرواح ، ويؤمنون بأن الروح الخيرة تتقمّص جسماً خيراً ، وأن الروح
الشريرة تتقمّص جسماً شريراً ، تخرج من مرتبة خيرة إلى أخرى أعلى
خيراً ، وهكذا تظلّ الروح فى ترقّيها حتى تكون آخر الأمر أقرب شىء
إلى طبيعة إله الخير . كان ذلك مُعتقد القوم فى الحياة ، وكان ذلك
معتقدهم فى «تيموجن» . من أجل ذلك استمعوا إلى المنشدين فزادوا
تعلقاً به ، ومن أجل ذلك استمتع «تيموجن» إلى المنشدين فزاد إعجابه
بنفسه وعلوّاً بها .

وكما كان «تيموجن» يستمع إلى هذا اللون استمع إلى غيره ممّا لَفّته
إلى نفسه وهيساء حياة جادة . فلقد كان للقوم أرجوزة سائرة يتغنّون
بها ، أرجوزة أشبه شىء بالملحمة تنتظم حياة سلفه : تنتظم بلاءهم فى
الحياة ، ما كان لهم وما كان عليهم ، وإذا هى تعرض حياة جدّه
«كابول خان» وما كان منه مع إمبراطور «الخطاي» الذى كان ينازعه
السلطة والجاه ، حين جَذبه من لحيته ذليلاً مهيناً ، كما تعرض لما فعله
هذا الإمبراطور بجدّه حين دسّ له السم فقضى عليه .

وإذا عرضت الملحمة ما كان من حياة الجد ، انتقلت تعرض ما كان
من حياة العم «طغرل خان» الذى عاش زعيماً لقبيلة «القرايطة» تلك

القبيلة التى عُرفت بالبطش والجبروت بين بدو صحراء « الجوى » .
تعرض الملحمة هذا كله ويسمعه الناس ويسمعه « تيموجن » فإذا هو
فخور بجده ، فخور بعمه ، فخور بأبيه « يسوجاي » ، فخور بأنه من
تلك السلالة التى تنتمى إلى الآلهة ، وإذا هذا الفخر يملأ قلبه زهواً ،
ويملاً نفسه أملاً ، ويملاً خياله تعلقاً بذلك الجاه المأمول والسلطان
المرتقب .

ولعل هذا هو الذى حَبَّب إلى نفس « تيموجن » أن يجلس إلى
الحكام والإخباريين ، وكان عندهم علم الدول المجاورة ، يستمع
إليهم فيُضيف إلى هذا الذى أركى زهوه ما يُركى بصره ويُركى خبرته
ويُحْيى معرفته ، فإذا هو على علم بالأرض التى يعيش عليها ، وعلم
بالأرض التى يعيش عليها جيرانه ، وإذا هو قد عَرَف تاريخ الأمم بعد
ما عَرَف تاريخ أمته .

عَرَف « تيموجن » أن أرضه إذا قيسَت إلى أرض « الخطاي » فلن
تبلغ إلا جزءاً من مائة ، وعَرَف أن قومه ما أَمِنُوا شر « الخطاي » إلا
لأنهم قوم رُحْل يَحْقُون من مكان إلى مكان بُعداً عن الشر وتجنباً للغزو ،
وعَرَف أن قومه يَحْتالون لحياتهم فإن رُزِقوا الفرصة أغاروا ففَتَحُوا ،
وإن فاتت عليهم الفرصة قبعوا وتواروا ، وعَرَف « تيموجن » أن
قوتهم فيما لهم من تفوُّق حربي وقوة على مغالبة الخصوم ، وعَرَف أنهم
إذا استحالوا عن طبيعتهم البدوية إلى طبيعة حضرية فأُخِلِدُوا إلى
مكان ، واستناموا إلى حياة المدن والعواصم فَتَّ ذلك في عَصْدِهِمْ ،

وأوهن من قُوَّتِهِمْ ، وأضعف من شوكتِهِمْ فضاعوا في غيرهم .
وكذلك لقن « تيموجن » من هؤلاء الشيوخ أن البيع والهيكل
تنشئ الناس على الدَّعة واللين ، وأن تلك الحياة إذا دخلت على قومه
بدلتهم حياة وادعة ليئة ، فخرجوا عن طبعهم الأول المرهوب إلى طبع
لا يُرهب عدوًّا ولا يخيف غازیًا ، وليست الحياة إلا للغالب القاهر .
في ظل هذا كله نشأ « تيموجن » ، وبهذا كله تثقف « تيموجن » ،
ومن هذا كله رسم دُستوره في الحياة ورسم الناس معه دستورهم .

* * *

وكان « تيموجن » كلما خطا إلى الحياة خطوة أحس بدبيب القوة في
قلبه والزهو في نفسه ، وازداد إيمانًا بزعامته على قومه ، تلك الزعامة
التي آلت إليه بعد أبيه « يسوجای خان » ، يُقوِّى هذا الإيمان في نفسه ما
أصاب من خبرة ، وما أدرك من معرفة ، وما من الله به عليه من قوة .
ولقد خرج به أبوه يومًا ، وكان لا يزال شابًا ، إلا أنه على ذلك كان
ممثلًا حميَّة وقوة وذكاء ، خرج به أبوه يضعه خلفه على فرسه ، وقد بدا
فارع الطول عريض المنكبين ، تنساب على ظهره جدائل شعره الأحمر ،
وتسطع الشمس فيتألق وجهه الغليظ المتجعد ، وتثور الرياح تسفى
بالرمال ، فتهبج عيناه المتباعدتان الضاربتان إلى الزرقة وتغشاهما
هالتان حمراوان ، ويتراءى الفتى بين لفح الشمس وثورة الريح وهو
مقطب الجبين مستقر في جلسته معتد بقوته ، فإذا هو قد لفت إليه
الأبصار إعجابًا وإكبارًا ، إذ لم يكن بعدد قد بلغ أن يجلس من أبيه هذا

المجلس ، ولا أن يستوى كذلك معه على سرج ، ولا أن يخرج معه إلى تلك الرحلة الطويلة ، ولا غرؤ فقد كان للفتى ماض على صغر سنّه أتى فيه بما يأتى الفرسان ، وفعل ما يفعله الشجعان . ولقد أراد الأب بابنه من هذه الرحلة شيئاً فوق ما كان ، أراد أن يدّخل به إلى حياة الرجال صغيراً ، وأراد أن يشركه فى رأى ليفسح المجال لعقله كما أفسحه لبدنه .

لقد كان قصد الأب أن يُلَمَّ بمنازل قبيلة « أولهونود » ليحيى صلة ويجدد عهداً ، وأحب أن يحضر ابنه ما بين الناس والناس بعد ما حضر ما بين الأفراد والأفراد . وحين أشرف « يسوجاى » على الحى مرّ بعجوز على باب قُبْتها ، فوقفت إليه تتطلع إلى الغلام ثم قالت : « ليكون لهذا الغلام شأن أىّ شأن ، فلقد رأيت فيما يرى النائم أن صقراً يحمل على جناحيه الشمس والقمر قد حطّ على يدى ، وإحال أن هذا الحلم قد تحقق بمقدمك ، وكأنى بابنك هو هذا الصقر الذى رأيت فى منامى ، وما أطمعنى فى أن يُصهر إلى فأزوّجه إحدى بناتى ، وإنا لمن قوم أغنياء أكفاء للأمراء ، هذا إلى أن بناتى وسيّات وجهيات ، ولئن تركت لى الخيار لأختار له إحداهن اخترت له ابنتى بورتاى » . وما وصلت إلى هذا من حديثها حتى رفعت السّجف وطلبت إليهما الدخول ، فلذا هما أمام فتاة على حظ كبير من الجمال والفتنة ، وما إن وقع عليها نظر الفتى حتى شغف بها وعَلقت بقلبه ، وإذا هو لا يرفع بصره عنها .

ولقد جَهد الوالد في أن يصرف فتاه ولكنه لم يَقوَ ، وإذا الفتى يطلب إليه أن يستجيب لما طلبت العجوز ، ولكن الوالد ردّ فتاه عما سأل متعلّلاً بصغر سن الفتاة . ويُنعم الفتى النظر إلى الفتاة مرة إلى شعرها المرسل ، ثم يطيل النظر إلى قدّها اللدن وإلى وجهها النضير وإلى نهديها المكورين وهما يكادان يصوران مكانيهما تحت جلبابها السميك ، يحاول بذلك أن يردّ على أبيه قوله . ولكن الأب كان عن ذلك كله منصرفاً ، فهو يرى برأيه وفتاه يرى بقلبه ، وما استطاع الرأى أن يغلب القلب ، وما كان بالأب إن يُمعن في إباته ، وما كان بالابن أن يتأبى على قلبه ، ولقد ملك أن يقول لأبيه مُفصّحاً ، فلم يَسع الأب إلا أن يستجيب ، وخرج لشأنه مخلّفاً ابنه في بيت العجوز ليعرف فتاته ويرى رأيه .

وفيما كان « يسوجاي » عائداً إلى أهله عضّه الجوع بنابه ، وأحسّ حرّ العطش على لسانه ، وقذف به السير إلى قباب قوم من أعدائه ، وكانوا في حفلة من حفلاتهم الصاخبة . وعلى الغريب الطارىء إذا مرّ بقوم أن يترجّل ويُشارك القوم فيما همّ فيه . ولكن « يسوجاي » لم يشأ أن يفعل لما يعلم عن القوم من خصّومه وعداء ، ومضى في طريقه يغالب الجوع والعطش ، فإذا هو أضعفُ من أن يقوى لهذا وذاك ، فعاد أدراجَه إلى حيث القوم مُحْتفلون ، وأخذ يُشاركهم ما هم فيه فطعم من طعامهم وشرب من شرايبهم . غير أن القوم كانوا لم يَنسوا موقف « يسوجاي » منهم ولا ما كان له معهم ، لم يُنسهم ما هم فيه

من هو ما يحملونه له من عداء ، فدسُّوا له السم في الطعام والشراب ، وما خرج عنهم « يسوجاي » حتى أحسَّ بألم السم في أحشائه فاحتمله صابراً أياماً ثلاثة قطعها في تلك الرحلة المضيئة ، ثم أدرك منازل قومه وهو في الرَّمق الأخير ، وهناك أخذ يُفضى إلى أهله بها كان .

* * *

وفيا كان « تيموجن » مع حمية « مونليك » يهيمُ لزواجه من محبوبته الحسنة إذا بفارس ما كاد يبلغ القباب حتى ترجَّل عن فرسه عَجلاً يعدو هنا وهناك على غير هُدى وهو يصيح باسم « تيموجن » . وما كاد يخرج إليه « تيموجن » حتى تلقَّاه الفارس بهذا النبأ المروِّع ، نبأ أبيه « يسوجاي » وطلب إليه لهفًا أن يخفَّ معه للقاء أبيه ، فما أشوقه إلى أن يراه قبل أن يخلف الحياة . وما كان أسرع ما اعتلى « تيموجن » ظهر جواده ، ثم ما كان أسرع إلى المضي دون أن يودِّع حمَاهُ ، ودون أن يقول كلمة لعروسه .

ولكن « تيموجن » ما كاد يبلغ مدينة القباب « الأوردو » حتى وجد أباه قد خلف الحياة . هنا أحسَّ « تيموجن » بالعبء الثقيل يُلقى على كاهله وما حمل مثله من قبل ؛ أحسَّه في فقد الأب فحزن لذلك ثم أسى ، وأحسَّه في ذلك الفراغ الذي خلفه له فهبَّ يسدُّ هذا الفراغ حتى أوشك أو كاد .

غير أنه ما بلغ أن يفعل فعل أبيه في حياته حتى اضطربت عليه الحياة التي بدت صافية ، واختلفت بين يديه الأمور وقد تراءت موائمة ،

فقد استهانته بأمره عشيرته ، فهو لا يزال بعدُ فتى له أن يحكم فتياناً لا أن يحكم رجلاً وشيوخاً ، ورأوا أنفسهم أغراراً إن هم أسلموا قيادهم له ، فما الفتوة التى تخيلوها فيه ، ولا رجاحة العقل التى رجحت بها كفته كفة غيره ، ولا خبرته التى خبروها لمن فى مثل سنه بمغنية عنهم شيئاً ، وأين ابن الناشئ من الأب الناضج ، وأين العود الغض من العود الصلب ؟

لهذا خرجت عليه العشيرة لا تنتظر به ما أمّلته فيه ، فهم أبناء ساعتهم لا أبناء غدهم ، وما يحبون أن يخسروا اليوم قليلاً ليستردوا بعد اليوم كثيراً .

وهكذا قرّر قرار القوم على أن يجتمعوا يتشاورون ، وأن يسندوا أمرهم إلى رجل منهم له سنٌ فيجلُّ فى النفوس ، وله بطش فترهبه القلوب ، وله جاهٌ فيطاع . وحين اختلفوا على « تيموجن » اختلفوا على أنفسهم ، فخرج منهم نفر يبيعون هذه الصفات فى عشائر أخرى حين فقدوها فى عشيرتهم ، وبقي نفر لا تجتمع لهم كلمة فى يومهم حتى يفرّقها عليهم غدهم ، وانطوى نفر على أنفسهم يضمرون الحب لـ « تيموجن » ولا يستطيعون الإعلان عنه ، يدينون للسلف بما دانوا به للخلف ، وكانوا قلة قليلة .

* * *

وهكذا تفرّقت كلمة مغول « يگّا » واضطرب عليهم أمرهم ، ومرّت بالفتى أيام عانى فيها من خلاف أهله عليه ما عانى ، وامتنحن

ففيها بوثوب أعدائه به ، والأعداء نهّازون للخلاف . ولكن الفتى كان قد اعتاد البأس فاحتمل ، وكان قد ذاق الشدة فلم يضعف لها ، وصمد لما مرّ به يهاجم ويخادع ، ويشتد على أعدائه ويلين لأصدقائه ، وكشفت له تلك المحنة عن بلاء كثير ، وأفاد منها عظات ، ولقن عنها دُروسا ، وطالعتُه بصفحة جديدة من صفحات الحياة كان عليه أن يقرأها ويتتفع بها فيها .

كفاح العبقريّة

بهذه النفس القويّة وهذا العقل الواعي ، استقبل « تيموجن » تقلّب الأيام وغدر الصحاب وتنكرُ العشيرة ، ما وَهَن ولا استكان ولا خانه وعيه ولا ضلّ عنه فكره . لقد عرف « تيموجن » أن الشدة تُقَابِل بالشدة ، وأن المغلوب من خرج عن وعيه ، والمهزوم من يثس ، ولا مكان في خضمّ هذه المحنة إلاّ للقوى الحازم المطمئن . وحين ملك « تيموجن » أن يطمئن مع الأهوال ملك أن يفكر ، وحين ملك أن يفكر ملك أن يتبين كُنه أعدائه ، وأن يتعرّف ما عندهم ، وأن يتخير الوسائل التي يقوى بها عليهم . وكان على « تيموجن » أن يَلُمّ شمل أصدقائه ويُنظّم صفوفهم ففعل ، ولقد رأوه جَلَدًا شجاعَ الرأي والعقل ، فهبّوا لنصرته غير متخاذلين ، وحين اجتمع لهذا الفارس الصغير هذا الجمعُ الصغير وسط هذه المحنة الهوجاء أُرهب عدوّه وأخاف خصمه وأخذت الأمور تنقاد له ، وإذا الذين خرجوا عليه بالأمس استهانةً به قد أذعنوا ، وإذا عدوّه الذي قد تهيأ لغزوه رَجَعَ يتدبّر أمره ، وإذا الحياة تعود في القبيلة أمنًا وطمأنينة ، وإذا الراحلون عنه منهم قد عادوا إليه ، وإذا « تيموجن » زعيمهم كلهم قد اجتمعت له الكلمة عليهم .

ويخرج « تيموجن » يوماً إلى نهر « آنون » يصحبه أخوه « كاسار » لصيد الأسماك ، ومعهما أخوان لهما غير شقيقين لأم أخرى غير أمهما ، هما « بايكتار » و « بلجوتاي » ، ويقع « تيموجن » على سمكة كبيرة ، فيريدها لنفسيهما هذان الأخوان غير الشقيقين ، ويكاد « تيموجن » يبطش بهما . وتعلم أمه ما كاد أن يقع بين الإخوة ، فتخف إليهم لتلقى على ابنها درساً عنيفاً قوياً ، ويستمع لها « تيموجن » غير راض ولا مطمئن . لقد ذكّرت أمه بالفرقة ، وما نفضوا أيديهم منها إلا منذ حين قريب ، وذكّرت أمه بتربص أعدائهم بهم وتحينهم لمثل هذه الفرص ، وهم على الأبواب . ولكن « تيموجن » لم يكن قد ساء من أخيه « بايكتار » هذا وحده ، بل قد أساء إليه « بايكتار » من قبل بمثله حين عدا على طائر له كان قد صاده هو فاستأثر به دونه .

وهكذا رأى « تيموجن » أن الإذعان لكلام الأم على ما فيه من خير عام فيه الإجحاف به والامتهان لشأنه ، وهو ما احتمل ما احتمل ولا صبر لما صبر له إلا لتكون له الكلمة ويكون له الأمر ، وها هو ذا « بايكتار » يسلبه ما عجز القوم عن أن يسلبوه إيّاه ، ويريد أن يضعه حيث لا يريد هو أن يضع نفسه . لقد كانت الأم في جانب الحق حين رأت ما رأت ، وكان « تيموجن » في جانب الحق حين رأى ما رأى ، فقد أحب « تيموجن » أن يتمثل كلام الأم ويرعاه لو أن أخاه « باكتار » تمثل حقه ورعاه ، ولكن « تيموجن » لم يحب بفطرته النازعة إلى الجاه والسلطان أن يرعى حقاً لا يرعاه معه غيره . من أجل ذلك لم يستجب لأمه ، وفكر في الخلاص من أخيه « بايكتار » ، وبهذا صرّح لأمه .

وخرج « تيموجن » مع أخيه « كاسار » يصعدان إلى الجبل ، وهناك أدركا « بايكتار » وهو يرعى الخيل ، فاستدار به الأخوان « تيموجن » من خلفه و« كاسار » من أمامه يُسدّدان إليه سهميهما . ويقع نظر «بايكتار» على الأخوين يتهيآن لقتله فينأشدهما أخوتها له ألا يفعلا ، ويقع على الأرض يحسب أنها راحماه ، فيرمى « تيموجن » ويرمى «كاسار» وإذا «بايكتار» صريع مخرج بدمه .

ويعود الأخوان إلى أمهما « هولون » وملا محهما تُفصح عما ارتكبا ، فتثور بهما الأم مؤنبة غاضبة ، وتتجه إلى ابنها « تيموجن » تقول له : « لا غرو ، فما هذا بغريب عليك ، أنت الذى نزلت إلى الوجود بيد مملوءة دما . وما فعلت غير ما تفعله الوحوش الضارية لا تعرف فى ثورتها أى شىء هى تفترس ، أما كان الأجدر بك أن تُوجه ضربتك إلى أعدائك « التايدجوت » بدلا من أن تُوجهها إلى أخيك ؟ » .

ولكن « هولون » قد فاتها أن ابنها « تيموجن » لا يغفر لخصمه امتهانه له ، يستوى فى ذلك أن يكون الخصم أخا أو عدواً ، ولقد فاتها أن ابنها «تيموجن» لن يقوى لخصمه الأكبر قبل أن يفرغ من خصمه الأصغر ، وكيف له أن يمضى للقاء « التايدجوت » وهذا أخوه «بايكتار» يريد أن يهون من شأنه ، وكيف تكون له الكلمة المسموعة فى عشيرته والسلطان النافذ فى أهله ، وهذا أخوه « بايكتار » يريد أن يتنقّصه ويهون من أمره؟ لقد كانت للأم سياسة وكان لابنها «تيموجن» سياسة ، وكانت الأم تقوى عليها العاطفة ، وكان الابن يقوى عليه الطموح . من أجل ذلك غلب ما عند الابن على ما عند الأم .

لقد كان « تيموجن » مملوءاً حقداً على « التايدجوت » ، وكان مملوءاً
أَمْلاً في النَيْل منهم والقضاء عليهم ، ولكنه على هذا كان مملوءاً إيماناً
بأنه لن يُكتب له الفوز على عدوه إلا إذا كتب له الفوز بأهله ، ولن
يكتب له النصر على « التايدجوت » إلا إذا كُتِبَ له النصر على عشيرته .
وضمنهم إلى جواره على الطاعة والتقدير ، فهو لهذا فَعَلَ بأخيه
« بايكتار » ما فعل . وكان بما أخذ به أخاه صاحب الكلمة في قومه
يخشونه ويرون أنهم إن ناصبوه العداة فلن يكونوا أعزَّ عليه من أخيه .
وهكذا وطَّد « تيموجن » لهيبته في نفوس قومه ، ووطَّد لها في
نفوس أهله وإخوانه ، وعلمهم بهذا الدرس القاسى المصير الذى
ينتظر كل خارج . ولعل « تيموجن » كان يُحس من أخيه « كاسار »
شيئاً ، فقد مرَّ بنا أنه كان هو الآخر طَمْوحاً ، فأراد بالذى فعله أن
يجعله على بيئة من أمره .

* * *

وحين استقرت الحياة لهذا الزعيم « تيموجن » بين قومه أخذ يفكر
في الحياة الأخرى المحيطة به ، حياته بين خصومه من حوله . وكان
أشدَّ هؤلاء الخصوم عليه « تارجوتاي » زعيم قبيلة « التايدجوت » ،
فلقد نادى بنفسه خائناً على كل مرتفعات « الجوبى » ووديانها . ثم
مضى يقلِّب العشائر على « تيموجن » ويثيرهم عليه ، يغرى من يُغرى
منهم ، ويشترى من يشتري منهم ، لينهض هؤلاء جميعاً إلى مدينة
« القباب » .

ولكم ودّ « تيموجن » أن يترىث بخصمه حتى تكتمل له قوّته ،
ولكم رجا ألا يُعاجله خصمه حتى تنهيا له هو الفرصة ، ولكن خصمه
« تارجوتاي » لم يُمهله ولم يدع له تلك الفرصة . لقد كان هجوم
« تارجوتاي » هجوماً مفاجئاً ، وكانت جموعه أكثر من أن تُصمد لها
جموع « تيموجن » .

وكان على « تيموجن » أن يحتال لأمره بعد أن وجد أنه لا قبل له
بعدوه ، فرحل هو أسرته إلى كهوف الجبال يُلوذ بها ، على حين أخذ
أخوه غير الشقيق « بلجوتاي » يقطع الأشجار ويضعهما في طريق
المعتدين يعوّق بها مسيرهم ، وانتحى أخوه الشقيق « كاسار » ناحية
من الربوة يُرسل سهامه القاتلة على العدو الزاحف . وما كان همُّ
« تيموجن » أن يختفى عن المعركة ، ولكن كان همه أن يتوارى عن عيون
الأعداء حتى لا يقع في أيديهم لُقمه سائغة فتذهب بذهابه ريح قبيلته ،
وأراد أن يخلى الجو لعدوه هذه المرة يفعل ما بدا له حتى إذا ما أياسه
البحث عنه عاد أدراجه ثم يعود هو إلى الظهور يدبر لأمره والانتقام من
عدوه .

وكان « تيموجن » مؤمناً بما يؤمن به قومه ، فاتجه بوجهه إلى
الشمس وهى تميل إلى المغيب يسأل الآلهة الخلاص ، يُريق اللبن على
الأرض ويدقّ صدره بيده مرات تسعا ، وهو يُنذر نذره الأكبر بأن
يُقدّم هو وآله من بعده إن نجحوا قرايينهم . وما كان « تيموجن »
يقوى لغير هذا ، وما كان من رأى أن يعرض « تيموجن » نفسه

للهلاك ، وما كان من رأى أن يخرج للحرب فيصمد لها بين قومه
فيرضهم معه للهلاك ، ولقد رأى أن القوم مُتتهون وراجعون إن لم
يعثروا له على أثر . من أجل ذلك تلبث في الجبل أياماً تسعة .

وما أغنت سهام « كاسار » وما أغنت تلك العوائق والأشجار ،
وانتشر قوم « تارجوتاي » بين القباب يبحثون عن « تيموجن » . وكانوا
أعقل من أن يعودوا دون أن يَقَعُوا له على أثر ، وكانوا أعقل من أن
يدعوا هذه الفرصة تُفقد من أيديهم . من أجل ذلك جدُّوا في البحث
وراء « تيموجن » لا ييأسون ولا يَمَلُّون .

ولقد ضاق « تيموجن » صبراً بمكانه ، وضاق صبراً بالجوع
والظما ، فخرج من كهفه يتلمس شيئاً من قوت وشيئاً من ماء ، فإذا
هو بين يدي أعدائه . وما كاد أعداؤه يَقَعُونَ عليه حتى وضعوا القيود
في يديه وقدميه والنير على قفاه ، ثم قادوه بين أيديهم مهلين ومن
خلفهم الأسلاب التي غنموها .

وأودع « تيموجن » السجن فظلَّ فيه ، وما قيَّد عليه خُصومه فكره
وإن كانوا قد قيَّدوا عليه حركته فبقى حيث هو في سجنه يفكر في
مصيره ، يفكر في أهله وما حلَّ بهم من بعده ، يفكر في قومه وما انتهى
إليه أمرهم ، يفكر في سلطانه الذي خرج من يده . وما كان لمثله أن
يستسلم ، وما كان لمثله أن يهون ، ومن أجل ذلك عزم على الفرار ،
وشرع يدبّر لهذا الفرار ، يتحين الفرصة له غير مُبال ما سيكون .
ويبيت القوم في عيد ، يخرجون له جميعاً ويتركونه لحارسه يرعاه ،

وَيَسُودُ الظُّلَامُ ، وَيَغْرُقُ الْقَوْمُ فِي شَرَابِهِمْ وَصُخْبِهِمْ ، وَتَغْفُو عَيْنُ الْحَارِسِ شَيْئًا ، فَيَخْلَعُ « تِيْمُوجَن » النَّيْرَ عَنْهُ وَيَهْوِي بِهِ عَلَى الْحَارِسِ فَيَصْرَعُهُ ، وَيُخْرِجُ مِنْ سَجْنِهِ هَارِبًا .

غَيْرَ أَنَّهُ مَا أَبْعَدَ شَيْئًا عَنْ قَبَائِهِمْ حَتَّى أَخَذَ الْفَجْرُ يُرْسِلُ ضُوءَهُ فَيَكْشِفُ عَنْهُ ، فَأَخَذَ يَتَلَمَّسُ مَكْمَنًا بَعْدَ مَكْمَنٍ ، وَإِذَا أَعْدَاؤُهُ فِي إِثْرِهِ بَعْدَ أَنْ عَلِمُوا أَمْرَهُ ، فَلَمْ يَمْلِكْ إِلَّا أَنْ يَقْذِفَ بِنَفْسِهِ فِي جَدُولٍ ، وَظَلَّ تَحْتَ الْمَاءِ يَرْقُبُهُمْ وَهُمْ لَا يَرَوْنَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَحْسَنَ أَنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ قَدْ شَعَرَ بِهِ فَوَجَلَ ، وَلَكِنْ سَرَّعَانَ مَا سَرَّى عَنْهُ حِينَ رَأَى هَذَا الَّذِي فَطَنَ إِلَيْهِ لَمْ يَكْشِفْ لِلْقَوْمِ عَنْهُ وَلَمْ يَدْلِهِمْ عَلَيْهِ .

عِنْدَهَا حَمْدُ « تِيْمُوجَن » لِإِلَهِهِ ، وَظَلَّ قَابِعًا فِي الْمَاءِ حَتَّى مَضَى الْقَوْمُ عَنْهُ ، ثُمَّ خَرَجَ لِيَمْضِيَ فِي طَرِيقِهِ وَيَلْحَقَ بِأَهْلِهِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ مُثْقَلًا الْخَطْوُ لِثِقَلِ الْقَيْدِ فِي قَدَمَيْهِ ، وَكَانَ لَا يَأْمَنُ إِنْ هُوَ مَضَى عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فِي وَضَحِ النَّهَارِ أَنْ يُلَاحِقَهُ الْقَوْمُ فَيَقْعُوا عَلَيْهِ . وَهَنَا ارْتَدَّ إِلَى نَفْسِهِ يَتَدَبَّرُ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي رَأَاهُ وَلَمْ يُنْذِرْ بِهِ قَوْمَهُ ، وَأَحْسَنَ أَنْسَاءَ مِنْهُ إِلَيْهِ ، وَأَحْسَنَ صَدِيقٍ يَجِبُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي مُحَنَّتِهِ تِلْكَ .

وَلَكِنْ أَتَى لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ، وَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَخْلُو بِهَذَا الرَّجُلِ لِيَسْأَلَهُ عَوْنَهُ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْجَرِيءَ لَا يَفْقَدُ جُرْأَتَهُ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ ، فَمَا بِأَلِّهِ لَا يَسْعَى فِي إِثْرِ الْقَوْمِ ، وَمَا بِأَلِّهِ لَا يَلْحَقُ بِالرَّجُلِ مَهْمَا كَلَفَهُ ذَلِكَ ، وَهَلْ هُوَ لَا قِيعَانَ غَيْرِ الْمَوْتِ إِنْ فَشَلَ وَهُوَ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ ؟ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَدَلَ « تِيْمُوجَن » عَنِ الْمَضَى فِي طَرِيقِهِ إِلَى أَهْلِهِ وَرَجَعَ يَتَّبِعُ الْقَوْمَ عَلَى

كتب ، ولا يعنيه غير هذا الرجل فظل يُلاحقه ببصره ، حتى إذا ما نزل القوم مع الليل وأووا إلى قبابهم لم تفتّه قُبّه هذا الرجل . فإذا ما هجع القوم اقتحم على هذا الرجل قُبّته وفي عَينيه بريقٌ ينمّ عن عرفانه للجميل ، وينمّ على ما يحمل من بأس .

وكاد الرجل أن يفزع وكاد أن يصيح ، غير أنه كان يرحم ذلك الأسير ويكبره . من أجل ذلك قام إليه فكسر عنه قيوده وهو يهمس في أذنيه : هَلُمَّ معي فلو رآك القوم عندى قتلوني معك . وخرج الرجل بالأسير « تيموجن » إلى عربة قد تكدّس عليها الصوف وأمره أن يدس نفسه بينه بعد أن زوّده بقليل من الطعام ، وبعد أن أمدّه بقوس وقليل من السهام .

وكان القوم في شك من فرار الأسير عنهم ، وكانوا يخالون أنه لم يبعد عنهم ، فهبّوا مع الصباح يبحثون هنا وهناك ، يفتشون ويمعنون ، وكان فيما فتشوا تلك العربة التى اختبأ فيها « تيموجن » جسّوها بأيديهم وجسّوها برماحهم بعد أن عجزت أيديهم ، فإذا الرماح تُصيب « تيموجن » فى بعض جسمه ، ولكنه احتمل طعنات الرماح صابراً لم يتأوّه ولم ينبس بكلمة على الرّغم مما أصابوه به من جُرح عميق فى ساقه ظل متأذياً به طيلة حياته .

وما كاد القوم ينصرفون عنه ويعودن لشأنهم ، حتى خرج « تيموجن » من مخبئه فوجد المكان خالياً ، ووجد الجواد إلى جوار العربة ، فشده إليها ومضى بها يشق الطريق مُسرعا إلى موطن قومه .

وما إن بلغ « تيموجن » منازل قومه حتى وجد القوم قد تخلّوا عن أهله ، وحتى وجد أسرته قد أنهكتها الحياة ليس لها ما يسد رمقها ولا ما يقوم بأودها ، تعيش على مايقع لها من صيد البر بعد جهد جهيد وكّد شديد ، ثم هي ليس لها من الخيل إلا جياد تسعة .

ومن قبل أن يدرك « تيموجن » أهله كان لصوص من «التايدجوت» قد عدّوا على تلك الجياد التسعة فنهبوا منها ثمانية ، ولم يتركوا لتلك الأسرة غير جواد كان « بلجوتاي » قد خرج به إلى شعاب الجبل جاداً في البحث وراء الفئران ليضمن القوت لأهله ، كما كان «كاسار» قد ذهب هو الآخر إلى النهر يتلمس فيه السمك . وعاد «بلجوتاي» وعاد «كاسار» وإذا عودتهما مع عودة أخيهما «تيموجن» وإذا الثلاثة يستمعون لهذا العدوان الجديد ، وما كانت الأسرة تقوى على أن تشتري جياداً عوضاً عما فقدت ، ولا في مقدورها أن تصبر على تلك الحال . وهم «بلجوتاي» أن يلحق باللصوص ، كما أراد «كاسار» أن يكون هذا له ، ولكن « تيموجن » رأى أن هذا واجبه وعليه القيام به ، وما كان قد ظفر بشئ من الراحة بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة .

وخرج « تيموجن » في إثر اللصوص على جواده بعد أن تزوّد بقليل من الزاد ، ومرّ به يوم ، وطالعه اليوم الثالث وهو على حال من الإعياء ، يحمله فرس مكدود قد أضناه السير ، وسوف لا يقوى به على مواجهة المغيرين من « التايدجوت » ، إن هم بدوا له على خيل قد

أخذت قسطها من الراحة ، يُستبدل بها غيرها مع كل رحلة . وفيما هو يسير في يومه الثالث وقع على شاب يقود فرساً ، فأخذ يسأله علّه يظفر منه بشئ يعرف منه خبر هؤلاء اللصوص الذين سرقوا جيات أهله . وكان عند الفتى علم عن هؤلاء اللصوص ، فلقد وصف له الخيل فإذا هي هي ، وأخبره بعددها فإذا هو هو . ورغب الفتى في أن يصحب « تيموجن » في البحث عن ضالته ، وقاد الفتى « بورشو » صديقه الجديد « تيموجن » إلى مرعى قريب حيث قدم له جواداً قوياً مكان جواده المتعب ، ومضى الاثنان في إثر اللصوص . ومضت على الصديقين أيام ثلاثة انتهيا بعدها إلى مرعى قريب من منازل « التايدجوت » وإذا فيه الجيات الثمانية ترعى إلى جانب جيات « التايدجوت » . وما كادت تقع على الجيات الثمانية عينا « تيموجن » وصديقه « بورشو » حتى خفا إليها وساقاها أمامهما تعدو .

وعلمت « التايدجوت » علمهما فخفوا في إثرهما ، يتقدمهم فارس منهم على فرس له أبيض ، وقد أمسك بحبل ينتهى بأنشطة يحاول أن يعلق بها « تيموجن » وصديقه . وقدم « بورشو » صديقه « تيموجن » أمامه ، وطلب إليه أن يمضى بالخيـل على أن يتخلف هو قليلا ليشغل القوم . ولكن « تيموجن » أبى على صديقه « بورشو » ما طلب ، وأصرّ على أن يمضيا معاً . وتابع الصديقان سيرهما إلى أن أذنت الشمس بمغيب ، وإذا الفارس الذى كان في إثرهما على قاب قوسين أو أدنى منهما ، وخشى « تيموجن » أن ينال صديقه أذى وأن يؤسرّ دونه ،

فصعد في أول ربوة لقيها ثم أحكم سهمه في قوسه وسدّده إلى خصمه فأرداه قتيلاً . وما إن رأى القوم ما حلّ بطليعتهم حتى عمّهم الذعر وخافوا المكيدة فلووا « أعنة خيلهم وانقلبوا راجعين » .

ومضى الصديقان في طريقهما والخيل أمامهما ، وإذا هما مع الفجر قرب مخيم « بورشو » ، وتلقاهما والد « بورشو » فرحاً . وما إن استمع إلى ابنه وهو يقص عليه قصة تجدته لصديقه المغولى وما كان من أمر « التايدجوت » معهما حتى أوسع الأب ضيفه « تيموجن » كرمًا ، ولما هم « تيموجن » أن يرحل زوّده بالكثير من الطعام ، كما أهدى إليه صديقه « بورشو » جلد سمور هدية .

وعاد « تيموجن » إلى أهله يسوق الجياد الثانية ، فكان لأوبته ظافرًا غانما أثر أى أثر ، تلقاه أهله بالفخر ، وتلقته عشيرته بالإكبار . وإذا ثقة القوم بالزعيم تملأ النفوس ، وإذا اطمئنّانهم إلى رجلهم يُعاودهم ، وإذا هم جميعًا ملتفون حوله ، وإذا من شردّ منهم عليه يعود إليه ، وإذا هم مرة أخرى تحت إمرته وفي سلطانه .

وهكذا كتبت الحياة مرة ثانية لـ « تيموجن » وتربّع على عرش الزعامة من جديد ، وأخذ يفرض العُشور على قومه كما يفعل الزعماء . ولقد جرى القوم على أن العتاد والدواب ملك لأصحابها إلا إذا ادعاهم الخان لنفسه ، وما يضيرهم عندها أن يُسلموها إليه إن كانت فيه الكفاية لحمايتها والذود عنها . ولقد دل « تيموجن » بما فعله حين عاد بالخيّل على تلك الكفاية ، فما بالهم لا يُسلمون إليه كل هذا ، ففعلوا

راضين مطمئنين . وأنس « تيموجن » بأنه قوىّ فعزّ ، وأنس قومه بعزّته فزادوه تأييداً وزادوه خضوعاً ، وأحسّت القبائل المجاورة هذا الذى ناله « تيموجن » من تأييد وهذا الذى أصبح فيه بين قومه من إعزاز فرهبوهم وخافوهم .

* * *

وشغل « تيموجن » عن خطيبته « بورتاي » منذ خلّفها ، لم يختلف إليها ولم يعرّج بمنازلها ، شغلته تلك الأحداث كلها ، وشغلته هذه الخطوب المتعاقبة ، ولكن هذه الأحداث وتلك الخطوب لم تشغله عن أن يفكر فيها وأن يذكر أنها فى انتظار أوّيته .

وقطعت العروس على فراق عريسها أعواماً أربعة بلغت معها عامها الثالث عشر ، فنضجت واكتملت وتجلّت أنوثتها وبّدت فاتنة . وما كانت « بورتاي » بمنأى عن أخبار الزعيم الشاب طيلة هذه الأعوام الأربعة بل كانت موصولةً بها ، يُشيرها ما له من إقدام فتزهى ، ويهولها ما أَلَم به من بأس فتلهع ، ويبلغها عنه ما وقع فيه من كيد فتَحزن وتقلق . لقد عاشت « بورتاي » ترُقّب عودة الزعيم المُتقد عاطفة وفطنة ، وكانت حيرى قلقةً تخاف أن يحدث ما يسوؤها فيه ، وتخاف أن يحدث ما يسوؤها فى نفسها .

وكما كانت « بورتاي » مشغولةً بعريسها « تيموجن » كان « تيموجن » مشغولاً بعروسه « بورتاي » ، وكما كانت هى تخاف أن تخطفه منها امرأة ، كان هو يخاف أن يخطفها منه رجل . من أجل ذلك

ما كاد «تيموجن» يُظَلِّه الأمن ويستشعر الطمأنينة حتى خرج إلى حيث تنزل «بورتاي» على رأس موكب يضمُّ مئات من الفرسان وهم في أبهى حلّة وأجمل زينة ، عليهم الثيابُ الجلدية الفَضْفَاضة متّشحيين بفراء الأغنام ، وقد ازيّنت صدورهم بدُرُوع من الجلد المقوَّى الملنُون بالألوان زاهية براقّة والرماح المُشرعة قد شدّت إلى ظهورهم ، وجُعبات السهام المملوءة قد تُبِتت إلى جنوبهم ، وقَرَب الماء قد علّقت إلى سرُوجهم ، وقد طَلَّوا وجوههم بالشحم اتقاء البرد ، وسار الموكب في نظام مرسوم بديع تتقدّمه الطبول على جياد مختلفة الألوان . وعندما وصل الركب إلى خيمة « بورتاي » خفّ الوالد في أسرته ، فرحين مزهوين بلقاء الغازي مرحّبين بمقدمه بعد أن كادوا يفقدون الأمل في رجوعه .

ونزل رجال « تيموجن » عن خيلهم وتركوا للخدم ونفر من أهل العروس رعايتها ، ثم تقدّموا إلى السرادق المنصوب لهم ، وجلسوا فيه صفوفًا إلى جوار شيوخ القبيلة يشربون ويُسرفون في الشراب كما هي عادة القوم . حتى إذا ما لعب الشراب بالرؤوس أخذوا في مزاحهم العنيف ، فكنت ترى أحدهم وهو يَشُدُّ صاحبه من أذنيه كأنه يريد أن يقتلعهما اقتلاعا ، كما ترى آخر وهو يمدّ في شدقى زميل له وكأنه يُفسح في حلّقه ليتسع لحظّ أكبر من لبن وخمر . حتى إذا ما شَبَعوا من هذا المزاح المرّ أخذوا في رقصهم البرّبري يُملئ فيه عليهم طبعهم الصاخب .

وإنى لأكاد أستوحى من موسيقى « ألكسندر بورودين » في

مقطوعته الخالدة رقصات بولوفتسيا أو - رقصات القفجاق - ضمن أوبرا الأمير إيجور، ما كان لهؤلاء المغول من موسيقى ورقص . فما يُبعد القفجاق عن المغول كثيراً ، تكاد تجمع بينهم بيئة وتجمع بينهم حياة ويصل بينهم موروث ، إذ هم من القبائل التى كانت تنزل أواسط آسيا ؛ ثم ما تكاد تبعد أحداث قصة أوبرا الأمير إيجور عن الحقبة التى أظلت تيموجن ، فقد وقعت هذه الأحداث حوالى عام ١١٥٠ م ، وما يدرينا فلعل هذه الألحان التى صوّرها « بورودين » للقفجاق صورة من تلك التى كانت للمغول تحاكيها فى قليل أو كثير . . . لست أدرى .

وفىما كان الرجال آخذون فى لهوهم ورقصهم اصطفت النساء فى جلستهن المعهودة ، يعزفن على كمان ذى وتر واحد ويغنّين . وقد انتحى نفر من أهل العروس مع الخدم يذبحون الماشية ويعدون الطعام . وبقي القوم على حالهم تلك من لهو ومرح وشرب وأكل يومين ، حتى إذ ما دخلوا فى يومهم الثالث أزيّنت العروس ولبست ثوب العرس الفضفاض ، تتدلّى منه القطع الفضية ، كما تتدلّى من جدائلها التمايم مصونة فى قطع من الجلد فصل ما بين أعلاها وأسفلها ، وقد توجّت رأسها بما يشبه التاج المقلوب المصنوع من لحاء شجر البتولا ، ثم كسى بالحرير المطرز . هكذا بدت العروس وهى تجلس إلى جانب والدها بين يدى الموثّق يُمضى العقد على ما ألف القوم . وما إن حان حين الرحيل حتى أخذت العروس تعدو بين الخيام وفى إثرها

زوجها يعدو خلفها ، وتعرضه أخواتها وكأنهن يدفعنه عنها ، بقية من حمية تشير إلى ما عند القوم من حفاظ على المرأة . ثم يلحق «تيموجن» بعروسه «بورتاي» فيحملها بين يديه ويضعها على جواده ليعود بها إلى أهله ، يحيط به فرسانه بعد ما أنسوا وطعموا وشربوا . ولكن الفارس قبل أن يرسل بعروسه يحيط به أهل العروس يحملون رداء ثميناً من فراء السمور هدية منهم إلى أمه .



بهذا حقق «تيموجن» أملاً من آماله فهذا شيئاً ، غير أنه لم يمعن في الهدوء ولم يستطع الدعة ، فهو يعلم أن من حوله أعداء يترصدون به الدوائر ، ويعلم أنهم موافقون له إن لم يكن اليوم فغداً . يعلم أن «المركيت» لم ينسوا له خطف أبيه «يسوجاي» لأمه «هولون» من زوجها . وكان يعلم أن «التايدجوت» وزعيمهم «تارجوتاي» لن ينسوا له فراره من أيديهم بعد أن قتل الحارس ، كما لن ينسوا له قتله لقائد السرية التي همت باللاحاق به واستخلاص الخيل من يديه .

ذكر هذا كله «تيموجن» فأنسى قرحته بعروسه وهو في مُستهل بنائه بها ، وتمثل له ما عليه من واجب نحو نفسه ونحو قومه . ثم نظر في أمره فإذا عليه أن يعد جيشاً قوياً من المغول يردّ به أعداءه ويدفع عن نفسه وقومه . ولكن أتى لهذا الزعيم الناشئ «تيموجن» أن يفعل ، وقبيلته قليل عددها ، وهى على ذلك لا يزال منها نفر منصرفة قلوبهم عنه .

من أجل ذلك فكّر « تيموجن » في أن يعود إلى الصداقة القديمة التي كانت بين أبيه و « طغرل خان » زعيم « القرايطة » فيجدها ، و« القرايطة » كما يعلمهم « تيموجن » قوم أشدّاء كُفّاة في الحرب . وما كاد « تيموجن » يفكّر حتى نفّذ ما فكر فيه ، فحمل معه ذلك الفراء الثمين الذي أهدى إلى أمه منذ حين قريب ، والذي أهداه إليها قوم « بورتارى » زوجه . ومضى إلى طغرل خان « كما يمضى الصديق إلى الصديق يحيط به حرسه وفرسانه . وأعجب « طغرل خان » بذكاء « تيموجن » وأحب فيه جرّأته ورأيه . وما طلب « تيموجن » من صديق أبيه العون ، فيقف منه موقف السائل وقد يردّه فيذلّ وتهون عليه نفسه ، ولكنه عرض على صديق أبيه عونه واستعداده لمناصرته ، فكبّر في عيني « طغرل خان » وبادله عوناً بعون .

وهكذا عاد « تيموجن » بما شاء ، عاد وقد ضمن « القرايطة » إلى جانبه إذا أغار أو أغير عليه ، عاد لا يحفل بأعداءه من قبائل « النايان » و« الأويجور » و « الأتراك » ، فلقد أصبح بينهم وبينه هذا الحاجز المنيع من « القرايطة » .

وكان « تيموجن » كان على علم بما سيقع ، فما هى إلا أيام قلائل حتى هبّت فزعة من الفجر « هوركشين » خادمة « هولون » وكانت قد هرمت ، تُنذر سيدها بجيوش لا قبل لهم بها تزحف إليهم زحفا . واستيقظت « هولون » تحسبهم « التأيّدجوت » عادوا لينكلّوا بهم مرة أخرى ، فهرولت هى وخادمتها إلى حيث قومها تُنذرهم . وهبّ القوم

وعرفوا أنها الحرب فخفُّوا إلى أسلحتهم وجيادهم . وفيما القوم مشغولون بهذا من أمرهم وعلى رأسهم زعيمهم « تيموجن » ومن خلفه أمه « هولون » إذا بالمغيرين يكتنفونهم من كل حَدَب وصوب ، وإذا هم قبائل « المركيت » جاءوا ليثأروا لأنفسهم فيختطفوا واحدة مكان واحدة ، وليس لهم هم غير ذلك ، وكان همهم أن يَخْتطفوا « بورتاي » زوج « تيموجن » . وما هي إلا جولة - وعلى غرة من القوم - حتى كانت « بورتاي » بعدها في أيديهم ، فأسلموها إلى أخ لزوج « هولون » الأول الذي سلبه « يسوجاي » زوجه . وما كادوا يفعلون حتى رجعوا فرحين بنصرهم ، فرحين بأسيرتهم ، تاركين « تيموجن » يتحرَّق غيظًا .

لقد عزَّ على « تيموجن » ما أصيب به في « بورتاي » . عزَّ عليه أن تختطف من بين يديه هكذا في غَمُضة عَيْن وما استطاع أن يدود عنها . ولقد كان « تيموجن » يعلم ما عندهم من قوة وعتاد ، ويعلم أنه بجموعه القليلة لن يغنى شيئا . من أجل ذلك فكر « تيموجن » في الاستنجاد بحليفه « طغرل خان » ، وما كاد يعرض عليه أمره حتى خفَّ لعونه وزوَّده بفرقة قوية من الفرسان ، ومضى « تيموجن » برجاله ورجال « القرايطة » ، لم يتلبَّث ولم يترثَّ نحو مضارب « المركيت » فدَّهموهم في قبايهم ونكلوا بهم ، وأسَّرت « بورتاي » إلى زوجها « تيموجن » حين شعرت به وسمعت صوته ، فحملها عائداً بها إلى قومه بعد أن ألقى على « المركيت » درساً لن ينسوه

وردّدت الآفاق صدى تلك الغزوة ، فملأت الأسماع ، وتحدّث بها
الناس يُضفُّون على الزعيم البطل ما شاءوا من قوة وعزم ، فإذا
« تيموجن » حديثُ الجميع ، وإذا القبائل تهرع إليه تنضم إليه وتنضوى
تحت لوائه ، وإذا جيشه ينمو ويزيد ، وإذا قوام هذا الجيش بعد قليل
ثلاثة عشر ألف فارس أعدّ لهم « تيموجن » خيرة القواد فدربوهم ،
واختار لهم نفرًا من المحنّكين فلقّنوهم أسرار الحرب ، فأصبح له جيش
قوى مرهوب يملك العدد الكثير والعتاد الكبير .

* * *

وفيما « تيموجن » راحل بقومه رحلة الصيف طلبًا للكلأ والمرعى ،
قد أعدّ عرباته وشدّها بعضها إلى بعض ، واندفعت الثيران تجرها ،
والخيل والماشية من حولها ، والفتيان في هُوهم المعهود ، والفرسان على
ظهور خيلهم يدورون بالعربات ، وقد انتشر منهم نفر في الآفاق وعلى
رؤوس الجبال يرقّبون العدو حتى لا يباغتوهم . وفيما هو في ذلك
مدركًا بقومه واديًا من الوديان الفسيحة جاءه النبأ بأن « التايدجوت »
ينحدرون إليه في جموع كثيفة وفي سرعة خاطفة .

لقد هبّ إليه خصمه « تارجوتاي » بجيش يبلغ الثلاثين ألفًا قد
أعده إعدادًا قويًا يريد ألا يوطّد له في الأرض ، فيقوى ساعده وتشتد
شوكتة ويستفحل أمره فلا يقوى عليه ولا يثبت له . من أجل ذلك
خرج « تارجوتاي » يريد أن يفاجئ « تيموجن » وأن يأخذه على غرة .
وكاد أن يبلغ « تارجوتاي » ما أراد ، وكاد أن يخرج الأمر من يدي

«تيموجن» لولا أن هداه فكره الخاطف إلى وضع حربى خرج به من المعركة منتصراً .

لقد جمع « تيموجن » المركبات على هيئة مربع مُفرغ ، حشد فيه الحيوان وجعل فيه النساء والأولاد بعد أن زودهم بالسهام والنبال ، وأمرهم أن يرموا العدو حين يشرف . ثم نظر « تيموجن » فإذا في جانب من جوانب الوادى غابة كثيفة عسير اختراقها اتخذ منها حماية يحمى به جانبه الأيمن ، وصف فرسانه فى الفضاء الذى بينها وبين المركبات كتائب بلغت ثلاث عشرة كتيبة ، كل كتيبة فى صفوف عشرة ، وفى كل صف مائة فارس .

على هذا رتب « تيموجن » جنده ، وبهذا ضمن الثبات لعدوه مهما عتف ، ثم أعد « تيموجن » للهجوم حشداً من الفرسان يتحرك عند أمره . وتقدم إليه عدوه فى ستين كتيبة ، كل كتيبة من خمسمائة مقاتل قد اصطفوا فى صفوف خمسة ، الصفان الأولان من الفرسان المدرعين بصفائح الحديد المجدولة بشرائط الجلد ، وعلى رؤوسهم خوذة من الصلب تتدلى منها خصل من ذيول الخيل ، وبأيديهم حراب طويلة ثقيلة فى رؤوسها هذه الخُصل أيضاً . كما ظللت الخيل بصفائح الحديد المشدود بعضها إلى بعض بسُيُور من الجلد تُغطى صدورها وجوانبها . أما الصفوف الثلاثة الأخرى فمن الفرسان الخفيفة ، حملة الأقواس والسهام القادرين على الحركة فى خفة وسرعة .

وبرزت الصفوف الثلاثة الخلفية من جيش « التايدجوت » وتقدمت

تناوش فرسان المغول ، فإذا هم يقعون تحت وابل من النبل لا يقوون معه على الثبات فارتدوا مدحورين . وزحف فرسان « التايدجوت » المدرعون فرد عليهم « تيموجن » بهجوم مضاد كان قد أعد له عشرة صفوف انقضت كالمطرقة على جيوش « التايدجوت » فارتدوا مهزومين . ورأى « تيموجن » أن الفرصة سانحة ليقضى على الصفوف الخلفية من جيش « التايدجوت » الذين لم يفيقوا من أثر الضربة الأولى ، والذين أصبحوا بعد اندحار صفوفهم الأولى قد فقدوا نظامهم واضطرب أمرهم . فزحف « تيموجن » بكل ما يملك في عزم وقوة ، فإذا جيوش « التايدجوت » تُولى الأدبار وتنتشر في الوادى على غير نظام ، وإذا « تيموجن » يتبع الفارّين في كل حَدَب وصوب يقتل ويأسر . ومرّ يوم لم تُغمد فيه السيوف ولا هدأت الرماح ، حتى إذا ما انحدرت الشمس للمغيب كان النصر الحاسم لجيش « تيموجن » ، وكان الهلاك المحقّق لجيش « تارجوتاي » من « التايدجوت » .

وعرض « تيموجن » الأسرى بين يديه ، وهو أحنق ما يكون على « التايدجوت » ، لما أتوه من غدر بعد غدر وسلّب بعد سلّب . وما إن وقع عليهم بصره حتى ذكر « تارجوتاي » ومزاحمته له على السلطان ، عندها لم يملك نفسه فأمر بهم جميعاً فألقوا في مَراجِل الماء وهى تغلى .

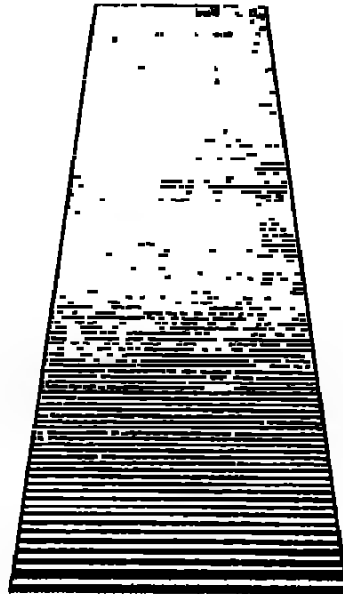
واقعة المركبات

التايدچوت

٦٠ كتيب
الكثير من... مقال
سحق ٥ صفوف
الصناديق الخماسية لرسالة شيلة
الصفوف الخمسة مرساة خضرة
الصف ١٠٠ مقال
المجموع ٣٠٠٠٠

المغول

١٣ كتيب
الكثير من ١٠٠٠ مقال
سحق ١٠ صفوف
الصف ١٠٠ مقال
المجموع ١٣٠٠٠

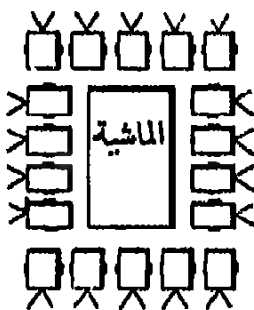


التايدچوت

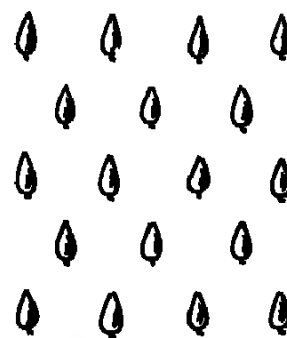
المغول



مربع المركبات



غابة



وقیعة

وهكذا كُتِبَ على هذا الزعيم أن يخوض الحرب مرة ومرة ، وإن كان قد كُتِبَ عليه أن يجمع مرارتها حيناً فقد ذاق حلاوتها حيناً آخر ، إلى أن كانت له تلك الوقعة بينه وبين « التايدجوت » التى خرج منها السيد المطاع الأمر فى شمالى « الجوبى » كله ، وكان جديراً به أن يحمل الصولجان العاجى فى يمينه ، وأن يمتطى الجواد الأبيض ، شأن كل زعيم وسلطان .

وصفّت الأحوال للزعيم الشاب « تيموجن » ففرغ لقومه يُشرِّع لهم وينظم أمورهم . واتجه أول ما اتجه إلى جيشه ، فاختار له من القواد أشجعهم وأصلبهم عوداً لينشئوا الجند على غرارهم ، فلقد علّمت البادية « تيموجن » ما للقوة من سلطان ، وأن الحق للقوى ، وأنه لا مكان فى الحياة لضعيف . من أجل ذلك قدّر « تيموجن » الشجاعة فى الشجعان ، ومن أجل ذلك أحب « تيموجن » أن يُحيط نفسه بجند لهم هذه الصفات من عزم وقوة وحزم ، ليضمن بهم النصر على خصومه . ونظر « تيموجن » فيما حوله فرأى ثورات مُشتعلة وحروباً متصلة لا تهدأ لها نائبة ، بين تلك القبائل المنتشرة فى صحراء الجوبى التى تعيش

ما بين جبال آسيا الوسطى وسور « الخطاي » ، ثم أنعم الفكر فإذا هو عند رأى يضمن به هؤلاء الناس جميعاً حياةً آمنَ من حياتهم تلك ، وعيشاً أهدأ من عيشهم هذا . لقد انتهى « تيموجن » إلى أنه لا بد أن يجمع القبائل المتناثرة على كلمة تجمعها وسلطان ينظم شملها ، وكان « تيموجن » يطمح في أن يجمع من هؤلاء المتنافرين أمة واحدة يضمن بها توحيد الجنس المغولي في وسط آسيا ، فيقضى بذلك على أسباب الشحناء بينهم وينهض بهم لكسب جديد .

وحين رأى « تيموجن » ذلك رأى أنه أحق الزعماء بهذه السيادة ، فهو - كما علمنا - من سلالة الآلهة ، ومن كان في مثل منزلته ، فليس كثيراً عليه أن تكون له السيادة على قومه . ولكن لـ « تيموجن » أن يرى ما يرى ، وللناس أن يروا ما يرون ، وليس ما يؤمن به « تيموجن » يؤمن به الناس ، والناس طامعون في الحكم والسلطان وهم على ذلك دائماً متنافسون ، وما نظنهم يُعطون « تيموجن » وهم صاغرون . لم يغب هذا عن « تيموجن » وهو يقلّب الرأى ، ولم يغب عنه أن القوم لن يخرجوا عن دنياهم مختارين بل مقهورين ، ولم يغب عنه أنه مُقدم على شئ يُعوزه فيه صفوة من الرجال المخلصين ، وصفوة من الرجال القادرين ، وصفوة من الرجال المحنّكين .

بهذا قدّر « تيموجن » المهمة التي هو مُقدم عليها ، ثملى عليه خبرته وتملى عليه حياة البادية . ولكنه على هذا كان يحس أنه قليل العدد لا ناصر له ، وأنه إزاء أمر عظيم يحتاج إلى عون عظيم . ومن قبل هذا لجأ

«تيموجن» إلى ربّه حين ألّت به الشدائد فكان له نعم المعين . وما إن ذكر «تيموجن» تلك القوة القاهرة التي لم يخب له معها رجاء ، والتي لا يعزّ عليها شيء ، والأشياء كلها بيدها ، ما إن ذكر «تيموجن» هذا حتى أخذ يصعد في الجبل إلى قمته يخلو إلى نفسه بعيداً ويخلو إلى ربه يسأله . وقدماً كان يؤمن هؤلاء الناس أنهم أقرب ما يكونون إلى آلهتهم على تلك المراقى الجبلية .

ولقد دعا «تيموجن» ربه فأكثر ، دعاه بأن يمدّه بصفوة من الرجال الأقوياء يجمعهم حوله مخلصين مستجيبين ، وكان فيما يقول من سؤاله لربه : « أيتها السموات التي لا تنتهى عند حد ، حنانيك وعونك ، إني لأضرع إليك أن تؤيديني بأرواحك الطيبة الطاهرة لتكون لي قوة وعضداً . كما أضرع إليك بأن تجعلى ممن على الأرض من رجال أشداء جنداً لي يشدّون أزرى » .

وهكذا تهيأ «تيموجن» لتلك الزعامة روحاً ونفساً ، وأخذ يستوحى تلك الروح وهذه النفس ، مؤمناً بالإيمان كله بأنه صاحب هذا الحق ، ساعياً في عزم صادق إلى تحقيقه . فضم إليه الخيرة من قواده يضعهم في مراتبهم لوفى كفاياتهم ، ولفّ حوله من لهم دراية بشئون الكفاح وخبرة بالرأى ، فكان «بورشو» صديقه المعروف بالعقل والحكمة صاحبه حين يجلس للرأى بين زعماء القبائل ، وكان «كاسار» ربّ القوس حامل سيفه ، وهكذا خطا «تيموجن» إلى ما يريد خطوته الأولى ليضمن لنفسه تحقيق ما يصبو إليه .

ولقد كان لـ « تيموجن » رأى فى القواد لا يقل عن رأى المحنكىن
اليوم . فقد روى عنه يوماً وهو يحكم على قائد من قواده : « ليس
عندى من هو أشجع من « يسوتاي » أو من يدانيه فى مواهبه ، فهو
جَلَد صبور على قَطْع المسافات الطوال ، لا يذل للجوع ولا يهون مع
العطش ، يرى ذلك لنفسه ويراه لجنوده ، إلا أنه على هذا ليس عندى
بالقائد الكفء ، فالقائد الجدير بهذا اللقب هو من ينظر لجنده غير
نظرته لنفسه ، إذ ليست طاقة الناس سواء ، ومن لم يضع هذا فى
حسابه حمل جنده على ما لا يطيقون وقومه على ما لا يستطيعون ،
فخسرهم وخسر نفسه » . وهكذا كان « تيموجن » يختار قواده ،
يختارهم لصفات فيهم تخصّهم ، أو صفات فيهم تخص الجنّد من
حولهم ، لا يعنيه منهم أن يكونوا شجعان فحسب ، ولكن يعنيه منهم
أيضاً أن يزّنوا الأمور من حولهم بميزانها الدقيق .

* * *

وحيث نصّب « تيموجن » نفسه خاناً ، وحيث أخذ يضطلع بتلك
المهامّ الجسام ، قصد إليه الزعيم « مونليك » والد « بورتاي » ، قصد
إليه يصحبه أبناؤه السبعة وأتباعه يهتئون . وكانت أياماً حلوة هنيئة
خففت على ذلك المغول الشاب من مشاقه ، وردّته إلى حياة وادعة
باشّة ، قضاها القوم بين ترحيب وتأهيل وتبادل الهدايا ، وأنس
الضيوف بالقوم كما أنس القوم بضيوفهم .

وكان من بين أولاد « مونليك » وكلد يحترف الكهانة هو

«تبتنجرى». وكانت له في ذلك حيل تُشبه حيل السحرة لها أثرها في النفوس . وكان على هذا يدعى القدرة على التخلية بين الروح والجسد والتحليق بالروح إلى الفضاء ، تتلقّف أخبار السماء وما هو غيب . واجتمع يوماً هذا الكاهن ومعه إخوته بـ «كاسار» وثار الحديث بينهم جميعاً حول ما يدّعيه هذا الكاهن . فانبرى لهم «كاسار» يهوّن من شأن هذا الكاهن ويردّ عليه ما يدّعيه . ولم يملك الكاهن نفسه ولا ملك إخوته أنفسهم فثاروا بـ «كاسار» وأوسعوه ضرباً بالعصى . ورعى «كاسار» حرمة ضيفه فلم يفعل شيئاً ، ولم ييادهم ضرباً بضرب ، وذهب إلى أخيه «تيموجن» شاكياً يحدثه بما كان . وكان «تيموجن» رجلاً لا يقبل الإهانة ، لم يقبلها من أخيه غير الشقيق فقتله . من أجل ذلك عزّ عليه أن يهان أخوه فيسكت . وما نظن «كاسار» كان عاجزاً عن أن ينتقم ، ولكنه خاف أن يؤذى مشاعر أخيه إن هو انتقم ، فهو لهذا قصده يشكو إليه . وحين استمع إلى أخيه «تيموجن» يقول له : كم باهيت بقوّتك وشجاعتك ، فما بالك اليوم تهون بين يدي حفنة من الرجال وتجئ إلى شاكياً؟ عندها عرف «كاسار» أن أخاه لا يرضى له الإهانة على أى لون كانت هذه الإهانة ، ولقد كان يجب أن يجعل الانتقام من خصومه لأخيه ، وها هو ذا أخوه قد جعل الانتقام من خصومه إليه . ولكن «كاسار» على هذا جانب أخاه ، جانبه لأنه كان يحبّ منه أن يتولى هو عنه ذلك حتى لا يعرضه للوم أو مؤاخذه ، فخرج مباعدًا وعاش في أقصى المدينة بعيداً عن أخيه .

وهنا بدرت للكاهن فُرصة رآها مواتية ليلقى بُدور الفُرقة والشقاق بين الأخ وأخيه ، وكان يعلم ما عند « تيموجن » من شك قديم في أخيه « كاسار » فما باله لا يذكره ، ويجعل من هذه الفُرصة وسيلة . على هذا قرّر رأى الكاهن ، وبهذا دخل على « تيموجن » يومًا ليخلو به كعادته ، وكان فيما حدثه به أن روحه التى تخلق فى السماء خلقت ورجعت إليه بغيث كثير من غيب السماء ، ولقد أفضت إليه بأن « تيموجن » سيكون له الحكم على مغول « يكا » ولكن ذلك لن يدوم طويلا ، إذ سيكون الأمر إلى « كاسار » الذى سيغتصب الملك من أخيه . وتلبّث الكاهن بـ « تيموجن » حتى قرّر هذا فى نفسه وملا عليه عقله . وليس شيء كحديث الملك والسلطان أسرع سرّيانا فى النفوس وأقوى تمكّكا لها . عندها تنسى النفوس كل شيء إلا هذه الزعامة ، ولا تستجيب النفوس لشيء إلا لما يمس هذه الزعامة ويحميها . وما إن رأى الكاهن أثر كلماته فى نفس « تيموجن » حتى مضى يقول ، وهو واثق أنه مستجاب الكلمة : « لا تترك كاسار يُفسد عليك ملكك وينزع منك سلطانتك . اخلّص منه قبل أن يخلص هو منك . » .

واستمع « تيموجن » إلى كلمات هذا الكاهن وهى ترنّ فى أذنيه رنينًا يفتح له قلبه وتأنس به حواسه ، فخال ذلك من وحى السماء ، وأن الآلهة رحمةً منها به وتأيداً منها له وتمكيناً له على وجه الأرض قد بعثت إليه هذا الكاهن لينقل عنها ويحدثه بما تريد ، وهبّ « تيموجن » من

مكانه مغموراً بهذا كله ، واعياً لهذا كله ، مؤمناً بهذا كله ، ليلقى أخاه «كاسار» حيث هو في عزلة ، فانقض عليه انقضاض الموتور ، وأمر به فنزعت عنه قلنسوته ونزع عنه نطاقه . ورأى «كاسار» الشر في عيني أخيه فجثا تحت قدميه يرقب مصيره المحتوم .

وضجت المدينة بما انتهى إليها من حديث الخان مع أخيه ، واضطربت الظنون ، كُلُّ يَصْور الأمر كما يهوى ، وقل من الناس في مثل هذه الأحوال من يحدث عن وعى ويحس عن خبرة ، بل هم في ذلك مع الفتنة يصورونها كما يخالون ، ويغالون في هذا الخيال فيحملونها فوق ما تحتمل ، لا يميلون مع المغلوب ، بل كل ميلهم مع الغالب .

لهذا أشاع الناس أن «كاسار» يسعى للنكاية بأخيه ، ومن ثم فقد حُقَّ عليه الموت ، وأشاعوا أن «كاسار» مستأثر بما يقع في يديه دون أخيه ، ومن فعل مثل هذا كان جديراً بالقصاص . وهكذا تخبّط الناس في ظنونهم لا يعرفون من الحقيقة شيئاً .

وانتهى هذا إلى «هولون» كما صورّه الناس وكما تحدّثوا به ، فخفت إلى مقرّ ولدها «كاسار» فرأته جاثياً تحت قدمي أخيه ، ورأت أخاه يكاد يتفجّر من الغيظ ، ورأته على وشك أن يضع السيف على رقبة أخيه ليخلص منه إلى الأبد . وتقدمت الأم من ولدها «كاسار» فحلت عنه إسماره ، ووضعت على رأسه قلنسوته ، ولقت على وسطه نطاقه ، و «تيموجن» مأخوذ بما فعلت الأم ، لم يملك أن يردّ عليها شيئاً . ثم

استوى « كاسار » واقفاً في ظل أمه ، التي سرعان ما اتجهت إلى ابنها « تيموجن » حاسرةً عن صدرها تقول له : ألا تذكر هذا الصدر الذى حنا عليك ، وهذه الثدي التى أرضعتك ؛ إن لم تذكر هذا وذاك فاذكر كيف كان « كاسار » لك نعم الأخ ونعم العون ، وكم من مرة وقف يذود عنك بسهامه معرضاً روحه للهلاك .

عندها تخاذل « تيموجن » لكلام أمه ، وذكر هذه الرحم الواصلة وهذه الأخوة البارة ، وذكر أنه أسرع إلى اتهام أخيه دون أن يكون بين يديه سبب لهذا الاتهام ، وذكر أنه نخطئ فهذا ، وأنه قد أقدم على ما أقدم عليه عن غير بينة ، وأنه ليس ثمة شئ غير الخوف على ملكه هو الذى حرّكه لما تحرك له ، فعاد يحسّ الخجل ويستشعر الندم ويذكر قول أمه ، وينسى قول الكاهن .

وتمضى الأيام ويمضى معها هذا الحادث بخيره وشره ، وما كاد الناس ينسونه حتى وقع هذا الكاهن « تبتنجرى » فى مشادة مع أخ أصغر لـ « تيموجن » هو « تيموجو » ، وإذا هذا الكاهن المعتز بصلته بالزعيم يقسو على هذا الأخ الأصغر ، ويحمل عليه هو وأتباعه ينگلون به ضرباً وتعذيباً ، ويخاف الأخ الأصغر من أن يُنهى إلى أخيه « تيموجن » شيئاً مما وقع له ، فلقد كان له فيما حدث لأخيه « كاسار » أسوة . غير أن الخان لم يفتّه مما وقع لأخيه شئ ، وعزّ عليه أن يلقي أخوه مالقى ، وعزّ عليه أيضاً أن ينال من « تبتنجرى » وهو ابن لـ « مونليك » والد زوجته ، وكان على جانب لا يُستهان به من القوة ،

هذا إلى ما كان منه من تأييد له وعون . ثم إنه الخان ، وإليه الفصل في الخصومات وليس له أن يثار . ولكن « تيموجن » على هذا كان غاضباً ، كان لا يُقرّ أن يهان أخوه ، وكان لا يقرّ أن يعتدى هذا الكاهن على أخيه هذا الاعتداء ، فهو لهذا أخذ يحتال في أن يدفع هذا الظلم بظلم مثله ، فأوعز إلى أخيه الأصغر بأن ينال من الكاهن بمثل ما نال منه ، وأسرّ إليه بأنه داعيه وإياه إلى قُبته وعليه أن يثور في حضّرتة ، على الرغم من أن التقاليد تحرم أن يقع شيء من الشغب في حضرة الخان . ودعى « مونليك » إلى قُبة الخان ، ودعى مع « مونليك » أولاده السبعة ، ودخل الزائرون كلهم إلى قُبة الخان بعد أن خلفوا أسلحتهم خارج القبة . وجلس الجميع بين يدي الخان ، وجلس بينهم « تيموجو » الأخ الأصغر . وما كاد المقيم يستقر بالقوم حتى هبّ « تيموجو » فحيّ الخان أولاً ، ثم اتجه إلى حيث يجلس الكاهن ، وأمسك بتلابيبه وهو يصيح : « بالأمس القريب أرغمتنى على أن أسجد بين يديك ولى معك اليوم شأن آخر » . وما كاد أن ينتهى إلى هذا من قوله حتى اشتبك معه في صراع عنيف فزع له الإخوة وفزع له الأب . وليمضى الأمر كما شاء « تيموجن » ودبر ، أمر المتصارعين أن يغادرا القبة ليحسها ما بينهما ، وكان في انتظارهما ثلاثة من الرجال الأشداء أعدّهم « تيموجن » ، فما كادوا يلقون الكاهن حتى انقضوا عليه وأردوه قتيلاً وتركوه مضرباً بدمائه إلى جوار إحدى المركبات . ودخل « تيموجو » على أخيه بعد أن انتقم لنفسه فسجد بين يديه ثم

انتصب قائماً يقول له : « بالأمس أرغمني » تبتنجرى « على السجود له ، واليوم أرغمته أنا على السجود فخّر بين يدي وما أظنه سيقوم . » .
وهبّ الأب العجوز وهباً معه أولاده ليروا الابن والأخ ملقى على الأرض وقد فارق الحياة . ودخل الأب على الخان ، وفي نفسه حسرة على الابن ، وفي قلبه موجدة على الخان ، وأخذ يلومه على ما كان من غدر ، ذاكراً له ما كان منه من إخلاص له وعون . وكاد الأبناء يُثرون بالخان في موقفه ، ولكنه خرج عنهم بعد ما صاح بهم صيحة كادوا يَخْرُونَ على وجوههم من هولها . ولكنه قبل أن يمضى عنهم التفت إلى « مونليك » يقول له مؤثباً « إنى ليؤسفنى ما كان ، ولكن يجدر بك ألا تنسى أن ولدك الكاهن كان هو البادى بالشر وقد نال جزاءه » .



غير أن الخان ما كان لينسى ما لفعلته هذه من أثر في النفوس ، وما سوف تُثيره في القلوب ، وأن الناس لن يغفروها له . وكان « تيموجن » حريصاً على ألا يشيع ذلك عنه فينقلب الناس عليه ، ويستغله أعداؤه في الدعاية ضده ، وهو لا يزال على أول الطريق إلى المجد ، أحوج ما يكون إلى أن يشيع عنه الخير لا أن يشيع عنه الشر . من أجل ذلك أخذ « تيموجن » يحتال ، وما كانت تُعوزُه الحيلة ، فأمر بقُبته فوُضعت فوق جثمان الكاهن ، ثم أمر بمن يسحب تلك الجثة فيخرجها من الكوة التى يخرج منها دخان الموقد ، ثم دعا الناس إليه ليروا الجثة وهى تخرج

من حيث يخرج الدخان ، ووقف بينهم يقول لهم : « هذا تدبير السماء . لقد آذاني هذا الكاهن في إختوتى فصبرتُ عليه أرعى له واجب الضيافة ، غير أن السماء التى لا تخفى عليها خافية لم تُرض هذا الظلم فانتقمتم لى منه فقبضت روحه الشريرة وجرت إليها جسده » .

وصدّق الناس فانصرفوا مؤمنين بما قال الخان يردّدون قوله .

وعاد « مونليك » بأولاده وأتباعه حانقين ، يُعدّون للانتقام ويستعدّون للصراع . ولكن الخان كان ذا عزم وكان ذا جلد ، فمضى يخرج من حرب إلى حرب ، ومن غزوة إلى أخرى ، وإذا هو بعد هذا زعيم شمال « الجوى » ، يحمل الصولجان العاجى ويمتطى صهوة الجواد الأبيض ، يُحيط به الحراس أينما حلّ وارتحل ، قد انتصب أمام قُبته اللواء تتدلّى منه ذيول وُحول تسعة ، بين قباب تبلغ مائة ألف ، تضم آلافًا من الأسر المغولية .

وما إن بلغ هذا من أمره حتى عاد يفكّر فيما فكّر فيه بالأمس من ضمّ هذه القبائل المتنافرة تحت لوائه ، وتوحيد تلك العشائر المختلفة تحت سلطانه ، غير مُلق بالآلما كان يسمع وما كان يتردّد على ألسنه الكبار من أن العقول المختلفة لن يجمعها جسد واحد . وهكذا استعد الخان لتحقيق ما تصبو إليه نفسه ، يرى العبء كبيراً ولكنه يرى نفسه كبيرة كذلك ، يستعين مرةً بالسياسة والكياسة ومرة بالحيلة والدهاء ومرة بالحرب ، يؤازره الصبر وتحذوه الجرأة ويُملى عليه عقل ذكى كبير.

جنگیز خان

كانت الصلة بين « تیموجن » وبين عمه « طغرل خان » الذى كان له مكان الأب - صلة لا تشوبها شائبة . وكان من بين حاشية الخان العظيم من يصدقون على « تیموجن » حسداً منهم له على مكانته تلك ، لا سيما أقاربه من « البورشىكون » الذين كان دأبهم أن يفرقوا بينه وبين عمه . لذا كان « تیموجن » لا ينفك منهم على حذر ، وفى شك متصل بما يأتون .

وكان « تیموجن » على حظ من الخداع والدهاء ، أفادته إياه شئون الحكم والاضطلاع بأعباء عشيرته ، وكان بعد هذا ذا بصيرة نافذة هيأته لأن ينفذ إلى ما وراء المظاهر من خديعة وما وراءها من مكر ، فدرس « تیموجن » على حاشية الخان نفراً من خلصائه والمعجبين به ليكونوا عيوناً له عليه ، وليعرفوا ما يحاك هناك من دسائس ضده . وأنهى إليه عيونه أن خصومه من حاشية طغرل خان زينوا للخان ، المرة بعد المرة ، القبض عليه والفتك به ، ولكن الخان كان يأبى عليهم ذلك ، كما أنهم إلى زيف تلك العروض التى كانت تُشاع عن رغبة الخان فى أن يزوج ابنته من « جوشى » ابن « تیموجن » ، والتى كان

القصـد منها الفتـّ في عَضُدِه ، وبعثَ الطمأنينة إلى نفسه ليصرفوه
بذلك عما يدبرون له .

هذا وغيرُه عرفه « تيموجن » ، ينقله إليه أعوانُه مُسرعين صادقين ،
فاحتاط لأمره ولم يَمَكِّنْهم من إفساد الصلة بينه وبين عمه . ذلك إلى أن
الخان كان يُكَبِّرُ « تيموجن » منذ أن رآه في لقائه الذي مرَّ ، ورأى فيه
الرجلَ والصديقَ فأنس به ، ناداه أباً فألان قلبه ، وخاطبه ندّاً فأثار
إكباره ، وكشف له عن إخلاص فبادله مثله ، وخوفه نفر من أقاربه
يتربصون به الدوائر فازداد أنسابه وثقة .

وهكذا خرج « تيموجن » من عند الخان بعد لقائه هذا حليفاً
وصديقاً ، ومضت الأيام تُؤكِّد إخلاصَه وصدقَه ، وما إن عَدَّتْ
القبائل الغربية البوذية على بلاد « القرايطة » التي تدين بالزعامة
له « طغرل خان » حتى بادر « تيموجن » بإرسال نُخبة من رجال جيشه
الأقوياء لمعاونة حليفه وصديقه .

ويخرج طغرل خان من هذه المحنة ليلقى محنة أخرى ، تُتيح لحليفه
« تيموجن » عوناً جديداً . فقد هبَّ « التتار » يُغيرون على أرض
« الخطاي » زاحفين من الشمال من « جورزا » و « بارجو » بالقرب من
بُحيرة « بويور » . وما كان « التتار » أهلَ مدنٍ مُقامة ولا حُصون
مُشيَّدة ، بل كانوا يعيشون كما يعيش المغول بين القباب وفي البرارى ، لا
يتميّز خلق عن خلق ، طبيعتهم الحرب ، والشغب دينهم ، فيهم
عُنف وفيهم قسوة ، حياتهم سلب ونهب ، وأمورهم فوضى ، لا

يُذعنون للحكومة ، ولا يدينون بالولاء لسُلطان ، مَنْ غلب حكم ،
والقاهر من كان مرهوبًا ذا بَطَش . وهم على ذلك كانوا يرتعون بين
سُهل نضرة ، ومراع خصبة ، ومياه غزيرة ، تفيض بها عليهم أنهار
ثلاثة .

وبلغ « التتار » في غارتهم تلك على أرض « الخطاي » الحدود ،
وباتوا يهدّدون الامبراطور ، ويكادون ينقّضون عليه سُلطانه . وهبَّ
الإمبراطور ليلقى تلك الجموع المغيرة وجهًا لوجه على رأس جيشه ،
وفزع « التتار » لهذا الاستعداد ، وكانوا يظنون أنهم آخذون القوم على
غرة ، فإذا هم بين يدي جيش كبير يزحف إليهم زحفًا ، فولّوا الأدبار
سرّاعًا وجَدّوا في الفرار . ويبلغ « تيموجن » ما كان من « التتار » مع
الامبراطور ، ورأى الفرصة قد واثته ليتخذ من الامبراطور عونًا في
القضاء على التتار القضاء الأخير ليأمن من مُناوأتهم . فأرسل إلى
الامبراطور يعرض عليه استعداداه لُنصرتيه في شدته ، ورآها
الامبراطور هو الآخر فرصة ليكفي نفسه شرّ غارات « التتار »
المتلاحقة ، وسرّعان ما تضامّ الجيشان : جيش « تيموجن » وجيش
« القرايطة » ومضيا في إثر التتار المنهزمين ، على حين ثبّت لهم من وراء
ظهورهم جيش « الخطاي » وعلى رأسه قائد من قُواد الامبراطور . وإذا
التتار بين جيشين يُلاحقانه في فرارهم ، وجيش قد وقف لهم سدًا
منيعًا في تفهقرهم ، وإذا هم يصلّون حربًا حامية ، ويخرون صرعى
ويُتخطفون أسرى .

وخرج « تيموجن » من هذه المعركة مُظفراً عزيزاً ، سعى إليه المحاربون فانطَوْوا تحت لوائه ، وخلع عليه الامبراطور لقباً كان جديراً به ، فلَقَّبه بـ « قاهر الشوار » وأهدى إليه سريراً من فضة موشى بالذهب ، كسوته من الحرير الخالص ، كما منح الامبراطور بعد هذا لقباً جديداً لطغرل خان ، هو « وانج خان » ، أى سيد الملوك .

وما خُدع « تيموجن » بهذا النصر ، ولا غرَّه اللقب ، ولا ألهته الهدية ، وأخذ يتطلع إلى أمل جديد يُعوزُه جَهد جديد ، وتَدبير جديد . لقد بدأ « تيموجن » يحس حاجة المغول إلى زعيم يجمع شملهم ، ويوحِّد كلمتهم ، وما من شك في إنه كان ينظر لنفسه . من أجل ذلك كتب إلى « طغرل خان » يذكر له ذلك النصر ، ويذكر له اسمه إلى جواره ، ويذكر له حاجة المغول إلى زعيم . وخال « طغرل خان » أن « تيموجن » في زهو هذا النصر يطمح إلى تلك الزعامة ويريد لها لنفسه ، فضَغَن عليه وظنَّ به الظنون .

وَكَانَ « تيموجن » قد خرج من تلك الحرب ، التى وقف فيها « القرايطة » إلى جنبه ، وهو يظن أن المحنة قد أَلَّفت ما بينهما ، وكادت تجمعهم إليه على ولاء . وأظَلَّ موسمُ الصيد فخرج يصطاد ، وساقه الطَّراد إلى قريب من أرض « القرايطة » وبلغ نفرٌ من رجاله أرضهم . وما إن وقع عليهم « القرايطة » حتى قتلوهم ، لم يُراعوا عهداً ، ولم ينظروا إلى جوار . ونجا من هؤلاء النفر اثنان ، عادا إلى « تيموجن » يحملان إليه ما لقى إخوانهم من حتف ، وما شاهداهما من غدر

وتنكر ، وما رأيا للقوم من استعداد للحرب ، يريدون بذلك ألا
يمكّنوا لـ « تيموجن » من أن يكون له سلطان عليهم .
وكان القوم كانوا قد تكشّف لهم شيء مما يدور برأس « تيموجن » ،
وكانهم قد علموا علم ذلك الكتاب الذى أرسل به « تيموجن » إلى
« طغرل خان » ، وكانهم قد وقع في نفوسهم أنهم من بين القبائل التى
يعنيها « تيموجن » ويريد أن يجعلها إلى زعيم ، وكانهم قد تأوّلوا تلك
الزعامة كما تأوّلها « طغرل خان » ، وأيقنوا أن « تيموجن » يريد لها
لنفسه ويُرِيدهم له . من أجل ذلك غدر « القرايطة » برجال
« تيموجن » ، ومن أجل ذلك تهيأ « القرايطة » لحربه ، يريدون أن
يُفاجئوه قبل أن يفاجئهم ، ويريدون أن يأخذوه على غرة قبل أن
يأخذهم . وأعدّ القوم عدّتهم ليُجعلوها المعركة الفاصلة بينهم وبين
« تيموجن » ، وفي عزمهم أن يقضّوا عليه قضاء لا قيامة له بعده .
وأجمع على ذلك نفر من زعمائهم يدبّرون لحربه ويهيّئون للوقعة به ،
وكان من بينهم « شاموكا » الداهية و « توكتا بك » زعيم « المركيت »
الذى امتلأ قلبه ضغناً وحقداً على « تيموجن » وكذلك ابن « وانج
خان » زعيم القرايطة وكبيرهم ، ولم يخرج عن ذلك الإجماع أعيان
« تيموجن » إذ يرون أن عمومته لـ « تيموجن » لا تُعفيهم من نُصرة
قومهم ، ويرون أن قرابة « تيموجن » لهم لا تُعطيه الحقّ في أن
يتملّكهم . وما إن أجمعوا على ذلك حتى عقدوا لواء الحرب للداهية
« شاموكا » وجعلوه قائداً لتلك الجيوش المشتركة .

ولكنهم رأوا قبل أن يمشوا إلى تلك الحرب أن يضموا إليهم « طغرل خان » ليؤمنوا ظهورهم ، وليأمنوا انحيازه إلى « تيموجن » إن عنّ له « تيموجن » أن يستعين به . ولقد وجدوا الطريق إلى ذلك سهلاً ، فهنم قد علموا أن « تيموجن » قد أوغر صدر الخان العجوز بذلك الكتاب الذى بعث به إليه ، وهم قد علموا أن الخان العجوز أصبح يخاف « تيموجن » على ملكه ، وهم قد علموا أن الخان العجوز أصبح يخشى طُموح « تيموجن » إلى أن يتزعّم « المغول » عامة . وتم لهؤلاء الزعماء ما أرادوا ، فقطعوا ما بين الخان العجوز وما بين « تيموجن » قطيعةً لا أمل فيها لإصلاح ، وفوّتوا على « تيموجن » ما كان يطمع فيه من الفرصة لنفسه كي يستعدّ ويقوى لتحقيق ما يصبو إليه .

لقد كان « تيموجن » يدبّر لأمر فافسدوا عليه هذا التدبير ، فلقد كان يريد أن تبقى قبائل « القرايطة » مشغولة بتلك الحروب المستعرة ، بينهم وبين قبائل الغرب الأتراك إلى أن يخرجوا منها آخر الأمر منهوكى القوى مفلولى الشوكة ، فيجدهم لقمة سائغة يلهتهم فى يسر ، ولقد كان يريد أن يظلّ الحلف بينه وبين الخان العجوز قائماً فتقوى به شوكتُهُ ويرهبه خصومه . كان « تيموجن » يريد هذا وذاك ، وكان ذلك تدبيره ، حتى إذا ما كُتب له النصر على « القرايطة » واجه حليفه العجوز قوياً بما كسب ، فأملى عليه ما يريد ، محتالاً عليه إن أغنته الحيلة ، أو عنيفاً به إن اضطر إلى العنف ، ناظراً إلى الأيام وهى فى مرورها تضم إلى عجز الخان عجزاً وتزيد إلى قوته هو قوة .

ودبّر « تيموجن » ودبّر خصومه ، فإذا تدبّر خصومه يغلب تدبيره ، وإذا الحرب التى كان يريد أن يدخلها بعد حين طويل تُعجله ليدخلها بعد حين قريب ، وإذا الحرب التى كان يريد أن يدخلها مُختاراً يُملئ هو وقتها وساحتها ، يدخلها مقسوراً ثملى هى عليه وقتها وساحتها .

ونظر « تيموجن » فى أمره فإذا لقاء جموع « القرايطة » ومن انضم إليهم لا قبلَ له بهم ، وإذا هو ليس بين يديه من الرجال المحاربين غير ثلاثة آلاف : خطرٌ ينخلع لهوله قلب الضعيف فيجزع ، ويهتزّ له فؤاد الجبان فيهلح . ولكن « تيموجن » كان رجلاً ذا قلب كبير ، وكان رجلاً ذا فؤاد كبير ، كان رجلاً يُحب أن يفرض نفسه على الحياة ولا يُحب أن يفرض الحياة نفسها عليه ، فاستقبل ذلك الخطر وهو يرى نفسه أكبر منه ، فملك عقله يدبر للمعركة ويهيئ لها ، ولم ير نفسه أصغر منه فيفقد عقله ويفقد تدبيره . وقف « تيموجن » بين رجاله يملك قلبه ويملك عقله ، وكان قومه قد أَوَّأوا إلى مضاجعهم وأسلموا أنفسهم لنوم عميق آمنين مطمئنين إذ كان الليل قد انتصف . فأرسل « تيموجن » رُسُلَه من حوله إلى القوم يستنهضونهم من فراشهم على عجل ، حتى إذا ما التف به قومه أمر نفرًا منهم أن يخرجوا بالماشية والدواب إلى السهول فينشروها هنا وهناك ، وأمر بالمركبات أن تُعد ، وبالمتاع الخفيف أن يُحْزَم ، وأمر النساء والصبيان أن يعتلين العربات ومعهن هذا المتاع الخفيف ليخرجن بعيداً دون جلبة أو ضوضاء . وإذا

«تيموجن» في غمضة عين قد أعد نفسه وتهيأ للحرب ومفاجأتها ،
يحسب للنصر حسابه كما يحسب للهزيمة حسابها ، ووقف بين جنده
وقد اعتلوا خيولهم وحملوا سلاحهم في سكون الليل البهيم ، يتطلع إلى
الأفق بعينين نافذتين ثاقبتين ، يُملى عليهما رأس مدبر غير فزع وقلب
شجاع غير هلع .

وكان « تيموجن » ذا حيلة لم يفقدها في موطن الفزع كما لم يفقد
قلبه ، فأمر بأن تترك الخيام مُضاعة كما هي ، كما أمر بأن تترك المركبات
الثقيلة من حولها . وتلبث « تيموجن » حتى إذا ما اطمأن إلى أن الأمور
قد جرت وفق ما أحب خرج برجاله في جُرح الليل ، والقافلة من أمامه
يُمعن في السير إلى صحراء « الجوى » .

وعلى بعد تسعة أميال من مَضْرَب خيامه كانت تقوم سلسلة من
الجبال ، في سفحها جدول من الماء ، ما إن بلغه « تيموجن » واجتازه
حتى أمر رجاله بأن يحطّوا رحالهم ويتشروا بين التلال المحيطة . غير
أنه أبقى من رجاله على الضفة الأخرى من الجدول نفرًا منهم لأمرٍ
دبره .

* * *

وأقبلت جموع « القرايطة » زاحفة إلى مضرب خيام « تيموجن » بعد
أن خرج عنها أهلها وهم يظنون أنهم لا يزالون فيها ، يريدون أن
يأخذوهم على غرة وهم في نومهم يغطّون . وأخذوا يرشقون الخيام
بسهامهم ونبالهم ، يخصّون خيمة الزعيم « تيموجن » بأوفر نصيب .

ولكن سرعان ما تبين لهم أن القوم قد رحلوا عن منازلهم وتركوها خاوية . وتقدم « القرايطة » من الخيام فإذا هم يجدونها على نظامها لم يمسسها سوء ، فقرب اللبن كما هي مدلاة ، والفراش كما هو لا يزال على نظامه وترتيبه ، فهاهم ما رأوا وظنوا القوم قد أنذروا بالغزو فولّوا عجلين لم يلتفتوا إلى ما وراءهم لينجوا بحياتهم .

عندها أسرع « القرايطة » يريدون أن يلحقوا بالقوم في فرارهم فيلقوهم على غير أهبة ، ويتمكنوا من القضاء عليهم وإبادتهم . ومضت تلك الجيوش الزاحفة تنهب بهم الجياد الأرض نهبا لا تكاد الحوافر تمس الأرض إلا مسّا خفيفا ، وإذا الخيل سابحات على وجه الأرض تسابق الرياح .

وثبت الكمين الذي خلفه « تيموجن » على الضفة الأخرى من الجدول لطلائع جيوش « القرايطة » الزاحفة يأخذها شيئا بعد شيء ، فإذا تلك الطلائع تُصرع طليعة بعد طليعة ، وإذا تلك الجيوش الجرارة ثمنى بالهلع والفرع ، وإذا هي يعمها الاضطراب وتسودها الفوضى . وحين قُدِّر لها أن تنضم وتتجمع كان « تيموجن » قد مكّن لنفسه من أن يستعد ويتهيا . ولكنه كان يحس أنه أمام جيش يفوقه عدداً وعدة . ولقد قُدِّر أنه مستطيع أن يلتفّ به كما دبّر ، غير أنه فاته ذلك ، ولو أفلح فيما دبّر لأتى على خصمه في يسر ، فلقد كان « تيموجن » خبيراً بحركة الالتفاف « التولوغما » وبه عُرِف ، وكان لا يُجيده سواه في زمانه ، إلا أن الظروف هذه المرة لم تُواته . وكان لزاماً على « تيموجن »

أن يواجه خصمه مواجهةً ، وهو مؤمن أنه ملاق خصماً عنيداً ، وأنه
مُقبل على صراع عنيف ، صراع ليس وراءه إلا حياة عزيزة أو موت
كريم .

واشتبك المحاربون ، تهاجم جموع « تيموجن » على قوات
« القرايطة » فتُحسّ شدة العدو فتَنخزل ، وتهاجم جموع « القرايطة » على
جموع « تيموجن » فتُحسّ شدة عدوها فتَنخزل ، لا يقوى هؤلاء على
هؤلاء ، ولا هؤلاء على هؤلاء . و « تيموجن » من وراء هذا الكفاح
المريّر يستنجد بالسما ، وكم استنجد « تيموجن » بالسما ، وكم أمدته
السما ولم تُخيب له دعاء . وتلهمه السما أن ينظر فيقع بعينه الثاقبة على
ثغرة في خطوط العدو فينتهزها وإذا هو المنتصر ، وإذا عدوه هو
المنهزم ، وإذا الشمس وهى تُؤذن بالمغيب تُؤذن بأقول نجم « القرايطة »
ويسطوع نجم « تيموجن » .

لقد مكّن « القرايطة » لـ « تيموجن » من أن يلتفّ بهم حين تخلّوا
عن تل « جوبتا » الذى كانوا يَحْتَمون به ، وكان تخلّيهم عنه هو تلك
الثغرة التى لمحها « تيموجن » ووقع عليها . وما إن بان ذلك له حتى
استدعى إليه « جولدار » أقوى رجاله عوداً وأشجعهم قلباً ، وكان
زعياً لقبيلة « المانهوت » ، وأمره بأن يُسرّع إلى ذلك التل ، تل
« جوبتا » ، ليحتلّه فيضمن « تيموجن » بذلك الالتفاف بخصمه ، ولقد
شاء ذلك أولاً فلم تسعفه الظروف ، وهما هى ذى الظروف قد
أسعفته به .

ومضى « جولددار » لا يُلوى على شيء ، يريد أن يحقق لزعيمه ولقومه النصر الذى يطمعون فيه ، مَضَى وهو يُقسم باسم زعيمه أنه سوف يُطّوح برأس من يعترض طريقه ، وأنه سوف يُنصب اللواء على قمة تل « جوبتا » مها كلفه ذلك ، فإن قضى بعدها فسوف يخلد فى الخالدين ، وما عليه أن يُصيبه الموت فى سبيل زعيمه ، وما على أولاده بعده من بأس لأن زعيمه سيرعاهم .

على هذا مضى « جولددار » فى فُرسانه من « المانهوت » ، وعلى هذا بلغ « جولددار » قمة تل « جوبتا » مع مغرب الشمس ، وعلى هذا نَصَب « جولددار » اللّواء على قمة تل « جوبتا » . وما كاد « القرايطة » يُحسّون بأنهم أصبحوا مُحْوَطين بَعْدُوهم وأن عدوهم قد التف بهم حتى دبّ الدعر بين صفوفهم وانخلعت قلوبهم وفقدوا كلمتهم الموحدة ، وإذا هم نهب لخصومهم يُوقعون بهم فى يُسر ، وإذا هم يولّون الأدبار ويخرجون من المعركة مدحورين . وهكذا كتب لـ « تيموجن » النصر على خصم ما كان يقوى عليه ، وأخذ الناس يعزّون ذلك لفعل السماء ، وضمّوه لأساطيرهم التى تروى ، والتى أضفت على « جولددار » الشيء الكثير من ألوان البُطولة والشجاعة .



لقد خرجت جيوش « القرايطة » من تلك الحرب بالخزى والعار ، ولو كان « تيموجن » يملك أكثر ممن كان يملك من رجال لأباد

«القرايطة» عن آخرهم ، ولكنه قنع بأن يترك لهم السبيل إلى الانسحاب ، وقنع بهذا النصر وما كان يطمع في غيره .

ولقد خرج «وانج خان» زعيم «القرايطة» من تلك الحرب مدحوراً وخرج ابنه مشجوج الرأس ، وخرج قومه وقد نالهم بأس شديد ، فإذا هو آسف نادم على ما كان منه من إثارة حرب على رجل لم يُثر حرباً ، وما كانت إلا عن غير ظن ظنّه وتقدير قدره ، حرب لم يَغْنَم منها إلا غير ما أراد ، فها هو ذا خصمه قد أفاد قُوَّة وشهرة ، وها هو ذا قد أفاد ضَعْفاً وسُوء سمعة .

ولقد خرج «تيموجن» من تلك الحرب أقوى مما دخل إليها ، عزَّ بين قومه وعزَّ به قومه ، ونال من «القرايطة» ما أراد ولكن بأسلوب غير الذي كان يريد . وخرج «تيموجن» من تلك الحرب يرى أن الخان العجوز قد حَنَثَ بعهدده ونقض حلفه ، فليس بُدَّ من أن يبادله شراً بشرّ ، ويفرِّغ منه ليمهد لنفسه السبيل إلى ما يريد .

ومن ثم أرسل «تيموجن» إلى الخان كتاباً طويلاً يذكره فيه بأيامه السالفة معه ، يوم كان يُقدِّم له أسلاب الحرب دون أن يختص نفسه منها بشيء ، ويذكر له فيه ما كان منه من نقض العهد ، وما كان منه من عَوْن لخصومه ، ويذكره بذلك القسم الذي أقسمه معاً على شاطئ النهر الأسود بالآ يستمع أحد منهما إلى وشاية ، وبألا يُلقى أحد منهما بالآ لوقعة ، ويأن يكون ما يحدِّد بينهما من خلاف لهما وحدهما . ذكر ذلك «تيموجن» في كتابه إلى الخان العجوز ، ثم ذكر له أن ما بينهما قد

انقطع ، وأن تلك الصداقة الأولى قد زالت . وحين يذكر « تيموجن » هذا يعنى أنها قد أصبحتا خصمين ، وأن الحرب بينهما لا شك واقعة . وأصبح لزاماً على « تيموجن » وقد هياً الخان للحرب أن يستعد هو للحرب ، و « تيموجن » يعلم ما عنده وما عند الخان . من أجل ذلك التفت « تيموجن » لجيشه الذى هو عُدته عند الشدائد وملجؤه مع الأهوال ، فراح يُعيد تنظيمه ويُعيد تسليحه ويضع له القواعد الجديدة ويختار له القواد المحنكين .

وأرسل « تيموجن » إلى الخانات يستدعيهم فحفظوا إليه من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، وجلسوا بين يديه فى مجلس عام قد افترشوا بُسُطَ اللُّبَادِ وأيديهم معقودة بُرُكَبِهِمْ . وتحدث إليهم « تيموجن » يُشير عليهم ويستمع منهم ، يَخْتَلِفُونَ وَيَتَّفَقُونَ ، غير أنهم خرجوا آخر الأمر مجمعين على أن تكون زعامة « المغول » إلى « تيموجن » وأن يكون الصولجان فى يديه . وحين أجابهم « تيموجن » إلى ما أجمعوا عليه لفتهم إلى ما للزعامة من حقوق عليهم ، فلقد ألزمهم بالطاعة فأعطوها راضين ، وألزمهم بأن يكون إليه عقاب المخالفين وجزاء الخارجين فنزلوا له عن ذلك راضين .

وبذلك كُتِبَتِ الزعامة لـ « تيموجن » على « المغول » ، وأصبح سيدهم وأصبح الحاكم على تلك الأرض التى بين الأنهار الثلاثة ، وكم كان يُود أن تكون هذه الأرض لحاكم واحد ، يجمع كلمتها ، ويكفيها تلك الويلات المتلاحقة . ولكن هؤلاء الخانات قبل أن

يخرجوا عن « تيموجن » أقسم لهم بأنه سوف يقف مدافعاً عنهم ،
مدافعاً عن أرضهم ، مدافعاً عن أرواحهم كما وعدهم بالانتقام من
« طغرل خان » .

* * *

لم ينس « تيموجن » ما كان « للقرايطة » من غدر ، ولم ينس لهم أن
وجودهم بالقسم الغربى من صحراء « الجوبى » - وهم ما هم شدة
وقوة - كان له أثر في توقفه عن ضم إقليم « الخطاي » إلى أرضه التى تقع
في القسم الشرقى من هذه الصحراء ، لذلك فكّر أول ما فكر في أن يثار
لنفسه منهم وقد أصبحت الفرصة مواتية . وما إن فكر « تيموجن » في
هذا حتى جمع إليه جيوشه ، يريد أن ينتهز الفرصة قبل أن ينكشف
الشتاء ، وقبل أن تذوب الثلوج وتفيض مياهها في الوديان فتعوق
حركاته السريعة المفاجئة .

ونخفّ « تيموجن » بجيوشه زاحفاً إلى معسكرات « القرايطة » ،
وكان « تيموجن » يعلم أن خصومه ليسوا من الغفلة بمكان ، وأنهم لن
يتركوا حدودهم دون رقابة ودون حراسة ، لذلك عمد إلى الحيلة
وعمد إلى الدهاء فسرّح رجلاً من رجاله الشجعان ، هو « سابوتاي »
اليورانخى « إلى « القرايطة » فمضى إليهم على أنه فار هارب قد آذاه ما
يلقى من « تيموجن » من معاملة سيئة . ودخل « سابوتاي » على
« القرايطة » بتلك الحيلة وأخذ يقص عليهم ما يُعدّ لهم « تيموجن » وما
سوف يفاجئهم به .

ولكن القوم — شأنهم شأن غيرهم — أرادوا أن يخبروا صدق هذا الفارّ ، فأرسلوا معه كوكبة من الفرسان طليعةً ، وخرج « سابوتاي » بتلك الطليعة ليُدلّهم على صدق قوله . وما إن خرج بهم بعيداً حيث طلائع جيش « تيموجن » ، حتى نزل عن جواده يدّعى أن عرجاً أصابه ، فالتفّ القوم به مشغولين بأمره ، وكان « سابوتاي » ماهراً لبقاً ، فأخذ معهم في حديث طويل ، يريد أن يصرفهم عن التطلع إلى الأفق البعيد ، حتى لا تقع عيونهم على طلائع جيش « تيموجن » ، ولم يكونوا قد رأوها حين رآها هو من قبل . وبهذا مكّن « سابوتاي » لطلائع « تيموجن » من أن تتقدم ، ومكّن لها من أن تلتف بمن معه ، فإذا هم جميعاً أسرى .

ولبث « القرايطة » ينتظرون أوبة طليعتهم ، لاهم بالمصدقين فيأخذوا أهبتهم للحرب ، ولا هم بالمكذّبين فيعودوا لشأنهم ، وهكذا بقوا على حال من الشك ، وإذا هم قد دهمهم عدوهم على حين غرة فنكّل بهم تنكيلاً شديداً ، وخرجوا من معركتهم تلك وقد أفل نجمهم فباءوا بهزيمة مُنكرة ، وخرج زعماءهم عن أرضهم يُولّون الأدبار . وامتدت أيدي الجيش الظافر ، جيش « تيموجن » ، إلى أسلاب « القرايطة » تنهب وتسلب غانمة ظافرة .

وما أخلد « تيموجن » إلى الراحة بعد ذلك النصر ، بل خف في إثر عدوّه الفار يضيق عليه السبل . وقُدّر له أن يحيط بفرق من ذلك الجيش الهارب ، خيرها بين الانضمام إليه وبين القتل فاختارت الأولى على

الثانية ، وبذلك كسب « تيموجن » كسباً جديداً ، إذ استطاع أن يضم إلى جيشه جيشاً آخر له خبرة في الحروب .

ومضى « تيموجن » في إثر فلول الجيش وهمّه أن يقع على زعمائه . وفي قرية « قره قرم » أو « الرمال السوداء » سيق إليه ابن عمه « شاموكا » مأسوراً فاتجه إليه « تيموجن » يسأله : أى مصير تتوقع ؟ وأجاب « شاموكا » : المصير الذى كنت أعدّه لك ، وهو الموت البطيء . وكان « شاموكا » يعنى القتل بتقطيع الأعضاء عضواً عضواً يوماً بعد يوم . غير أن « تيموجن » كان حريصاً على تقاليد « المغول » ، حريصاً على ألا يشذّ عما عُرِف لهم في مُعاملة الزعماء الذين ينحدرون من بيت رفيع ، فشَنق « شاموكا » بخيط دقيق من الحرير ، وأخذ أنفاسه بين وسائد من اللباد . وهكذا حقق « تيموجن » باستيلائه على أرض « القرايطة » ما كان يحلم به ، وكانت هذه النواة الأولى في مملكته المرقوبة .

وما إن استتب الحال لـ « تيموجن » في تلك البلاد حتى خرج من قوره نحو وديان الغرب حيث « الأتراك النايان » الذين كان لهم مع « القرايطة » تاريخ في الحرب طويل . فلقد أصبح « تيموجن » هو الأخير يتوجّس منهم الشر ويخافهم على سُلطانه الجديد .

خرج « تيموجن » في جيوشه كالسيول المتدفقة تضرب في تلك الوديان ، بين سلاسل من الجبال تُغطيها الثلوج ، وبين سور « الخطاي » العظيم ، يجتاز في طريقه مُدناً لها ماضٍ قديم عريق مثل « شبالك » و « خوتن » ، وكان كلما مرّ بمدينة أسلمت قيادها إليه

وأسلم هو إليها أمنها ، لا يضرّها في شيء كما يفعل القائد الحكيم والسياسى الماهر ، يكفيه من المغلوب استسلامه ليضمنه على الولاء له . فعل هذا هنا بمثل هذا الدافع ، وسترى أنه فعل ما هو غير هذا بدافع آخر ، فكان يملئ حين يقسو عن طبيعة ، ويملى حين يعفو عن خلق عارض . وهكذا لم يأخذ « تيموجن » تلك المدن التى أسلمت إليه أمرها بعنف أو قسوة حتى لا يفسد قلوبهم عليه ، ولم يفعل غير أن ترك في كل منها حامية ليؤمن غزوه ويرهب من تحدّثه نفسه بغدر .

وكما لان « تيموجن » مع هؤلاء الذين لا يؤمنه لينا ليس فيه ضعف ، قسًا بغيرهم ممن خاشنوه قسوة فيها عنف ؛ فيحكّون عنه أنه ما كاد ينفّض اليد من قتال القبائل المتمردة عليه حتى جمع إليه رؤساءها وزعماءها فقتلهم جميعًا لم يبق منهم ولم يدع ، ثم أمر بالمحاربين فضمّوا جميعًا إلى جيشه ، وبالسبايا فأهدى إلى صفوة قواده وخيرة جنوده ، وأمر نساء المغول فتبّنين الأطفال والصغار ، ثم صيرّ أملاك القبيلة بعد هذا إلى أمراء جدد .

وهكذا كان « تيموجن » يمحّو القبائل المعادية محوًا لا قيامة لها بعده ، لا يبقّى لها جيشًا ، ولا يدع لها نسلا ، ولا يترك لها مالا . وكما أفاد من قسوته مددا لجيشه أفاد كذلك من لينه ، فما كان يأخذه عنفاً ممن عادوه أخذه عن رضى ممن سالموه ، وإذا بين يدي « تيموجن » جيش جرّار كثيف ، ظن أنه قادر به على أن يغزو العالم . وجمع « تيموجن » إليه الخانات ثانية إلى مؤثر عام « كورلتاي » لانتخاب

رجل يكون إليه حُكم أواسط آسيا . وخف الخانات لتلبية نداء «تيموجن» من جميع أنحاء «الجوى» . وهناك بالقرب من جبل «دليجون يولداك» مثلوا جميعاً بين يدي «تيموجن» في ستراتهم الطويلة وقد شُدت أوساطهم بمناطق رُصعت بالذهب والفضة . وانتصب «تيموجن» قائماً في ظل اللواء ذى الذئول التسعة يخطبهم .

وكان «تيموجن» مفوهاً فصيحاً فعرف كيف يملك مشاعرهم ، وكان داهيةً فعرف كيف يستميلهم حين جعلهم شركاءه في السراء والضراء ، وكان لبقاً حين وصفهم بالإخلاص له والولاء ، وكان جليلاً حين كشف عن أمنيته في أن يسود المغول العالم ، ثم كان حكيماً حين عَقَّب يطلب إليهم اختيار رجل منهم تكون له السيادة على الجميع .

لقد كان هذا كله تمهيداً لانتخابه ، وكان هذا كله تزكيةً له ، فما تردد القوم عن أن يجتمعوا عليه سيداً وينادوا به رئيساً . وهكذا خرج «تيموجن» من هذا الاجتماع سيداً على قبائل «الجوى» كلها . وإذا كان الملك عظيماً كان لقب الخان به غير جدير ، لذلك نهض أحد العرّافين يختار لقباً جديداً جليلاً يتفق وهذا الملك الجديد الجليل ، وناشد الجميع أن يُسمُوا سيدهم باسم «جنكيزخان» ومعناه ملك الملوك وحاكم العالم أجمع .

وهلّل المجتمع لذلك اللقب العظيم مَزْهُوِّين به فخّورين ، فهذا مجد ، وإن بدا «تيموجن» صاحبه وحده ، فهم فيه مشاركون .

وتوحدت تلك القبائل التي عاشت متفرقة ، تُعين قوة قوة ، ويُساند
رأى رأيًا ، وتؤازر موهبة موهبة ؛ فإذا الحاكم الجديد يملك شجاعة
«القرايطة» إلى بطش «المركيث» وحكمة «الأويجوريين» إلى جلد
«التندرا» ، وجموع «البورشيكون» إلى غيرها من حشود القبائل
الأخرى ، يأمرها جميعًا فتأتمر ويُملئ عليها فتنصاع . وفي غمرة هذا
الجاه الذي أصابه «جنكيز خان» وأصابه شعبه معه ، يعاود الناس
إيمانهم القديم بأن الخان من سلالة معبودهم «اليوجود» الذي تولاه
ورعاه ، ولم يتخل عنه فوقاه الشر وجنبه الضر وعبد السبيل أمامه إلى
المجد .

آلة الحكم

وهكذا أصبح « جنكيز خان » بعد مؤتمر « الكورلتاي » يحكم من صحراء « الجوبي » إلى « منشوريا » شرقا وإلى أرض « الخطاي » غربا ثم إلى « سيبيريا » شمالا . وكانت تلك الرقعة الفسيحة تتباين مناخا وطبيعة أرض ، تجمع ألوانا من الشعوب وألوانا من الأجناس ، هذا إلى لغات مختلفة وأديان متفرقة وطباع متنوعة وعادات متميزة . من أجل ذلك لم يكن عبء « جنكيز خان » يسيرا ، إذ كان عليه أن يخاطب هؤلاء كلهم وأن يبلغ إلى عقول هؤلاء كلهم .

ولكن « جنكيز خان » لم يكن جديدا على هذه البيئة بما ابتدع فيحملهم على نظام جديد قد يستعصون عليه ولا يُسيغونه ، ويحمل نفسه على أمر جديد قد تحونه فيه وسائله ولا تُسعفه . فلقد سبق أن اتحدت هذه القبائل يوما ما وتزعمتها أسرة « هيونج نو » بعد غارات متلاحقة ، حفزت هؤلاء الناس على أن يُشيدوا هذا السور ، سور الصين العظيم . ولقد خفف هذا العبء شيئا عن « جنكيز خان » فأفاد من تجارب من سبقه ، كما أفاد من تجاربه هو التي مرت به ، وكان ذا طبع سياسى فهيأه ذلك الطبع لحكم شعب كبير وتدير مملكة كبيرة .

وما إن اجتمع له الأمر حتى أخذ يُقنن لهذا الشعب الكبير قانونًا عامًا ينظم له حياته ، فكانت « الياسة » تلك الشريعة المغولية التي ضُمَّنت تجارب هذا الرجل وآراءه على مرّ السنين . وكان هدف « جنكيز خان » منها أن يجمع على الطاعة تلك الشعوب البدائية المتأبّية ، وأن يصوّر لها العقاب هائلًا فترهب ، وأن يُرغّبها في الألفة فتأنس ، وألا يتركهم فارغى اليد فتثور فيهم غرائزهم الكامنة ويعدو بعضهم على بعض .

وعلى هذا كان لزامًا على « جنكيز خان » وقد ملك هذا الجيش أن يُقيد من هذا الجيش ، وإلا فسوف ينقلب حربًا عليه إن لم ينقلب حرباً على نفسه ، وفي كليهما الخسران والهلاك . وكان لزامًا على « جنكيز خان » قبل أن يهتّى جيوشه للغزو أن يعد نفوسها لهذا الغزو . وهو خطيب مفوّه كما علمنا ، يملك القول النافذ والأسلوب الرنّان ، ويملك الحجة ويملك أسباب الإقناع . فتحدث إلى قومه فأكثر ، وخطبهم فأمعن ، يصوّر لهم في هذا وفي ذاك ما يُعانون من ضيق ، ويصف لهم ما في الأراضى المجاورة من رخاء ليس بينهم وبين أن ينالوه غير أن يخرجوا إليه ، فإذا هم قد مَلّثوا أيديهم منه مَلْثًا . وأحسّ القوم ما هم فيه من ضيق فتحمّسوا ، وتطلّعوا إلى ما ينتظرهم من رَغَد فامتثلوا طمعًا ، ورأوا ما هم فيه من عُدّة وقُوّة فاستعجلوا الغزو .

لقد نظمت « الياسة » صفوفهم فجعلت منهم جيشًا فيه تسانُد وفيه تعاون ، لا يتخلّى الجندي عن وُحدته ولا تتخلّى وُحدته عنه ، وعلى

كل وحدة - وعدد أفرادها عشرة - ألا تخلف وراءها جريحاً ، وعلى كل محارب ألا يخرج عن المعركة إلا مع لوائه ، وعليه ألا تمتد يده إلى سلب أو نهب قبل أن يأذن له قائده في ذلك .

وكان الجيش وحدات - كل وحدة عشر رجال - ثم فرقاً كل فرقة «طومان» من عشرة آلاف ، وعليها رئيس «توبون» ، ثم الجيش من فيالق وعليه قائد «أرخون» . وكان من هؤلاء الأرخونات : «سابوتاي» و«موهولي» العجوز المحنك و«شيبه نويون» القاسى العنيف ، وكثير غيرهم ممن كانت لهم غارات مشهورة وفُتوح ماثورة . وكان لهذا الجيش سلاحه الوفير من حراب ودروع ثقيلة تحفظ بمخازن أعدت له ، يُشرف عليها ضباط مسئولون عن صيانتها ونظافتها وصقلها . حتى إذا ما كانت الحرب قام هؤلاء بتوزيع الأسلحة على الجنود ، ثم قام من بعدهم مفتشون «جرخانات» يستعرضون الجنود بعد أن ينتهى إليهم سلاحهم ، يستوثقون من استكمالهم لعدتهم ، ومن وجد مقصراً أو مُهملاً عُوقب . وإذا ما خرج الرجال إلى الحرب قام النساء بجميع ما عليهن ، يخلفنهم في جميع الواجبات إلى أن يعودوا .

لقد كان الخان يهيئ لجنده - الذين كانوا أخلاطاً شتى - الفرصة ليعرف بعضهم بعضاً ويُقرب بعضهم من بعض ، فكان لا يتركهم مع الشتاء قابعين في خيامهم حول مدافئهم يقطعون الوقت الطويل في حديث طويل ، سرعان ما يجرهم إلى التناوب والتنافر والتشاحن ، بل

كان يخرج في موسم الشتاء إلى القنص هنا وهناك في طراد مُستمر وراء التياتل والظباء والغزلان والحُمر الوحشية . وجعل « جنكيز خان » ذلك قانونا من قوانين « الياسة » وجعل بدءه مع نزول الجليد ونهايته مع ظهور العُشب .

فإذا ما أهل الربيع جمع إليه قواده وضباطه في مؤتمر عام يناقشهم في أمورهم وفيما يحتاجون إليه ويرضونه ، لا يُبيح لواحد منهم أن يتخلف عن مجلسه هذا ، منذراً من تحدّثه نفسه بذلك بأن يُلقَى به من علّ كما يُلقى بالصخر إلى الهاوية .

وهكذا قضى « جنكيز خان » على أسباب الشحنة بين رجاله فضمّنهم صفّاً واحداً موحّداً مؤتلفاً ، وهياً لهم أسباب النظام فعرفوا الحياة على لون جديد وأسلوب مُبتدع ، وألزمهم بالطاعة فامتلت بها نفوسُهم ، وعرفوها قانوناً ونظاماً فاتبعوه متعاونين ، ودربهم على مراحل القتال المختلفة من هُجوم وانسحاب وزحف ودفاع فحدّقوا هذا كله ، وأخذهم بالخُشونة وتحمل الصعاب فنشئوا ذوى جَلَد وقُوّة وصَبْر ، يستوى تحت أرجلهم السهل والوعر ، والجبل والبحر .

وكان « جنكيز خان » من الموحّدين ، دَانَ بالتَّوحيد ديناً ، وضمّنه قانونه « الياسة » وبه افتتحها حيث يقول : الله واحد خالق السموات والأرض مانح الخير والشر والغنى والفقر واليسر والعسر ، واهب الحياة والموت يفعل ما يشاء ، الله القوى ذو القدرة الشاملة والمُطلقة من كل القيود .

وهو على هذا لم يُلزم رعاياه بما دَانَ به بل تركهم أحراراً فيما
يَعْتقدون ، يُجَلّ رجال الدين على أى دين كانوا ، ويحترم أرباب الملل
على أية ملة عاشوا . ولقد بلغ من احترامه هؤلاء أن أعفاهم من ضريبة
العُشور ، وأعفاهم من كثير من المُن والمُؤن والتكاليف التى كانت مفروضة
على من سواهم .

وهكذا استطاع « جنكيز خان » أن يقضى على سبب من أخطر
الأسباب التى تهيج الشر بين الناس وتُورث بينهم العداوة والبغضاء .
وكما أسقط هذه المُن عن كواهل رجال الدين أسقطها عن كواهل
الفقهاء والزهاد والعلماء والأطباء ومن فى مستواهم .

فعل هذا كله « جنكيز خان » يريد أن يهيب للحياة الفكرية سبيلها ،
فلا يُرهق أهلها فيشغلها ، ويريد أن يُفسح للحياة الفكرية مكانتها فى
النفوس ، ويحيط أصحابها بشئ من التقدير .

وهكذا تضمنت « الياسة » جملة من القوانين التى تُعنى بتنظيم
العلاقات بين الناس بعضهم بعضاً . ونحن نُجمل لك شيئاً من ذلك
لتعرف على أية حال كان هؤلاء القوم ، وأية حياة كانوا يحيون ، فكان
مما جاء فيها :

ليس لمواطن ما أن يتخذ مغولياً خادماً له أو عبداً .

من وجد أسيراً هارباً أو عبداً آبقاً ولم يرُدّه قُتل .

جزاء الزانى أو الزانية الذبح .

ليس لأحد أن يتناول الماء بيده بل عليه أن يغترفه بإناء .

مَنْ بَالَ فِي الْمَاءِ قُتِلَ .

إِيَّاكَ وَشَرِبَ الْخَمْرَ فَوْقَ ثَلَاثِ مَرَاتٍ فِي الشَّهْرِ . وَمَنِ الْخَيْرُ لَكَ أَلَا تَشْرِبُهُمَا أَبَدًا . فَإِنْ مَثَلَ السَّكَرَانِ كَمَثَلٍ مِنْ أَصَابَتِهِ ضَرْبَةٌ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَقَدْ وَعِيَهُ .

لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْكُلَ وَغَيْرُهُ يَرَاهُ دُونَ أَنْ يُشْرِكَهُ فِي الْأَكْلِ .
مَنْ مَرَّبَقَوْمٍ يَأْكُلُونَ فَلَهُ أَنْ يَلْعَنَهُمْ وَيُؤَاكِلَهُمْ وَلَيْسَ لَهُمْ مَنَعُهُ .
الْقِتَالُ بَيْنَ الْمَغُولِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مُحْرَمٌ .

مَنْ وَقَعَ عَنْهُ حِمْلُهُ أَوْ قَوْسُهُ أَوْ شَيْءٌ مِنْ مَتَاعِهِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَوْ يَفِرُ فِي الْقِتَالِ وَكَانَ مِنْ خَلْفِهِ غَيْرُهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَرَجَّلَ وَيُنَاولَهُ مَا سَقَطَ مِنْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ قُتِلَ .
كُلٌّ مِنْ لَا يَشَارِكُ فِي الْقِتَالِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِيَ لِلْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ خِدْمَةً مَا دُونَ جِزَاءٍ لِفَتْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ .

* * *

وَبَعْدَ فَقْدِ كَانَتْ لِلْقَوْمِ عَادَاتٌ وَتَقَالِيدٌ تُلْقَى هِيَ الْآخَرَى أَضْوَاءً عَلَى حَيَاتِهِمْ ، فَلَقَدْ كَانُوا يَحْرُمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ غَسْلَ الثِّيَابِ وَيَلْبَسُونَهَا حَتَّى تَبْلَى .

وَكَانُوا يُعَدُّونَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا طَاهِرَةً وَلَيْسَ ثَمَّةُ شَيْءٍ نَجَسٌ .
وَكَانُوا إِذَا قَدَّمَ أَحَدُهُمْ إِلَى آخَرٍ طَعَامًا أَوْ شَرَابًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْهُ شَيْئًا أَوْ لَا قَبْلَ تَقْدِيمِهِ ، لِيَلْقَى بِذَلِكَ الْأَمْنُ فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ .
وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا ذَبْحَ الْحَيَوَانِ شَدُّوا قَوَائِمَهُ وَشَقُّوا جَوْفَهُ ثُمَّ أَدْخَلُوا

الذابح يده إلى قلب الحيوان ليمرسه أو يخرجـه .

وكانوا يشربون دماء الحيوان .

وكانوا يخشون الرعد ويفرقون منه ، حتى لقد كان الخوف يدفع بأحدهم مع الرعد إلى أن يقذف بنفسه في الماء اتقاء غضب السماء ، ومن هنا كانت « الياسة » تحرّم الاستحمام وكس الماء خلال العواصف ذات الرعد والبرق .

وهم على هذا كانوا يدينون بالصدق ، لكلمتهم قداسة ، يقصد أحدهم إلى الخان يطلب إليه أن يقتصّ منه على جُرم لم يره أحد مُتلبساً به ، كما كانوا مُتعالين على غيرهم فيهم كبر وفيهم غطرسة ، ينظرون إلى من سواهم نظرة ملؤها الاحتقار والأزدراء ، لهذا عدّوا اعتداءهم على غيرهم من البشر شيئاً غير مُنكر ، بل غالوا فعدّوه جزاء عادلاً .

نحو الشرق

خلال القرن الثانى عشر كانت تسود الأقاليم الشرقية من آسيا موجات من الفوضى والاضطراب ، فلم تذُق تلك الربوع الطمأنينة يوماً ، ولم تنشر السكينة ظلالها عليها . فلقد كانت الأسرات المتطلعة إلى الحكم فى نزاع مستمر حول الغلبة على السلطان ، لا تكاد تتبوّؤه أسره حتى تشور بها أخرى ، والشعب بين هذه وتلك هائج ، فريق مجذوب إلى هؤلاء وفريق مجذوب إلى هؤلاء ؛ يَصُلِّى بعضهم شر بعض ، ويعدو بعضهم على بعض .

وفى ما بين عامى ٩٦٠ - ١١٢٧ م كانت أسرة « صُونْ » * - وكان الحكم إليها بالصين - قد بلغت من الانحلال حالاً أطمعت فيها قبائل « الخطاي » التى كانت تنزل إلى الجنوب من « منشوريا » فى إقليم يعرف من قبل باسم : « لياو » ، ويعرف الآن باسم : « كوريا » . وما إن

* Sung أسرة صون حكمت الصين من عام ٩٦٠ إلى ١٢٧٩

غزت قبائل « الخطاي » * هذا الأقليم حتى أرغموا الأسرة الحاكمة ،
أسرة « صُونْ » على النزول لهم عن الأرض الممتدة وراء سور « الصين »
العظيم .

وحين تم لهم ما أرادوا ضموا تلك الأرض إليهم ، وأقاموا عليها
أسرة منهم تحكمها ، هي أسرة « لياو » ومعناها في لغتهم : « الحديد »
ولكن سرعان ما غشيت المدينة بزُخرفها وبهرجها تلك الأسرة البدائية
الحاكمة فانغمست في الملذّات والشهوات ، وخرجت بها حياة الترف
والرفاهية عن حياتها الحشنة الجافية ، ففقدت بأسها وطرحت
جانبا روحها الحربية ، وأنسيت ما كان لها من مراس وكفاح ، وإذا هي
على حال من الخُور والضعف تُتيح لخصومها الذين كانوا يتربصون بها
الدوائر أن يثوروا بها .

وفي مقاطعة من مقاطعات « منشوريا » كانت تنزل قبيلة « الكين »
ومعناها في لغتهم « الذهب » . وكانت تدين بالولاء لأسرة « لياو »
وتخضع لها ، غير أن الترف الذي أفسد على أسرة « لياو » حياتها لم يُفسد

* Cathay هو الاسم الذي عُرفت به الصين خلال العصور الوسطى ، وهو مشتق
من كلمة خيطان Khitan الصينية وكيطاو Kitat المغولية وخطاي العربية .
وكان أول من أزاح الستار عن هذه الأسماء في أوروبا قسيسان من
الفرنسيسكان زارا قره قرم عاصمة الامبراطورية المغولية عامى ١٢٤٦ ،

على أسرة «الكين» حياتها ، وعاشت في بداوتها تستملى من خُشونتها
قوة ، وتستملى من حفاظها على تقاليدها بأسًا . وأخذ الزمن يسلب
أسرة «لياو» ويعطى أسرة «الكين» فإذا هؤلاء أقوياء وإذا أولئك
ضعفاء . وما دان الناس للناس إلا حين يَرَوْنهم أعزّاء أقوياء عليهم ،
فإذا هانوا هان ولاؤهم لهم وانقلب طموحًا إلى التحرُّر وطموحًا إلى
الغلبة . وهكذا استحال المغلوبون غالبين ، وأُتيح لأسرة «الكين» أن
تستأثر بالسلطان دون أسرة «لياو» ، وأصبحت صاحبة السيادة على
إقليم «الخطاي» في عام ١١٢٥ . وكما استكانت أسرة «صُون» لأسرة
«لياو» استكانت لأسرة «الكين» ، دفعت إليهم الجزية صاغرة
كما كانت تدفعها من قبل لأسرة «لياو» .

* * *

وكان دأب ملوك «الخطاي» أن يفرضوا الضرائب على من هم
خارج السور العظيم من بدو . وكان هؤلاء البدو في شدّ وجذب مع
أولئك الملوك ، لا يؤدّون إليهم ما فرضوه عليهم إلا حين يحسّون منهم
قوة وبأسًا ، فإذا ما أحسّوا منهم الضعف والهوان امتنعوا عن أداء ما
فرضوه عليهم ، ولا يقفون عند هذه بل كانوا يجاوزونها إلى أخرى
أشدّ هولًا ، فيخرجون مُغيرين على السور العظيم . عندها كان هؤلاء
الحكام لا يجدون بُدًّا من استرضائهم ، فيُغدقون عليهم الهبات والهدايا
من غلال وفضة وخرم مُعتقة ومنسوجات حريرية لكي يَصْرِفُوهم عن
حربهم ويأمنوا شرهم .

وتطلع « جنكيز خان » إلى ذلك الإقليم الذى تفرض عليه أسرة « لياو » سلطانها ، يريد أن يضمه إلى ملكه ، فهؤلاء البدو الذين ينزلون إلى الشرق من « الجوبى » والذين تعددهم أسرة « لياو » من رعاياها ، هم إليه وهو خاقان عليهم . وتلبّث ينتهز الفرصة للإيقاع بخصمه . ولم تغب تلك الفرصة طويلا ، إذ لم تكن الحال بين أسرة « صُون » ، وأسرة « لياو » مستقرة ، فكانتا لا تهدأ بينهما حرب . وفى غمرة من تلك الغمرات فزع الامبراطور الصينى بالمغول ، وأرسل إلى « جنكيز خان » يطلب منه العون . وهنا خفّ « جنكيز خان » إلى عونه وأمدّه بميش من جنّده على رأسهم « شيه نويون » ذلك القائد المحنك المغوار . وأبلى الجيش المغولى خير البلاء ، ووطى أرضا لا عهد له بها من قبل ، غنى وثروة وجاهًا ، فأخذ بمحاسنها ومفاتيحها . فلقد كانت الحياة هنا غير الحياة التى ألفوها فى أرضهم . فهذه حياة قد أخذت بحظ من الحضارة والمدنية والعلم ، وتلك حياة بادية جافية لا تعرف غير القباب والخيام . وهكذا كانت الحياة هنا تُباين الحياة هناك خلف السور العظيم تباينًا تامًا .

وعاد الجند من حملتهم تلك وفى رؤوسهم الكثير مما رأوا وشاهدوا ، يذكرون هذا الخير العميم الذى ينعم به القوم ، ويذكرون ما رأوا للقوم من علم وفن . ويذكرون ما رأوا للقوم من رفاهية وحضارة ، ويذكرون ما رأوا للقوم من جاه وغنى ، ويذكرون لهم كيف يعيشون وكيف يلبسون وكيف يلّهون . وكما عاد هؤلاء الجند بهذا عادوا



يَرَوْنَ مَا لِلْقَوْمِ مِنْ بَاعٍ فِي الْحَرْبِ وَعِلْمٌ بِقُنُونِهَا . فَلَقَدْ رَأَوْهُمْ قَوْمًا
يَجِيدُونَ الرَّمْيَ بِالسَّهَامِ ، وَيَجِيدُونَ رَكُوبَ الْخَيْلِ ، وَلَكِنَّ حَيَاةَ الْمَدَنِ
صَرَفَتْهُمْ عَنْ هَذَا إِلَى غَيْرِهِ مِنْ وَسَائِلِ الدِّفَاعِ ، فَأَقَامُوا الْحَصُونِ
وَالْأَسْوَارَ حَوْلَ مَدَنِهِمْ يَدْفَعُونَ بِهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَجْعَلُونَهَا عُدَّتَهُمْ فِي
رَدِّ خُصُومِهِمْ عَنْهُمْ وَاسْتَكَانُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّغْدِ ، وَعَاشُوا طَبَقَاتٍ :
مِنْهُمْ الْحُكَّامُ ، وَمِنْهُمْ النُّبَلَاءُ ، وَمِنْهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالتَّجَارُ وَالصَّنَاعُ ،
وَمِنْهُمْ الْعَبِيدُ ، وَمِنْهُمْ الْكُهَّانُ ، وَمِنْهُمْ الْجُنْدُ ، وَعَلَى رَأْسِ هَؤُلَاءِ
جَمِيعًا الْإِمْبَرَاطُورُ الَّذِي كَانُوا يَعُدُّونَهُ ابْنًا لِلسَّمَاءِ ، تَحِيطُ بِهِ حَاشِيَتُهُ الَّتِي
كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهَا : سَحَبُ السَّمَاءِ .

وَلَقَدْ رَأَى هَؤُلَاءِ الْجُنْدُ لِأَهْلِ « الْخَطَايِ » عَرَبَاتٍ لِلْقِتَالِ تَجْرُهَا
الْجِيَادُ ، لَمْ يَكُنْ اعْتِمَادُهُمْ كُلَّهُ عَلَيْهَا وَإِنَّمَا كَانَ اعْتِمَادُهُمْ عَلَى أَقْوَاسِ لَهُمْ
ثَقِيلَةٍ ، تَعُوزُ كُلَّ قَوْسٍ مِنْهَا عَشْرَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الْأَشْدَاءِ لَجَذْبِهَا لِتَنْطَلِقَ
عَنْهَا سَهَامُهَا الْهَائِلَةُ ، هَذَا إِلَى مَجَانِيْقٍ لَهُمْ أُعِدَّتْ لِقَذْفِ الْأَحْجَارِ
وَأُخْرَى لِقَذْفِ اللَّهَبِ وَالْحَمَمِ ، لَمْ يَكُنْ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيْهِمْ تَفْهَمُ كُنْهَهَا .
كَمَا رَأَوْهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ الْبَارُودَ فِي الْحَرْبِ بَعْدَ أَنْ كَشَفُوا عَنْهُ . وَهَكَذَا
رَأَى هَؤُلَاءِ الْجُنُودُ مِنْ أَسْبَابِ الْقِتَالِ مِثْلَ مَا رَأَوْا مِنْ أَسْبَابِ الْحَضَارَةِ ،
شَيْئًا جَدِيدًا يَقُومُ عَلَى عِلْمٍ وَيَقُومُ عَلَى دِرَاسَةٍ .

مَلَكَتْ هَذَا كُلَّهُ جِيُوشُ « الْخَطَايِ » وَلَكِنَّهَا حِينَ انْغَمَسَتْ فِي
الْتَّرَفِ ، وَتَرَكَ إِمْبَرَاطُورُهَا الْحَبْلَ عَلَى الْغَارِبِ لِقُودِهِ ، وَعَكَفَ هُوَ عَلَى
مِلْدَاتِهِ فِي مَقَرِّ مَلِكِهِ « بِنِ كَنْجِ » أَطْمَعَ فِيهِمْ هَؤُلَاءِ الْبَدُو مِنْ خَلْفِ

السور ، يَشْنُون عليهم الغارات ويُوَالون المهجمات .

بهذا كله عاد هؤلاء الجند فإذا حديثهم يحرّك النفوس إلى غزو يُشبع البطون الجائعة ، ويملأ الجيوب الخاوية ، ويكسو الأجسام العارية ، ويُتيح للقوم الجفافة عيشًا رغدًا وحياة لينة . وسَعَوْا سعيهم لدى قائدهم « جنكيز خان » يُغرونه ويستميلونه إلى رأيهم . غير أن « جنكيز خان » ما كان يُملئ عن شهوة وإنما كان يُملئ عن رأى ، وما كان يملئ عن هوى وإنما كان يملئ عن تدبير وروية ، وما كان لقائد محنك مثله أن يقذف بجيشه إلى الشرق دون إعداد فيعود آخر الأمر بهزيمة تُغرى به أعداءه الذين لا يزالون يتربصون به الدوائر للقضاء على ملكه الناشئ .

لقد كانت « الجوبى » له ولكن خصومه كانوا يُحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم ، فمن الجنوب تقع « هيا » دولة اللصوص وقطاع الطرق الذين يسكنون الكهوف والمغاور ، ومن الشرق مملكة « الخطاي » التى وصفها المغول بالسوداء بغضًا منهم لها وكرهية . وكانت تضم قبائل التركستان ، ومن وراء الخطاي السوداء جيوش « القرغيز » الذين كان يحميهم تجوالهم فى الفيافى من أن تقع عليهم قبضة المغول .

لقد حسب « جنكيز خان » حساب هذا كله قبل أن يستجيب لقُوداه اللهفين إلى الغزو ، وأخذ يتعرّف ما عند أعدائه من قوة وما عندهم من ضعف ، حتى إذا ما استوى له الرأى أعدّ جيوشًا ثلاثة ، على رأس أولها « شيبه نويون » وقذف به إلى « القرغيز » وعلى رأس ثانيها

«سابوتاي» وقذف به إلى الخطاي السوداء ، وجعل رياسة ثالثها إليه ،
وخرج به يُصوّب صوب مملكة « هيا » يريد أن يشغل خصومه ويشتت
جهودهم فلا يَقوون على التجمع عليه .

ولقد تحقق لـ « جنكيز خان » ما أراد ، فخرج إليه أهل « هيا »
يطلبون الصلح ، وإذ كانوا مغولاً مثله أجابهم إلى هذا الصلح ،
وأصهر إلى الأسرة الحاكمة فتزوج فتاة منهم يريد أن يستأنسهم ويجعل
بينه وبينهم ألفة ورباطاً . وما كُتب لجيش « جنكيز خان » كُتب
للجيشين الآخرين شيء مثله أو قريب منه ، فقد طلبت جيوش
«القرغيز» إلى « شيبه نويون » الصلح ، وكذلك فعلت جيوش
«الخطاي» السوداء . وهكذا عادت هذه الجيوش الثلاثة ـ بعد أن
أمّنت حدودها ـ وقد أفادت خبرة وأفادت تجربة ، وداست تلك
الأرض فخبرت طبيعتها وأحيطت بها علماً ، ثم هى بعد هذا وذاك قد
كسبت أنصاراً وضمّت حلفاء .

وبموت امبراطور « الخطاي » وكى ابنه « واى وانج » ابن السماء ،
من بعده عرش « الكين » ، وكان ماجناً لاهياً مغروراً ، فأرسل رسله
إلى من تحت يده يجمعون له الضرائب ، لم يستثن منهم « جنكيز خان »
إذ كان يراه من هؤلاء البدو الذين يعيشون خلف السور العظيم عليه ما
عليهم .

ووافى الرسل « جنكيز خان » وهو فى قُبته بهضاب « الجوبى » ،
وقد علم بوفاة الخليف وقيام ابنه المغرور مكانه فلم يدهش . غير أنه

أراد أن يردّ تلك الإهانة التي أحبّ أن يلحقها به هذا الملك المغرور ، فلم يتلقّ الرسل بما يجب عليه لهم ، والتفت إليهم بعد أن تسلّم كتاب مليكهم وعرف ما فيه ، يهون من شأنه ويُعلن التمرد عليه .

وكذلك أعلنها « جنكيز خان » حربًا صريحة على ابن السماء « وای وانج » ، ومنّ فعل فعل « جنكيز خان » كان عليه أن ينظر في أمره ويتدبّره ليأخذ عدّته لكفاح أو دفاع . ودعا « جنكيز خان » إليه قواده ليروا معه ما هم فاعلون . وأراد ألا ينفرد بحرب ابن السماء وألا يجعل وزرها عليه وحده ، فأشرك معه حليفه الجديدين . وهكذا خرج « جنكيز خان » من هذا الاجتماع العجّل وقد ضمّ إليه أهل « هيا » ورجال « القرغيز » على حرب « وای وانج » .

وكانت رسل « وای وانج » مُقيمين لم يبرحوا ، انتظاراً منهم لما سيحملهم إياه « جنكيز خان » إلى مليكهم ، وحين مثّلوا أمام « جنكيز خان » حملهم رسالة قاسية فيها إهانة صريحة . ورجع الرسل إلى ابن السماء بتلك الرسالة المهينة فثار لها ، وكانت ثورته أكبر حين استمع إلى نائبه على ما وراء السور العظيم يُحدّثه عن بطش المغول ومقدرتهم الحربية . فلقد عدّ ذلك منه تهويناً لأمره وتمجيذاً لعدوه ، فقذف به في السجن مغضباً ثائراً .

وانتهى إلى « جنكيز خان » ما كان من ابن السماء من ثورة ، وما كان منه من تنكيل بنائبه في إيداعه السجن ، فعلم أنه لابد فاعل شيئاً . وأراد « جنكيز خان » أن يُمعن في الحيلة ، وأراد أن يطعن ابن السماء

في حلفائه وأوليائه قبل أن يطعنه في نفسه .

وقد مرّ بنا كيف انتزعت أسرة « الكين » السلطان من أسره « لياو » واستأثرت بالملك دونها . وما هو بهينٌ على « لياو » ما خسروا وما في مقدورهم أن ينسوا .

ذكر ذلك « جنكيز خان » ففكّر في أن يُفيد من تلك الخصومة ، وما عليه إلا أن يثيرها ويبيجها . وما على أسرة « لياو » من بأس أن تستجيب إن أمنت الشر . من أجل ذلك أرسل « جنكيز خان » إلى أسرة « لياو » رُسُلَه يعرض عليهم عونه ليكونوا معًا حربًا على عدوهم المشترك . وسرعان ما استجابت أسرة « لياو » فتم التحالف . وسرعان ما أمضى هذا الحلف بقَطرات من دم المتحالفين توثيقًا للعقد وإجلالا له .

وحين ثار ابن السماء بنائبه لم يَتَّه به ثورته عند ذلك بل تجاوزها إلى ما هو أكبر ، فإذا هو يأمر بخروج قُوة مسلحة لتأديب ذلك المتمرّد . وتبلغ « جنكيز خان » الأخبارُ فيستعد هو الآخر لملاقاه عدوه ، ولكنه كان على علم بمناعة السور العظيم ، ولم يكن في استطاعته أن يجتازه ، فأرسل عُيونه لتخبره وتعرّف أبوابه ومداخله وتتحسّس جدرانَه . وتعود الرسل تخبر « جنكيز خان » أنه حَتَم عليه أن يَلج الأسوار من أبوابها إذ أن مناعة تلك الأسوار أقوى من أن ينفذ منها .

وقبل أن يمضى « جنكيز خان » في اقتحام السور وولوج أبوابه رأى أن يُمهد لذلك الهجوم بمُقدّمات يُفيد منها قبل أن يقضى أمرا ، فبعث

بنفر من رجاله ، منهم التجار الذين يسهل عليهم الدخول إلى هذه المدينة المنيعه ، ومنهم الفرسان الذين تظاهروا بالفرار من ظلم «جنكيز خان» . بعث «جنكيز خان» هؤلاء وهؤلاء وزودهم بما يحبّ منهم أن يفعلوا ، وكان همّه أن يتعرف ما عند عدوّه بما ينقلّه إليه هؤلاء التجار ، وأن يقع على نفر من المحاربين في جيش عدوه ، ينقلهم إليه أسرى فرسانه الذين ادعوا الفرار . وتم «لجنكيز خان» ما أراد فقد عاد إليه التجار بشيء ، وعاد إليه فرسانه برجال من المحاربين استطاعوا أسرهم ، وما إن استنطقهم «جنكيز خان» حتى أفضوا إليه بالكثير ممّا يرغب فيه .

عندها خرج «جنكيز خان» للغزو تتقدّم جيشه كشافة تسير على مسافات بعيدة أمام الجيش لتؤمّن مسيرة زحفه . وكان في إثر الكشافة مقدمة من الجيش تضمّ فرقًا ثلاثًا ، قوامها كلها ثلاثون ألفًا من الفرسان الشجعان ، لكل فارس جوادان ، يركب واحدًا ويقود واحدًا إلى جنبه ، وعلى رأس تلك المقدمة قواد ثلاثة محنّكون هم : «موهولى» و «شيبه نويون» و «سابوتاي» . وكان يسبق هؤلاء وهؤلاء عيون للجيش «طابور خامس» همّهم أن يُغرّوا الحُرّاس القائمين على الأبواب ، ولقد استطاعوا . فما إن وصلت المقدمة حتى انفتحت لها الأبواب وفي إثرها اندفعت القوّة الرئيسية من الجيش بجناحيها ، في كلّ جناح خمسون ألفًا من الفرسان ، وفي قلبها مائة ألف من المقاتلة من قبيلة «يكا» قبيلة «جنكيز خان» ، هذا إلى ألف من الرجال الأشداء

كانوا حرسَ « جنكيز خان » الخاص يمتطون جيادهم السوداء .
ويحكون أن هذا الجيش - أعنى جيش « جنكيز خان » - أول من
ابتدع التخاطب بالأعلام . فعل ذلك « جنكيز خان » حين رأى أن
الطبول والأبواق يضيع صدى أصواتها في ساحات القتال الفسيحة .
هذا إلى أن الأعداء كانوا يفهمون المراد منها في بعض الأحيان فيفسدون
على الجيش المحارب خططه . وبهذه الوسيلة الجديدة التى لا يفهمها
العدو كان اتصال الكشافين بالمقدمة ، والمقدمة بالجيش الرئيسى ،
والقلب بالجنحين ، على خير حال .

واقتحمت جيوش « جنكيز خان » الأبواب وجازت السور العظيم
لتلقى القوات المراقبة خلف السور فتهاجمها على غرة وتُنكّل بها نكالا
شديداً . عندها أصاب الفرعُ والهَلَعُ تلك القوات فانسحبت تَحْتَمِى
وراء أسوار المَدَن الداخلية - وكانت تلك عادتهم منذ الأزل - وأخذوا
يَرْمُون هؤُلاء المهاجمين بوابل من السهام ، ويصُبُّون عليهم ناراَ تقذف
بها قاذفاتُ اللهب .

هكذا فعلت قوات العدو وكادت تُعَوِّق تقدُّم « جنكيز خان »
وكادت تردُّه على أعقابهِ . غير أن جواسيس المغول وفُرساهم المتنكِّرين
كانوا قد انبشوا بين صفوف المحاربين فملأوا القلوب رُعباً والأفئدة
دُعرأ ، فإذا تلك القوات الرابضة خلف الأسوار تنكسر وتنخزل .

وكان الامبراطور قد أرسل جيشاً للقضاء على عدوّه ، وخرج هذا
الجيشُ زاحفاً للقاء « جنكيز خان » غير أنه ضلَّ الطريق واحتوته

المتاهات ، وانتهى إلى «شبيه نويون» علم هذا ، وكان ممن جاسوا تلك الأرض من قبل وعرفوا معارجها وطرقاتها ، فجرى في إثر ذلك الجيش الضالّ يبحث عنه . ومع الفجر أطبق «شبيه نويون» بجيش الامبراطور على غرة وأباده عن آخره غير شراذم قليلة فرّت عَجَلَة طائشة على غير هُدى ، فضربت في الهادية ما ضربت ثم انتهت إلى المدينة فنشرت الخبر ، فلذا الدُّعْر يَعُمُّ وإذا الهَلَك يَسود وإذا القوات الرابضة خلف الأسوار يُصيبها ما أصاب القوم ، هذا إلى ما أصابها من قبل من فعل جواسيس المغول ، فتتخلّى عن أماكنها وتترك الأسوار دون دَفَاع . وإذا الهَرَج يسود المدينة ، وإذا كلهم فارًّا وكلهم متعثّر ، لا يعرفون إلى أين يأوون ، والمغول في إثرهم يقتلون ويسلبون ويأسرون ، مُدْمِرِينَ هَادِمِينَ .

وأصبح «جنكيز خان» يومًا فإذا هو في زحفه تلقاء مُدن ، منها «تايونج فو» أكبر مدن الغرب و «ين كنج» ، وقد اجتمع خلف أسوارهما صفوة من القواد ، وصفوة من الجنود ، وإذا حاميات تلك المدن تزيد يومًا بعد يوم ، بما ينضم إليها من الجنود الراجعين . ونظر «جنكيز خان» في أمره فإذا هو بين يدي الخريف بزوابعه وعواصفه الثلجية ، وخاف على جيشه أن يقضى عليه البرد ، ورأى نفسه أمام قُوات تتزايد ، فقرر العودة بجيوشه إلى «الجوبى» ، تلك الصحراء الفسيحة حيث أهلّه وعشيرته ، ليرُيح جنده ويستريح هو ويُعدّ العُدّة لغزوة قادمة .

غير أن المغول ما كادوا يصلون إلى صحرائهم حتى أخذ أهل الصين في تقوية حصونهم وإعداد أسلحتهم وقاذفاتهم ، واستجلبوا القوات من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ . وأهل الربيع وعاد إليهم « جنكيز خان » غازيًا ، غير أنه وجد الأمر على غير ما ترك ؛ فقد رأى نفسه أمام قُوًى أكثر تسليحًا ، ووقف الخان تلقاء مدينة « تايتونج فو » يُضَيِّقُ الحصار عليها ويهاجمها يومًا بعد يومٍ عَنيفًا في هذا الهجوم . وخاف الامبراطور أن تذل المدينة أمام هُجُوم الخان ، فأرسل جيشًا ليرغم الخان على فك الحصار عن المدينة . غير أن الغازي التفت إلى الجيش الزاحف ودمره تدميرًا ، فألقى بذلك درسًا قاسيًا كان له أثره في نفوس أهل الصين ، وجعلهم يُؤمنون ألا مكان لهم إلا وراء الأسوار ، فقبَعُوا خلفها وجالين .

وأقبل الخريف مرةً ثانية ، وإذا الغازي يُصاب بسهم في ساقه ، فحَمَلَه قومه راجعين إلى صحراء « الجوبى » يَرون مع الخان أنهم في حاجة إلى مزيد من جند ، كئى تُكتب لهم الغلبة على تلك المدن المحصنة .

وعلى حين لم تذل « تايتونج فو » أمام هجمات الخان أفلح « شيبه نويون » في الاستيلاء على مدينة « ليا ويانج » في مملكة « لياو » . ولعل الذى يسر على هذا القائد استيلاءه على تلك المدينة أنها كانت تُعانى حصارًا قام به جنود « الخطاى » من أسرة « الكين » فمدَّت المدينة يدها إلى « جنكيز خان » تطلب العون في تلك المحنة ، وأرسل الخان قائده

«شبيه نويون» فحاصرها هو الآخر . وهكذا ضُرب على هذه المدينة حصاران : حصار تضربه جيوش «الكين» ، وحصار من خلفه تضربه جيوش «المغول» . ويجد «شبيه نويون» أنه لا طائل وراء هذا الحصار ، فإذا هو يمهد لذلك الفتح بحيلة ابتدعها وجازت على المحاصرين . فيقولون إنه لما طال الحصار ووجد أن قواته لا تُغنى انسحب تاركًا مضاربه وخيامه وثيرانه وعرباته ، وأمعن في الانسحاب يومين وليلة . وأطلّ الجنود المحاصرين فرأوا من تحتهم معسكر «المغول» عامرًا بما فيه ، واطمأنوا إلى أن المغول قد أبعادوا في السير ولن يعودوا ففتحو أبوابهم ونزلوا عن حصونهم يسلبون وينهبون . ولكن «شبيه» كان مكرًا ، فما كاد يرى أن المدينة قد فتحت أبوابها ، وأن الجند قد نزلوا عن حصونهم ، حتى امتطى جُنْدُه خيولهم السريعة العدو ، وعادوا مع الفجر إلى معسكرهم الذى تركوه منذ يومين وأحاطوا بالجنود وهم عُزِّلَ ينهبون ، فأعملوا فيهم السيوف يذبحون . وكانت معركة رهيبّة كاد يفنى فيها جيش «الخطاي» ، ووجد المغول الأبواب مُفْتَحَةً فاقتحموها فى يُسر .

* * *

لقد علم «جنكيز خان» أن الصينيين يدينون لامبراطورهم بالولاء والطاعة ، فهم لذلك يُفَدُّونه بحياتهم ويتفانون دونه ، ولقد علم أن لهم تلك الجدران المنيعة التى تُعَوِّق الجنود المهاجمة وتضطرها للوقوف أمامها أيامًا وليالي فى العراء ، وقد يطول بها الزمن فتفنى مؤنّها

وتتعرض للهلاك . ولقد علم أن مدنها متباعدة تفصل بينها فياف واسعة تضطر الجيش المهاجم إلى عناء كبير وجهد طويل . ولقد علم أنه إن عنَّ له أن يترك بها حاميات فسوف يكلفه ذلك عدداً كبيراً من الجنود ، وما هو بمستطيع ذلك . من أجل هذا كله انسحب « جنكيز خان » بجيوشه مكتفياً بأن يشن غارات متتالية متلاحقة ليُبث الفرع في القلوب ويترك الصينيين على أهبة مستمرة ، لا هم في سلم فيطمئنوا ، ولا هم في حرب فيعيشوا عيشة المحاربين .

وعلى الرغم من هذا الفرع - فرع الاستعداد للحرب - فلقد عاش الصينيون في فرع آخر ، إذ كانت الأسرة الحاكمة في صراع عنيف مع عصابات الفلاحين ذوي الأردية الحمراء ، التي كان همها إنقاذ الشعب البائس من طغيان الفئة الحاكمة التي نعمت بالثروة والجاه وتركت الناس يتضورون جوعاً . فعلى حين كانت القصور تعج بالطعام والخمور كان الناس من حواليلها صرعى في الطرقات ، ما بين ميت قد أهلكه البرد ، وهالك قد شقَّه الظمأ وأرداه الجوع .

وفي عام ١٢١٤ خرج « جنكيز خان » لغزو الصين قاصداً « يَنْ كنج » ، وكان خروجه هذه المرة يحمل معنى آخر غير تلك المعانى السابقة ، فلقد خرج في جيوش ثلاثة ، يقود الأول ابنه « جوشى » مخترقاً جبال « خونجان » الوعرة لينضم إلى جيوش « لياو يانج » ، وكانت جيوش « الخطاي » قد عاودت حصارها . ويقود الجيش الثانى أولاد الخان قاصدين التوغل نحو الجنوب في الأراضى الصينية . وقاد

الخان نفسه الجيش الثالث زاحفًا إلى «ين كنج» يريد أن يقتحمها من خلفها .

وتقدمت الجيوش الثلاثة تكتسح ما أمامها كسحًا في عُنْف السيول وسرعة العواصف ، فخضعت أمام جبروتها البلدان الكبيرة وفتحت لها أبوابها . وفي هذه المرة كان المغول يسوقون أمامهم أسراهم يقدمونهم دونهم قبل الهجوم على المَدَن الجديدة ، التي ما تكاد ترى هؤلاء الأسرى حتى تفتح لهم الأبواب . وما يكاد يدخل هؤلاء الأسرى من الأبواب حتى يكون «المغول» في أعقابهم يقتحمون الأبواب ويقتلون الحُرَّاس . لقد قسا «المغول» في غزوتهم تلك قسوةً بالغةً فأبادوا ودمروا ونهبوا وسلبوا وأحرقوا وأسروا . ودخلوا الصين دخولَ ملك الموت يختطف الأرواح اختطافًا فتركوها يبابًا خرابًا ، انتشرت فيها الفوضى وعمَّت المجاعات وخيم الخراب .

وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت «ين كنج» قائمة تدفع عن نفسها بأسوارها ، فجمع «جنكيز خان» قواته وضرب خيامه قريبًا من أسوارها ، وزين له رجاله أن يشنَّ عليها غارة صادقة خاطفة لعلها تدل له وتفتح له الأبواب قبل أن يحلَّ الحريف فيعوقه حلوه عن أن يفعل شيئًا ، ولكن «جنكيز خان» نظر فإذا المرض يفتك بخيله وجنوده ، وإذا القوات قليلةٌ والإرهاك قد غلب الرجال ، فلم يستطع أن يقوم بهجوم ، كما لم يستطع أن يثبت لإغراء المتحمسين ، فاستدعى إليه كاتبه وأملى عليه رسالة إلى الإمبراطور يقول له فيها : «إنى راحل

عنك غير أنّي أشرت لرحيلي أن تهدي إلى قوادى وجُنْدى ما يُرضيهم من الهدايا .

وتصل تلك الرسالة إلى الامبراطور فيجمع إليه أمراءه ووزرائه يستشيرهم ، فإذا هم يُشيرون على الامبرطور بمواصله الحرب ضد «جنكيز خان» .

وكان لهؤلاء الأمراء - لا شك - رأيهم فيما أشارو به ، فلقد أيقنوا أن هذه الرسالة لا تكون إلا عن ضَعْف ، وهم من قبل ذلك قد علّموا أن الأمراض قد فتكت بجند الخان وخيله ، ولكن الامبراطور الهلّع لم يستجب لأمرائه ولا لوزرائه وأمر بإرسال الهدايا إلى « جنكيز خان » من كل ما عَزَ وطاب من خيول صافنات ، ونساء فائنات ، وأحمال من الذهب والحرير ، وغللمان جاوزوا الخمسائة عدداً . وبعث مع الهدايا برسالة إليه يفاتحه في الهدنة ويتعهد ألا يقاتل حليفاً له .

ويقبل « جنكيز خان » ما أهدها إليه الامبراطور ، ولكنه يَمْضى فيطلب شيئاً آخر فوق ما أهدى إليه يعدّه شرطاً لقبول الهدنة ، وكان هذا الشيء الذى طلبه عروساً تُزَفّ إليه من أسرة الامبراطور لتوثق ما بينه وبين الامبراطور من صلة . وبعث الامبراطور إلى الخان ما طلب ، عروساً يُحفّها الحراس ومن خلفها الهدايا والإماء ، فضم الخان العروس إليه ، وحمل كل ما أهدى إليه وعاد في جيشه إلى رماله المحبّبة . غير أنه كان قاسياً كلّ القسوة حين أمر بذبح كل أسراه ليخلص من متاعبهم في أراضيه القفرة ، ولكن مثل هذا لا يقوم عُذراً

يبرر به ما فعل ، إذ كان في استطاعته أن يخلّي سبيلهم ويتركهم لشأنهم .
ولكن عُنْف هذه الشدائد به ردّه إلى طبعه الأول ، ذلك الطبع الحوشي
الغليظ . والرجل المتحضر من لا تترده القسوة إلى قسوة ، ولا يجره
العنف إلى عنف ، فيشتط ويجور شططاً لا يضبطه قلب ، وجوراً لا
يملكه عقل .

ويترك امبراطور الصين عاصمة ملكه مُخْلُفاً ابناً من أبنائه ويمضى
إلى الجنوب يتلمس الدّعة والراحة . وكان الشعب ضائعاً بما فعل
الامبراطور مع « جنكيز خان » حين لم يستمع إلى أمرائه ووزرائه ضارباً
برأيهم عُرْض الحائط ، وحين نزل له « جنكيز خان » عما نزل له عنه .
فما كان يعلم هذا الشعبُ برحيل الامبراطور عنه حتى ثار ثورته ،
يُشارك الأهالي الجنود ، ويُشارك الجنود الضباط ، ويشارك الضباط
الأمراء ، التفوا جميعاً حول ابن الامبراطور وأقسموا جميعاً ليحاربين
وليدفعنّ عن أنفسهم وصمة ذلك العار الذي ألحقه بهم الامبراطور .
وخرجت تلك الجموع المتدفقة عارية الرؤوس لا تأبه للمطر المنهمر ،
لتدُلّ الجالس على العرش على صدق عزمها وثباتها على ولائها له .

وانتهى إلى الامبراطور ما يدور في العاصمة فأرسل إلى ابنه يدعوه
إليه ، غير أن الأمراء حذّروه مَغَبّة هذه الدعوة ، وصمّم الامبراطور ،
ولم يجد الابن الصغير بُدّاً من أن ينقُض يده مما عاهد الشعب عليه
ويستجيب لأبيه ؛ فرحل يُشيّعه الخزي والعار . غير أن ذلك لم يصرف
الشعب عن غضبه ولم يفتّ في عضده ، وخرج يبطش بكل ما هو

للمغول من أثر ، يريد أن يهبي الأنفس لحربهم .
وانتهى إلى عيون « جنكيز خان » ما يدور في العاصمة الصينية ،
فأسرعوا يُنْهون إليه ما رأوا وما سمعوا ، وكان عندها في طريقه إلى
وطنه فخفّ راجعاً وضرب خيامه على الحدود بالقرب من السور
العظيم ينتظر الانباء . ويعرف « جنكيز خان » أن ابن الامبراطور مُتجه
إلى الجنوب ، فيُنْفلد إليه جيشاً بقيادة ابنه « جوشى » ويتعقب الجيش
الفارّ ليأتى به أسيراً . ثم يبعث « جنكيز خان » قائده « سابوتاي »
فيجوس خلال الديار ويفتح « كوريا » ويخضعها لحكم المغول ، كما
بعث « موهولى » إلى « ين كنج » للاستيلاء عليها ، وكان الأهالى في
يأس من أولياء أمرهم ، فخرجوا هاربين من مدينتهم وانضموا إلى
الجيش الفاتح . وبينما كان القائد « موهولى » معسكراً خارج المدينة
بعجيشه ومن انضم إليه لحق به « سابوتاي » ودخل الجيشان معاً المدينة
فاتحين غازين ، يُعينهم على الفتح تلك الفوضى التى مرّ بنا شئ عنها ،
والتي بلغت هنا مبلغاً خطيراً . فيروون أن حراس القصر شاركوا
الفاحين في النهب والسلب ، وكانت منهم عصابات تُغير على
الممتلكات ، شأنهم في ذلك شأن المغول الأعداء . وكم حاول القائد
الصينى فى « ين كنج » أن يجمع الأمر بين يديه ويُعيد الأمن إلى نصابه
لكى يملك دفة الأمور ويقوى على الدفاع فلم يُفلح أمام تلك الفوضى
السائدة ، ولم يجد له خلاصاً مما أحسّ به من ضيق نفسى غير أن يتجرّع
السم ليخلص من تلك الحياة التى عصفت بقلبه ، وقُست على وجدانه

وأهدرت كرامته . ولقد عَزَّ عليه أن يرى بعينه بلده « ين كنج »
تلتهمها النيران ويحيط بأهلها الهلع ، ويتخطف ساكنيها الموت ، وهو
لا يملك لهم شيئاً ولا يقوى على دفع « المغول » عنهم .

وهكذا أحرز « جنكيز خان » في الصين نصراً بعد نصر دلّ على قدرة
فريدة وحنكة فذة . لم تقو تلك الحضارة بعلمها وفنها وأسلحتها
الحديثة وحصونها المنيعة وبارودها القاتل ومجانيقها قاذفة بالذهب
والحُمم ، لم يقو هذا كله أن يقف في سبيل هذا الرجل البدائي الهمجى
الجلف . ولكن ذلك يُعزى أوّل ما يعزى إلى ما أصاب الصينيين من
دعة ألفتهم عن الانتفاع بما أمدتهم به هذه الحضارة ، ثم انقسامهم على
أنفسهم ، وليس شرّ من الانقسام على الشعوب .

وكان خصمهم على بداوته يجمع أسباب الوحدة وأسباب الطاعة
وأسباب القوة وأسباب الصبر والجلد ، وبهذا انهزمت الحضارة أمام
البداوة وانتصر « جنكيز خان » واندحرت الصين .

ثم عاد « جنكيز خان » بعد هذا الجهد الكبير إلى صحراء « الجوبى »
تاركاً « موهولى » الحكيم يُدير دفة الحكم في ذلك القطر الشاسع من
عاصمته التى تم فتحها على يديه . وكان « جنكيز خان » يعلم أن
إخضاع الصين كلها إخضاعاً تاماً يتطلب منه حروباً متصلة في سنين
طويلة ، فمن أجل ذلك رأى أن يستجم شيئاً في صحرائه الفسيحة
يؤمن حدوده ، وينظر إلى الغرب نظرة كما نظر إلى الشرق ، فيمدّ
حدوده هنا كما أمدّها هناك .

قره قرم

وما أَخْلَدَ طويلاً « جنكيز خان » بين ربوع الصين الشاسعة ، ولا استمالته حياة القصور البهجة ، ولا أغرته تلك المَدَن العظيمة ببساتينها اليانعة وشوارعها الفسيحة ، ولا استنم لذلك الرِّغْد الواسع والترِّف المُسرف ، بل سرُّعان ما حَنَّ إلى صحرائه وقبابه وأهله وعشيرته ، فخَلَّف ذلك كله وراءه — كما مرَّ بنا — يقصد بآديته بشمسها اللافتة ورمالها السافية ، تاركاً الأمر لرجله الحكيم العجوز « موهولى » يحكم تلك البلاد ، ومعه جيش من « المغول » يحمى كلمته ويحُوط حُكمه .

وما أنسى « جنكيز خان » طمع القواد في القواد ، وثورة الجند برؤسائهم . من أجل ذلك أصدر أمره مشدداً إلى هذا الجيش بضباطه أن يكونوا على الطاعة التامة لخليفته وألاَّ يَعصوا له أمراً وأن ينظروا إليه نظرتهم إلى الخان .

وترك « جنكيز خان » الصين ليؤوب إلى بلده ومن حوله رجال حاشيته ومن خلفه خدمه ، وبين أيديهم العربات تجرُّها الثيران محمَّلة بكنوز الصين العظيمة ، ونفائسها الرائعة ، وغلاتها العجيبة ، وحريرها الزاهى ، ودمقسها الملون ؛ هذا إلى آلات دقيقة وصناعات

محيرة . ولقد حمل « جنكيز خان » مع هذا كله جملة من العلماء وجملة من الصناع ، يريد أن يفيد بلده علماً ويفيده صناعة ؛ ولكنه كان كغيره من الملوك ، حين تكتب لهم الغلبة والفوز لا ينسَوْنَ نصيبهم من الدنيا ، فساق « جنكيز خان » معه جملة من السبائا الفاتنات .

وانتهى الركب إلى « قره قرم » تلك المدينة العتيقة الخالدة التى كان « جنكيز خان » يظن أنه ليس بين المدائن شرقاً وغرباً ما يفوقها عظمةً ومجداً ، فإذا هى تصغر فى عينيه حين طالعته مدنُ الصين ، ورأى ما بين تلك المدائن وهذه المدينة من بَوْنٍ شاسع وفرق عظيم .

ويعنُّ لنا أن نسأل : لِمَ نَقْضُ « جنكيز خان » يده من حرب الصين ولما يتم له فتح مُدُنِها كلها ، ولما تَحَرَّله حُصُونُها جميعاً ؟ أتراه قد هالته الحرب ، وهاله ما فقد فيها من دماء ، وما بذل فيها من عناء ، وما استقبلته به من شدة ، وما تطلَّبتَه منه من تضحيات ، فلقد قيل إن قَتْلَهِ فى تلك الحروب بينه وبين الصين أَرَبَّتْ على الملايين ؟ أم تُراه كان محارباً كريماً يأبى عليه كرمُ نفسه أن يهون بين يديه خَصْمُه الهوانَ كُلَّهُ ، فهو من أجل ذلك يُبْقَى على شىء من عزِّته وشىء من كرامته ، لا يمضى فى الأمر إلى آخره ، وهو لهذا أبْقَى على تلك البقية الباقية ولم يشأ أن يقضى عليها كُلُّها قضاءً مُبرماً ؟

وسواء أكانت الأولى أم الثانية فلقد كانت تلك حال « جنكيز خان » مع الصين ، فخرج عنها إلى « قره قرم » بتلك الخيرات الكثيرة التى بدَّلت من عُسْر الشعب المغولى يُسْراً ، وبدَّلت من حال مدينة « قره

قرم» — أو الرمال السوداء كما كانوا يسمونها — القائمة وسط بحر من الرمال ، والتي تُشرف بيوتها المسقوفة بأعواد القصب على طرقات مُتعرّجة ليس بينها طريق واحد مستقيم .

هكذا كانت « قره قرم » من قبلُ جافية كأهلها ، لا تبدو عليها مسحة من ترف ولا مظهر من نعيم ، فإذا هى بعد أن عاد إليها « جنكيز خان » من غزوته إلى الصين محملاً بأكداس من الهدايا الفاخرة قد ازدانت وأخذت زُخرفها وأطرحت عنها قبابُ اللباد لتستبدل بها قباباً مبطّنة بالحرير الموشى . وكان للخان من بين تلك القباب قبابٌ خاصة به ضمّ فيها نساءه ممّن سبّا من الصين ومن التتر ، قد أرخيت على أبوابها وكوّنتها ستائر من المخمرات الدقيقة الصنع الجميلة الزخرفة .

وهكذا جعل الخانُ من هذه المدينة الناشئة عاصمةً لامبراطوريته ، وقد بقيت كذلك حتى عهد حفيده « قوبلاى خان » الذى وُلد بها . وفى أيامه تبدلت حالها من ضعة إلى رفعة ومن حقارة إلى مجد . أفادت ذلك من خبرة هؤلاء الرجال الذين كان « جنكيز خان » قد ولاهم شئون الامبراطورية من « الأويغور » و « الصينيين » . فلقد استحدث هؤلاء دوراً خاصة بالحكومة ، وأنشئوا لها السجلات وأقاموا لها الموظفين ، واصطنعوا نظاماً حكومياً بالغ الدقة ، وهيئوا للخان خاتماً يمضى به أوامره ، وكان يطبع به كل شىء حتى خيوله .

وكانت عادة « جنكيز خان » أن يُقيم فى كل بلد يفتحه رجلاً من

رجالها المخلصين له ليكون عونًا للحاكم الذى يختاره له من رجاله .
وإفساحًا منه للحكام فى أن يحكموا ، لهم ما له من عقاب وعفو ، كان
يهب لكل منهم ما كان يُسمّيه بقرص النمر الذى يخوّل للحاكم الذى
يهدى إليه العفو عن المجرمين مهما بلغ جرمهم . وكان يريد بذلك أن
يؤلف الناس حول ولاته ، وأن يتيح لولاته أن يملكوا رقاب الناس ،
فنزل لهم عن شىء كان له وحده ليخفف عن الناس ويملك قلوبهم
ويجمعهم على حب حكّامه ، فيريح ويستريح .

وانفسحت الحياة لـ « قره قرم » فعمرت بالأسواق التجارية ، ووفد
إليها الزوار من كل حدب وصوب ، وانتعشت فيها الحياة الأدبية ،
وأصبح للشعراء فيها أحياء ، كما أقيمت فيها المساجد إلى جوار معابد
البوذيين وكنائس المسيحيين النساطرة ، إذ كانت حرية العبادة مكفولة
للجميع حسبما مرّ بنا فى « الياسة » .

وفى الحق لقد كان الامبراطور رجلاً يدين بالوحدانية ، يدين بالقوة
المطلقة التى تسخر السحاب والرعد والهواء ، وعلى الرغم من أن شعبه
كان يغالى فيدّعى أنه من سلالة الآلهة وهى التى تنصره وتؤيده ، فما
نعلم أن « جنكيز خان » استمع يوماً إلى ما يقوله الشعب أو آمن به ،
فلقد كان يقول إن فى السماء قوة هى قوة الشمس ، وإن على الأرض
لقوة هى قوة الخان . وسرى فيما بعد كيف سمّاه المسلمون لما أكثر فيهم
القتل - « نقمة الله » ، وكيف كان هو يؤيدهم فى دعواهم ويذكر لهم أنه
سوط الله ونقمته ، سلّطها عليهم ليعذبهم بيده .

وكان لزاماً على أولى الأمر في « قره قرم » أن تكون لهم صلة بالبلاد الأخرى ، وكان لهم نظام قديم بين قبائل « الجوبى » يربط ما بينها أشبه بالنظم التى كانت معروفة فى غيرها من الأمم ، فيستخدمون الرُسل تقطع المسافات على ظهور الجياد ، وكان هذا النظام يسمى « اليام » ، غير أنه لم يكن معروفاً عند « المغول » إلا مع الحرب فتوسّع فيه « جنكيز خان » وجعله وسيلة من وسائل السّلم ، وجعل على كل رأس مرحلة معسكراً قائماً به جملة من الخيل ، وبه نفر من الغلمان لخدمتها ، ثم نفر من الفرسان لحراسة الطريق وحراسة الخيل ؛ وألحق بتلك المعسكرات مخازن للعلف ، ثم جعل إلى جانبها خياماً لإيواء الناس .

ولقد وصف « ماركو بولو » الذى زار « كامبالو » بعد وفاة « جنكيز خان » شيئاً من هذا فقال : « إن الراحلين عن كامبالو » يجدون مُراحاً للخيل على رأس كل خمسة وعشرين ميلاً ، به نُزل أنيق لإقامة المسافرين ، أُثِّت حُجراته بأفخر الأثاث ، ومُدَّت فيه الأسرة المغطاة بالحرير الخالص ، ولو أن ملكاً أُتيح له أن ينزل فيه لأحسّ أنه نزل على مضياف كريم أحسن لقاءه وأعدّ لاستقباله .

وهكذا ربط الخان بين جميع البلاد لتعمير طرق القوافل القديمة ووصلها بعضها ببعض ، ثم مضى « جنكيز خان » فجعل على كل مدينة حاكماً مسئولاً عن أمنها ، مسئولاً عن الطرق المحيطة بها ، مسئولاً عن تعرّف الزائرين والمارين ووجهتهم وأغراضهم وإحصاء ما يدخل إلى البلد من بضائع وما يخرج منها .

وكان لمن يمرّ بتلك المعسكرات التى فى الطرقات الحق فى أن يستبدل بحصانه حصانًا ، إذ كان فى كل مُراح ما يقرب من أربعائة جواد وقد تنقص قليلا ، وأن يتزود منها بما يشاء على شريطة أن يكون حاملا ذلك الجواز الذى يبيح له ذلك ، وهو « قرص الباز » فيما كانوا يسمونه .

أما هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى الخان من السفراء والزوّار فكان يرافقهم ضابط من الضباط ، على أن تتقدمهم كوكبة تؤذن المعسكرات بمقدمهم ، ويمضى الزائرون فى تلك الممرّات الصحراوية قاصدين إلى مدينة الخان ، لاتقع عيونهم إلا على بحار من رمال ، وأراض جرداء لا نبات فيها ولا ماء إلى أن يقربوا من مدينة الخان ، عندها تبدو لهم القباب وتقع عيونهم على قطعان الماشية والمركبات المتراصة فوق السهل المنبسط .

وما إن يبلغ الزائر هذا من طريقه حتى يُسلمه مرافقه إلى آخر ، يمرّ به هذا الرفيق الجديد بين شُعلتين من نار قبل أن يدخل به إلى المدينة . يفعل هذا « المغول » بزائريهم ، معتقدين أن من حمل منهم روحًا شريرةً أحرقت النار ، فإن لم يحمل تلك الروح الشريرة مرّ بسلام .

* * *

وحين يخرج الزائر من تلك المشاق يجد نفسه فى ظل مأوى مُعدّ لاستقباله ، فيه ما شاء من طعام وشراب ، وبعد أن يأخذ محطّه من الراحة يمضى ليُمثّل بين يدي الخان فى سرادقه الفاخر .

وهكذا أمّن الخان الطرق من الغرب إلى الشرق ، ومن الشرق إلى الغرب ، فعبّرها التجار آمنين ، يأخذون حظهم من راحة ويتزودون بما شاءوا لهم ولخيلهم . وأقام هؤلاء التجار حراساً يصحبونهم ويحفظونهم ، وكانوا يسمون « القراقجية » . فكان نظاماً بلغ من الدقة والروعة حدّاً يعجز الوصف عنه . وهكذا اتصل تجار الغرب « بالمغول » فنقلوا إليهم مع بضائعهم الحديد عن بلادهم ، كما استطاع « المغول » أن يجلبوا إلى بلادهم عبر تلك الطرق ما كانوا يرغبون فيه .

كما أن تلك الطرق حققت للامبراطور أن تصله الأنباء من إقليم يبعد عنه مسيرة عشرة أيام في يوم وليلة ، فلقد كان الفرسان الذين يعملون على ظهر هذا الطريق يقطعون ما بين مائتين وخمسين ميلاً في النهار وقريباً منها بالليل ، إذ كان على الفارس ألا يمضي بالسرعة نفسها ليلاً . فلقد كان مضطراً للاستعانة بحمّلة المشاعل . وكان الرسول يشدّ وسطه بمنطقة عريضة تتدلّى منها النواقيس فيُسمع صوته من بعيد ، وتتهيا لاستقباله المحطة التالية فتعدّ له الجواد المراح دون تلبّث طويل ، وكان مع كل فارس قرص عليه رسم طائر السنقر ، دليلاً على أنه موفدٌ في مهمة سريعة . وكان له الحق إذا ما كبا جواده أو عثر أن يأخذ أى جواد يجد دون نظر إلى صاحبه .

ولبثت تلك الطرق تزيد وتمتد ، كلما زادت فتوحات الغازی . وامتدّت ، حتى إذا ما وصل الخان إلى « فارس » وبلاد « الكرج » اصطنع طريقين بريّين عبّرا القارة الآسيوية ، أولهما من البحر الأسود

مخترقاً شمال «تركستان» إلى صحراء «الجوبى» ومنها إلى الصين ،
وثانيهما يمرُّ بمدينة «خوتان» في جنوب «تركستان» يخرق «الثبت»
ومنها إلى «الصين» ، وقد فقدت تلك الطرق البرية ما لها من أهمية
خلال الحروب المغولية في غرب آسيا ، فلم تكن الطرق مأمونة بين
الغرب والشرق ، وكان الاعتماد عندها على الطريق البحري من
«هرمز» إلى الهند ، ومنها إلى الشرق الأقصى .

وما من شك في أن التجار المسلمين كان لهم فضلٌ في إنعاش الفكر
المغولى ، وهم ينقلون التجارة من غرب آسيا إليهم ، فلقد نقلوا إليهم
حديث المدن الأخرى ، ووصفوا لهم عجائب الرحلات وغرائب
الأسفار ، وتركوا بين أيديهم مع بضاعتهم من أسلحة وحلى وعاج ،
الكثير من القصص المثير الذى فعل في النفوس ما تفعله قصص « ألف
ليلة وليلة » . وهكذا قرّبت تلك الطرق بين تجار الفرس والعرب
والأتراك وبين المغول يتبادلون التجارة ويتبادلون الأفكار ، وأصبحت
« قره قرم » أشبه بخليّة من النحل ، زحمة ناس ، ودقة نظام ، وكانت
منار الامبراطورية قانوناً ونظاماً ، ثم منبع النشاط ومصدره .

* * *

وكان من بين من وقع للخان من الرجال فاستعان به وولاه أكثر
شئونه رجل من الصين كان من بين أمراء « لياو يانج » وكان من بين
الأسرى الذين بعث بهم « موهولى » إلى الخان ، هو « يى لوتشوساى »
الذى خدم أسرة « الكين » . وكان رجلاً نحيلاً طويلاً كثَّ اللحية

عميق الصوت كبير العقل ؛ تحدث إليه الخان فارتاح إلى كلامه وسرَّ برأيه فاصطفاه وولَّاه الصق الأمور به وجعله من رجال دولته المختارين . وقد أخلص هذا الرجل للخان كما أخلص لوطنه الأول «الصين» ، غير أن ضباط المغول لم يَرُقُّهم رأى هذا الحكيم ولا تفكيره ، فلقد كان على حظ من التدبُّر وكانوا على حظ من الطيش ؛ وكان ذا حكمة ورأى وكانوا قومًا أميين جُفَاء غلاظًا . وبكم سخروا من هذا الحكيم وهزئوا به في حضرة الامبراطور . وحدث أن تحدث رجل منهم إلى الامبراطور قائلاً : « أى نفع لنا مع رجل لا غناء عنده في معمة القتال ، وهو لا يعرف غير الكتاب ! » ؛ وهو يقصد هذا الحكيم . فأجابه هذا الحكيم قائلاً : « وهل أنسييت أن الدولة في الحرب والسلم إنما يدبُّ أمرها الكتاب ؟ » .

وما شغل « يى لوتشوساى » بالناس وما صرفته سُخْرِيَتِهِمْ به بل مضى يجمع ويدرس . يرصد الأفلاك ، وينظر في الأعشاب يعرف ما فيها من نفع طبى ، ويصف البلدان ، حتى إذا ما فارق دُنْيَاه ظَنَّهُ «المغول» قد أثرى وأفحش في الإثراء ، فإذا هم لا يقعون عنده إلا على كتب وأعشاب وأوراق .

* * *

وفي « قره قزم » استتبَّت أقدام أسرة الخان فنمت وانتشرت ؛ وامتلات الخيام بنساء الخان وأبنائه وبناته ، غير أنه لم يأنس إلا إلى أولاده من زوجه « بورتاى » فتعهدهم وأسلمهم إلى محاربين متميزين

ليلقنوا عنهم فنون الحرب ، وكان كثيراً ما يخلو إليهم فيزوّدهم
بنصائحه .

فولده « جوشى » وهو أكبر أبنائه من زوجه « بورتاي » على الرغم
من الشك في صحة نسبة إليه ، شَبَّ في ظلِّ رعايته وكان من نسله
« باتو » مؤسس الجيش الذهبى الذى سحق « الروس » ووصل إلى
« بولندا » . ثم « شاطا جاي » الذى امتاز بالعقل والفتنة والرزانة ،
وقد ولّاه أبوه إمارة القانون والعقار ، وكان من نسله « بابور » أول
امبراطور مغولى فى الهند . ثم « أجوتاي » رجل المشورة الذى جمع بين
عقل الحكيم وقلب المقاتل . ثم كان أصغرهم « تولى » الذى كان أثيراً
على قلب الخان ، ولقّبه أمير الجيوش وكان يصحبه دوماً . ومن نسل
« تولى » « قوبلاى خان » الذى رآه جده يوماً ، فقال : « استمعوا إلى ما
يقول هذا الصبى وتدبروا قوله ، فهو لا ينطق إلا عن حكمة » . وحين
حانت منية الخان ، وجلس إليه أولاده ليختار من بينهم مَنْ يخلفه على
العرش لم يكن « جوشى » حاضراً بل كان فى روسيا ، وأرسل مَنْ
ينوب عنه معتذراً بمرضه ، وأحبَّ الخان أن يطمئن من الرسول عن
ابنه فإذا هو يعلم أنه غير مريض فغضب وثار ، وفى ثورته حرم ابنه
« جوشى » من العرش ، وكان صاحبه .

ويعيننا أن نصف لك كيف كان سرُّادق الخان الخاص الذى كان
يستقبل فيه السفراء والزائرين . لقد كان مصنوعاً من اللبد الأبيض
المبطّن بالحرير الموشى ، على مدخله من جهة مائدة ضمّت إلى اللحم

المجفّف واللبن في أوّعيته صنوفاً من الفاكهة ، ومن جهة أخرى منصّة عالية عليها البُسْطُ والوسائد ، قد هيئت لجلوس الخان ، وإلى أسفل منها منصّة أخرى تجلس عليها « بورتاي » أو غيرها من زوجاته وبالقرب من منصّة الخان كان يقف الوزراء ومن بينهم « يى لوتشوساي » ؛ وقريباً منه كان يقف الكاتب يحمل فرشة وقرطاساً مطويّاً مُتهيّئاً لتدوين ما يأمر به الحاكم . وكما كان يفعل حكام الغرب فعل « جنكيز خان » ، فخصّ قائداً من قوّاده ممن يثق بهم أن يحمل كأسه ، وعلى جانبي السرادق تمتد منصّات جُعِلت للنبلاء ، كانوا يجلسون عليها صامتين في حُلّاتهم الطويلة ، وقد تمنطقوا بأحزمة عريضة رُصّعت بالجواهر ، وعلى رؤوسهم القلانس المصنوعة من اللباد الأبيض ، ومن خلف الأمراء والنبلاء يجلس الطارخانات ، وقد لووا سيقانهم تحت أفخاذهم ، وجعلوا أكفّهم المُثخنة بالجراح فوق أفخاذهم ، ومن خلفهم يقف قادة الفرق الحربية يحملون أعلامهم .

في هذا السرادق يجتمعون ، وعلى هذا النحو يجلسون ، يعرض عليهم الخان ما يريد من أمر ، يأخذون ويُعطون في صوت هادئ خفيض ، حتى إذا ما نطق الخان كان قوله الفصل فاستمعوا له مستجيبين .



مخطوطة جامع التواريخ . جنكيز خان جالسا على عرشه ومن حوله حاشيته
دار الكتب القومية بباريس . هراة . من العصر التيموزى (١٤٢٥) .

نحو الغرب

ولقد مرّ بنا ما فعل « جنكيز خان » بقباثل « النايان » قبل خروجه لغزو « الصين » ، وكيف شتّت شملهم وأباد جمعهم ، وكيف فرّ زعمائهم أمامه وتفرقوا في البلاد . وكُتِبَ لزعيم من هؤلاء الزعماء هو « كشلو خان » أن يأوى إلى بلاد « الخطاي » السوداء وأن يُفسح له خان « الخطاي » في جواره . وتمضى الأيام فإذا « كشلو » قد اجتمع له نفر من مؤيديه ، وإذا هو قد استمال إليه قباثل ، وإذا هو خانٌ على هؤلاء وهؤلاء . وما إن استقامت له الحال وثبتَ سلطانه حتى مدّ يده إلى « علاء الدين » خان « خوارزم » يحالفه ، وكانت « خوارزم » تقع إلى الغرب من بلاد « الخطاي » .

ما رعى « كشلو » ما أسدى إليه خان « الخطاي » من معروف ولا ما لقيه به من ترحيب ، وحين قوى عوده كان أول الخارجين عليه الساعين إلى حربه ؛ وكان الظن به غير هذا ، وكان الظن بهذا الحلف الذى تمّ له مع ملك « خوارزم » أن يكون نواة للثأر من نكل به وأذاقه مرّ العذاب وشتّت شمل آله ، ألا وهو « جنكيز خان » . ولكنه كان حلفاً أريد به النيل من خان « الخطاي » ليمهّد به السبيل أمامه كي يحكم

بلاد « الخطاي » السوداء ، ويكون له السلطان الكامل عليها .
وأحسن « غور » خان « الخطاي » بغدر صديقه فسعى هو الآخر
سعيه يُفسد عليه ما دبّر . فأرسل يطلب إلى « علاء الدين » خان «
خوارزم » أن ينقض يده من حلفه مع « كشلو » وأن ينضم إليه ليكونا
معاً حرباً على « كشلو » . وكان خان « خوارزم » مائلاً أن يأمن
جانب الاثنين ، وألاً يُقحم نفسه في شر ، وألاً يعرض جيشه لعطب .
من أجل ذلك لم ينقض يده من حلف « كشلو » ولكنه مدّها ليحالف
خان « الخطاي » . يريد بذلك أن يكون مع هذا ومع ذاك ، حتى إذا ما
ثارت الحرب بينهما تربص بهما يرقب ما سيكون ، فإذا ما رجحت كفة
كفة انحاز إلى الكفة الراجحة ، فيكون بذلك قد آمن الشر الذي أراد
أن يأمنه وحقق لنفسه شيئاً من غنم ، إن كان ثمة غنم .
وكان ما قد قدره « علاء الدين » ، فلقد وقعت الحرب بين الخائنين ،
خان « الخطاي » السوداء و « كشلو » ، وحين تمكن « كشلو » من
هزيمة جيوش « الخطاي » السوداء أو كاد انضم إليه « علاء الدين »
يتعجل النصر ، ويتعجل القضاء على جيوش « الخطاي »
السوداء . وانتهت المعركة بانتصار « كشلو » وقهر « غور » خان
« الخطاي » السوداء . وبذلك انفسح المجال أمام « كشلو » ليعلو عرش
« الخطاي » السوداء ويصبح ملكاً عليها ، يحكم تلك الرقعة الواسعة
التي تُتأخم أرض خصمه القديم « جنكيز خان » من الشرق ، وأرض
« علاء الدين » من الغرب .

والنصر يُغرى بنصر ، والناس - إلا القليل منهم - إن ملكوا ذكروا أحقادهم القديمة فتهيئوا للانتقام . وكان « كشلو » تنطوى نفسه على حقد قديم لـ « جنكيز خان » ، ولقد أصبح قويا ذا سلطان يملك أن ينتقم ، ويملك أن يفعل شيئا يرضى نفسه الحاقدة ؛ وهما هو ذا يقف لخصمه وجها لوجه ، ليس بعيدا عنه فيفوت عليه النبل منه ، ولكنه قريب منه يغريه هذا القرب بأن يفعل شيئا . وهكذا راح « كشلو » يؤلب على « جنكيز خان » قبائل « المركيت » التى لم تكن قلوبها معه ، تظهر له غير ما تضر ، يضمها إليه الخوف منه ، وتودّ لو هان فخرجت عليه ؛ لذلك كانت استجابتهم لـ « كشلو » هينة ، طمعا منهم فى أن ينالوا بها ما يصبون إليه .

وما وقف « كشلو » عند هذه فإذا هو يأسر خان « المالك » ويدبحه ، وقبيلة « المالك » من القبائل التى تحت سلطان « المغول » والاعتداء عليهم اعتداء على المغول . ثم مضى يثير على « المغول » قبائل أخرى غير قبيلة « المركيت » ممن يظن بهم ضعفا ، وممن يظن بهم خوفا ، وممن يراهم بمنأى عن نفوذ « جنكيز خان » ، وكان من بين تلك القبائل قبائل « الأويجور » .

وانتهى إلى « جنكيز خان » فى « قره قوم » ما كان من « كشلو » ، فأعدّ لذلك جيشه وخرج ذلك الجيش ليلقى « كشلو » . وطالعت جيوش « جنكيز خان » جيوش « كشلو » ، ولكنها لم تشأ أن تدهمها فى أرضها فتمكّن لها الاحتباء بمواقعها المنيعة ، وتمكّن لها من الانتفاع

بإمداداتها التى بين يديها ، بل لقد احتالت عليها ليخرج بها عن أرضها وعن إمداداتها ، فانسحبت أمامها تجرُّها وراءها ، حتى إذا ما أبعدت بها بعيداً عن أرضها كرّرت عليها كربةً عنيفة ، تُعمل فيها الحراب وتُعمل فيها السيوف حتى أفنتها عن آخرها . غير أن « كشلو » استطاع أن ينجو واستطاع أن يفرّ . وما كان همُّ « جنكيز خان » أن ينال من الجند ولكن كان همُّه أن ينال من « كشلو » وأن يظفر به . من أجل ذلك أرسل قائده « شيبه نويون » فى إثر « كشلو » الفار يريد حياً أو ميتاً .

ومن قبل هذه فرَّ « كشلو » عن أهله وبلده واستطاع أن يجمع الناس حوله ، وأن يكون ذا دولة ، والظروف التى قد هيأت له هذا من قبل قد تهيئت له اليوم ، ولن يعدم « كشلو » مُعيناً ما دامت قلوب نفرٍ من الناس معه . وما بقاؤه مختفياً بين العشائر بالأمر اليسير عليه ولا بالعسير على تلك العشائر ، وليس باليسير على « شيبه نويون » أن يجده إذا أخفاه الناس ، وما هى بالحرب فيواجه « شيبه نويون » خصمه ويدبر للقضاء عليه ، ولكنها شىء آخر أشقُّ من الحرب تتطلب من « شيبه نويون » الدخول إلى البيوت والنفوذ إلى العشائر ، وليس هذا بالهين إن لم يجد من الناس العون الصادق عليه ، وأنّى له بهذا العون الصادق .

ولكن شيئاً وقع مهد السبيل أمام « شيبه نويون » إلى ما يريد . لقد كان « كشلو » بوذياً وكانت زوجته مسيحية . وكان « كشلو » يجد في نشر البوذية والتمكين لها ، على حين كانت زوجته تجد في نشر المسيحية

والتمكين لها ، لا ينجو من ذلك مسلم أو غير مسلم ، فضاق الناس بأمر كشلو وبأمر زوجه ، وليس شيء كالمساس بالدين والمساس بالعقيدة يؤذى النفوس وتضيق به . وأحسن « شيبه نويون » ما يعانى الناس من ضيق وما هم فيه من حرج ، وكان كمولاه « جنكيز خان » يؤمن بالحرية الدينية ويرى غيرها نُكراً ومحنة تُشيع الفوضى وتُبلبل العقول وتزلزل الحكم على الحاكم . وهو يحب كمولاه أن يرى الرعية آمنة فيسهل عليه قيادها ، وأن يراها وادعة فتنتظم له شئونها . من أجل ذلك أتاح لها حريتها الدينية ، فاجتمعت عليه القلوب وانصرفت عن « كشلو » ترى أنها لو أيدته أيدت ما يُرهقهم به ، وما هى براضية عنه فانقلب المخفون لـ « كشلو » عيوناً على « كشلو » ؛ وإذا هو فى يوم وليلة أسير ، وإذا هو قد وقع فى قبضة « شيبه نويون » . وما كاد « شيبه نويون » يقع عليه حتى قتله وأرسل برأسه إلى « جنكيز خان » فى موكب حافل قوامه ألف فارس على جياذ من طراز واحد ، كل جواد منها ذو أنف أبيض . وهكذا أصبحت « الخطاى » السوداء فى حوزة « المغول » .

* * *

وما نسى « جنكيز خان » لمن خرج عليه من القبائل خروجهم ، فبعث بالجيش إلى مَنْ خرج منهم ليرده إلى حوزته . وكان من بين هذه القبائل مَنْ خرج عن خوف فرجع إليه عن خوف فلم يلق كيداً ، ومنهم من خرج عن ضعف فانصاع إليه عن رضى لم ينل أذى ، ولكن

كانت ثمة قبائل خرجت وهى تقصد إلى هذا الخروج ، وهى قبائل «المركىت» فأرسل إليهم «جنكيز خان» قائده «سابوتاي» على رأس جيش كبير لتأديبهم . وخرج «سابوتاي» فى عشر آلاف من الفرسان إلى «المركىت» ، وما كان «المركىت» ، يقوون لجيش «سابوتاي» ، ولا يستطيعون عن أنفسهم دفعاً ، وما كان لهم ماض طيب يردون به عن أنفسهم شر الانتقام . من أجل ذلك ذاقوا بلاء شديداً ، وذاقوا ويلاً كبيراً ، ولقنوا درساً لم ينسوه .

وحين تمّ للمغول حكم «الخطاي» السوداء أصبح لهم ولاء القبائل التركية البربرية التى تنزل الهضاب ما بين التبت وسهول روسيا ، وانضم رجالها إلى جيش المغول فازداد بهم عدداً وقوة ، وغدا «المغول» وفى يدهم توازن القوى فى آسيا .

* * *

ومضى رجال «جنكيز خان» يلقنون الناس شريعتهم التى تمليها «الياسة» ليجمعوهم معهم على رأى واحد ولون واحد واتجاه واحد ، لايتون ولا يفرطون حتى لا يصبح الناس أشتاتاً تفرق بينهم الأهواء وتفرق بينهم القوانين . واستتب الأمر للامبراطورية المغولية الفتية التى تمتد حدودها إلى حدود الامبراطورية الخوارزمية الناشئة ، جوار كان لا بدّ معه من صدام ، فلكل من الدولتين آمال ، ولكل من الدولتين أطماع ، ولا بدّ لإحدهما من أن تملى على الأخرى .

ولكننا قبل أن نسوق لك ما وقع بين هاتين الدولتين نعود بك إلى الوراء قليلاً لنُحدِّثك حديث « خوارزم شاه » ، وكيف أُتيح له أن ينشئ إمبراطوريته في الغرب من آسيا ، وما كان يطمع فيه من بسط سلطانه على ربوع آسيا من الشرق إلى الغرب .

لقد تعرضت الدولة العباسية في أيامها الأخيرة لمحنة من المحن القاسية التي فتّت في عضدّها ثم ذهبت بريحها فيما بعد . فلقد كانت الصلة بين الولاة والخلفاء صلةً تكاد أن تكون مقطوعة . كان الخلفاء لاهين منغمسين في ترفهم وملذّاتهم ، حسبهم من الولاة ما يرسلون به من مال كانوا يهودون به أول الأمر ليشتروا رضى الخليفة ، وإن أنس واحد منهم في نفسه القوة بعد ذلك منع عن الخليفة ما كان يرسله واستقلّ بالأمر دونه . وقد يرسل إليه الخليفة الجيش لتأديبه وقد ينال الخلفه منه ، ولكن إلى حين ، إذ سرعان ما كانت تؤول الولاية إلى غيره ممن هو على شاكلته فينهج بهج سلفه ، يغريه انشغال الخليفة عنه ، ويغريه ضعفه عن أن يهبّ لحربه . وهكذا عاشت الدولة العباسية في حروب داخلية مستمرة مستعرة ، لا أمن ولا طمأنينة ، مشغولة بتلك الحزّازات وتلك الانقسامات وتلك الحروب الداخلية عن أن تهيبّ لنفسها وعن أن تمكّن لسلطانها ، أضعف ما تكون عن أن تواجه حرباً خارجية ، وعن أن تستعد لفتح جديد . فكان للخليفة من الخلافة اسمها لا يحمل غيره .

وتتابعت دويلات تحكم باسمها مستقلة عن الدولة العباسية ، كان

منها الدولة السلجوقية ، وحين انحلت تلك الدولة نشأت على أنقاضها دويلات أخرى ، أولاها بالذكر الدولة الخوارزمية التي تضرب إلى أصل تركى . أسس تلك الدولة الخوارزمية « بوشتكين » ، وكان أول أمره حاكماً للسلاجقة على هذا الإقليم ، يحمل لقب خوارزم شاه لقبه به سلطان « السلاجقة » وحين أنس في نفسه القوة وأنس في سادته الضعف ، خرج عليهم مع الخارجين ، شأنه شأن ولادة ذلك العهد .

وما خلاص ذلك الملك لـ « بوشتكين » هيناً سهلاً ، بل لقد كان له خصوم وأعداء ، وكان على رأس هؤلاء الخصوم والأعداء الدولة السلجوقية نفسها على الرغم مما كانت تعاني من ضعف وانحلال ، ولقد مكّن هذا الضعف لـ « بوشتكين » من أن يطمع في أن يستقل بولايته أولاً ، ومكّن له هذا الضعف أيضاً من أن يحالف « الخطاي » السوداء للقضاء على تلك الدولة السلجوقية المحتضرة .

ويؤول أمر « خوارزم » إلى « تكش » فتكون له مع « الخطاي » السوداء حروب يخرج منها عام ١١٩٧ وقد استولى على « بخارى » . ويرث الملك من بعد « تكش » ابنه « علاء الدين محمد » ، الذى مرّبنا شىء عنه . فلقد عرفنا كيف أعان علاء الدين « كشلو » على « الخطاي » السوداء ، وكيف تمّ لـ « كشلو » الاستئثار بالملك ، ثم قتله على يدي « شيبه نويون » .

وكان هناك فرق بين سياسة الأب وسياسة الابن ، فكان الأب يرى

التحالف مع الدولة الغورية * وممالة الخلافة العباسية ، وكان الابن لا يرى هذا ولا ذاك . ولكن الأب قبل هذا كان قد كفى ابنه شراً كبيراً . ففي أيامه كانت للإسماعيلية ثورة بزعامة رجلهم « حسن الصباح » . ففضى الأب « تكش » على تلك الثورة ، وحاصر قلعة الإسماعيلية المنيعه ، وأرغم الإسماعيليين على الخضوع له وأن يدفعوا له مائة ألف دينار .

ولكن الابن « علاء الدين » قد ورث عن أبيه عبئاً ثقيلاً وتركه محوطة بالمصاعب ، فلقد كانت الدولة تسودها الفوضى الداخلية ، والدولة الغورية على الحدود تناوئها وتثير القلاقل من حولها ، والخلافة العباسية تسعى سعيها لتقضى على تلك الدولة الناشئة . فما هى إلا أيام حتى هبَّ « شهاب الدين » الملك الغورى فضم إقليم « خراسان » إلى ملكه ، ولكن « علاء الدين » سرعان ما أعدَّ جيشه وشنَّ الحرب على « شهاب الدين » ، فأستردَّ « خراسان » ، وأمعن في أملاك الدولة الغورية فضمَّ إليه مدينتي « بلخ » و« هراة » ثم إقليمي « كرمان » و« مكران » . ومضى في غزوه إلى ساحل المحيط الهندي وإلى الأقاليم التي تقع إلى غرب « السند » ، وإذا هو يشرف على مدينة « غزنة » حاضرة الدولة الغورية ويحاصرها ، ولا تمكث المدينة طويلا حتى تقع

* سلالة إسلامية خلفت الغزنويين انتسبت إلى بلاد غور في أفغانستان غلبتها سلالة خوارزم شاه .

في يديه عام ١٢١٥ ، ثم استمر في فتوحه فضم إليه كابل .
وتقع في يد « علاء الدين » كتب كان الخليفة العباسي الناصر قد
بعث بها إلى حكام الدولة الغورية يثيرهم إلى الاتحاد مع « الخطاي »
السوداء ليكونوا حرباً على « علاء الدين » ، فحرك هذا في نفسه رغبته
القديمة في الاستيلاء على « بغداد » ومضى يشق طريقه إليها مستولياً
على « فارس » و « أذربيجان » و « العراق العجمي » ولكنه ما كان يبلغ
« بغداد » حتى ثارت الطبيعة وأرغمته على أن يعود أدراجه .

كان هذا هو غاية ما وصلت إليه امبراطورية « خوارزم » ، فقد
كانت حدودها تمتد من « العراق العجمي » غرباً إلى حدود الهند شرقاً ،
ومن شمالى بحرى « قزوين » و « آرا » شمالاً إلى الخليج الفارسي
والمحيط الهندي جنوباً .

وفي تلك الرقعة الفسيحة كُتب للعلم والفكر الإسلامى أن ينبثق
ويشيع ، وكُتب للمدنية والحضارة أن تزدهر وتتألق فتلفت إليها العالم
كله . لقد خضع لسلطان « خوارزم » كل من حولها ، وكُتبت لها
السيادة في ذلك المكان من غرب آسيا . وكان يسيراً على « خوارزم »
فتح « بغداد » ودخول العالم الإسلامى بأسره تحت رايتها ، لولا أن
الطبيعة قَسَتْ على تلك الجيوش الفاتحة فردتها عن أبواب « بغداد »
متعثرة .

* * *

ولو أتيح لنا أن نوازن بين امبراطورية وامبراطورية ؛ بين امبراطورية الخان المغولى الوثنى وبين امبراطورية الشاه الخوارزمى المسلم ، لوجدنا الأمر يتباين جلياً فى نظمهم السياسية وأساليبهم الحربية ومكونات شعوبهم .

فلقد أقام الخان المغولى امبراطوريته العظيمة فى الشرق معتمداً على سلطان الجيش الذى دربه وجهزه ، ثم على « الياسة » التى ضمنها تلك المبادئ العامة والخاصة ، والتى كان لها أثر فى جمع الناس على نظام أو شبه نظام ، ثم على ما كان يتمتع به الخان من بطش وجبروت وإرادة وعزيمة وحكمة وتدبر . فى ظل هذه القوى الثلاث - الجيش و« الياسة » والامبراطور - عاشت تلك الدولة المغولية ، ترهب ذلك الجيش فتتصاع خائفة وجللة ، وتنظر إلى تلك القوانين والمبادئ التى تضمنتها « الياسة » وتضمنت معها العقوبات المفروضة الصارمة على كل من يخالف أمرها ، فتلتزم تلك المبادئ وتلك التعاليم لا تحيد عنها ولا تفكر فى الخروج عليها ، ثم تتطلع إلى الامبراطور فى عزمه وحزمه ودهائه ثم آماله وأمانيه ، فترهبه لشىء وترغب فيه لشىء ؛ ترهبه لهذا العزم وذلك الحزم وذلك الدهاء ، وترغب فيه لما يمتلى به قلبه من آمال لأمته وأمانى لبني جلدته .

وعلى قدر ما أعطى « جنكيز خان » لجيشه أفاد منه ، فلقد نظمه فأحسن تنظيمه ، وأخذ بالتدريب القاسى ، يخرج به كل عام مع الصيف إلى الفيا فى سير طويل مضمن على طرق غير مستوية بين

منخفضات ومرتفعات يقضون فترة طويلة في تدريبات عنيفة شديدة .
وألزمه بالطاعة لا يخرج أحدهم على أمره ، وأجزل له العطاء وأباح له
ما يسلب وما ينهب . عاش أكثر ما عاش هذا الجيش في البرارى بين
الحيوان المفترس في صراع دائم ، فقّست طبيعة النفوس وغلظت
الأكباد وتوحّشت الغرائز . ولم يعيش هذا الجيش وراء الأسوار
والجدران فترقّ طبيعته وتلين أكباده وتلطف غرائزه .

وهكذا خلق « جنكيز خان » جيشاً يلقي الرعب في القلوب ،
ويبعث الفزع في النفوس ، حيثما حلّ حمل على جناحيه النّعمة ، وحيثما
نزل نزل البطش والدمار . هال الناس حديثُ هذا الجيش فظنّوا قوّته
في كثرة عدده ، وأطلقوا الأعنة لخيالهم فجعلوه عدد الحصى والرمال .
وما ملكَ « جنكيز خان » غير مائتين وخمسين ألفاً من الفرسان ؛ فعل
بهم ما فعل ، فيما بين الصين والدينير ، من عجب عجيب .

وما كان « جنكيز خان » يستطيع أن يجنّد من أمة « الجوبى » ، التى لم
يزد عددها عن المليون والنصف ، جيشاً يضم أكثر مما ضمّ ممن بهم قوة
على حمل السلاح وجلّد على خوض غمار الحرب . ولو كان يملك هذا
العدد الكبير كما خال المتخيّلون ما وكل إلى الصبيان أن يقوموا برعاية
الحيل على محطات الطرق ، وما ألزم غيرهم من الصبيان ممن شبّوا قليلاً
أن يشاركوا في القتال . فهذا وذاك يدلّك على أن جيش الخان لم يبلغ
هذا العدد الذى تخيّل المتخيّلون ، وأنه لم يكن بين يديه من يكفى
لتكوين مثل هذا الجيش الكبير .

ولكن « جنكيز خان » جعل من هذا الجيش القليل جيشاً يبدو كبيراً بتنظيمه له في فرق تنتشر هنا وهناك ، تملأ الأرض فتتراءى وكأنها جمٌّ غفير ، فجعل منه فرقة للحرس الامبراطورى قوامها عشرة آلاف فارس ، وجعل في القلب فرقة قوامها مائة ألف وجعل ابنه « تولى » رئيساً عليها ، وجعل للجيش جناحين ، أيمن وقوامه سبعة وأربعون ألفاً ، وجناحاً أيسر وقوامه اثنان وخمسون ألفاً . وبعد هذا فلقد كانت البقية الباقية من الجيش — وعددها تسعة وعشرون ألفاً — أخلاطاً من مقاتلى « الصين » و « الأويجور » و « المالك » من « الخطاى السوداء » .

ولسوف نرى « جنكيز خان » يضرب الدولة الخوارزمية ، ويضرب غيرها من الدويلات الخاضعة للدولة العباسية ، بجيش كان قوامه دون ما ذكروا بكثير . فنحن نعلم أن « جنكيز خان » كان قد تخطى عمّن في جيشه من « الأويجور » و « المالك » قبل أن يمضى إلى تلك الحروب خوفاً من أن ينقلبوا عليه ، أو أن يضارّوه في حربه بثورة أو عصيان ، أو أن يمالئوا عليه عدوّه فيصبحوا عوناً له عليه .

ومن هنا نستطيع أن نعزو هذا الذى كُتِبَ لقوات « جنكيز خان » من نصر وغلبة إلى تلك الروح العالية ، وإلى ذلك التدريب المتميز ، وإلى تلك المهارة الفائقة ، وإلى تلك الحنكة المكتسبة ؛ إلى هذه الأشياء كلها التى شاعت في الجيش كله جنداً وقادة . لقد كانوا يجيدون حركة الالتفاف « التلوجما » وكان على ذلك اعتمادهم ، يطبقون على العدو فإذا هم قد أخذوه من خلفه . وإذا لم يفلح القائد في الالتفاف بعدوّه

انسحب أمامه يجره وراءه محملاً في البیداء ، فإذا ما اطمأن إلى أن عدوه قد ظن به الضعف وظنه يفرّ ، فأنسى نفسه شيئاً ، انقضّ عليه على حين غفلة وفي سرعة مفاجئة ، فقضى عليه وأباده .

ولا يظن ظانٌ أن هذا كله كان يتم في يسر يسير ، فلقد كان « جنكيز خان » قبل أن يخرج لغزوة ما يجمع إليه « الكورلتاي » ، ويحضر هذا « الكورلتاي » الحكام والنواب والأمراء ، لا يتخلف منهم أحد سواء منهم القاصي والداني . فإذا ما انعقد هذا المجلس أخذ يدرس الأمر من جميع نواحيه ، فيدلى كلُّ برأيه ، والخان من ورائهم جميعاً يعقّب على الرأي ، يدفع رأياً ويأخذ رأياً ، حتى إذا ما أنتهوا إلى شيء ، أنتهوا إليه مدروساً بكل ما يضمن له النجاح ، ثم يؤكّل إلى كلِّ ما يقوم به .

ومن قبل ذلك يستأنس « الكورلتاي » بما أنتهى إليه من أخبار الجواسيس والعيون ، الذين كانوا بين تجار جاسوا خلال أرض العدو يتظاهرون بالبيع والشراء ، وهمّهم تعرّف ما عند الأعداء ، وبين فارّين من أرض العدو ناقمين على حكامه . غير أن « الكورلتاي » كان لا يأخذ بقول هؤلاء وهؤلاء قضية مسلّمة ، بل كان يقلّبه على جميع وجوهه ليعرف صحيحه من زيفه .

وبعد هذا وذاك ، فلقد كان « جنكيز خان » يفيد من حربه لخصمه ، يعرف ما عنده من أساليب في الدفاع والهجوم ، ويعرف ما عنده من حيلة ومكر ، ويعرف ما عنده من سلاح وعتاد . حارب

«جنكيز خان» الصين فأفاد من مناعة حصونها ، ومقاومة جيوشها ، وشاهد ما لهم من مدافع ذات مرمى بعيد ومن حولها من رجال مهرة يرمون بقذائفها ، فضم هذا إلى جيشه ، وجعل من فرقته فرقة للمدفعية قوامها عشرة آلاف من المقاتلين كلهم من الصينيين وعلى رأسهم قائد صيني . سارع « جنكيز خان » بإدخال هذا التنظيم إلى جيشه ، لا يريد أن يمهل نفسه فيفوت التدريب رجاله . وكان إلى تلك الفرقة اختيار أماكن الرمي ، وإعداد المجانيق وإطلاقها . وكانت تلك المجانيق لا تُنقل إلى ميادين الحرب كاملة ، بل كانت تنقل إليها أجزاء لتركب في المواقع المختارة ، حتى إذا ما انتهت الحرب فُكَّت لِتُحمل مجزأة إلى حيث تُخزن .

وكما أفاد الخان من الصين هذه الأشياء عنهم في الحرب ، أفاد غيرها عنهم في السلم . أفاد من علمهم وطبهم ونقل معه في خروجه عنهم جملة من الأطباء ؛ وكان من عادة المغول إذا مرض أحدهم ركز أمام قبتة رحلًا ، فإذا ما رآه الطبيب سعى إلى علاجه ، كما أفاد عنهم نظام الإدارة فجلب موظفين مختصين ليلقنَ عنهم « المغول » .

وحارب جنكيز خان « خوارزم » فأفاد من أسلوبيها في التسليح ، فإذا هو ينشئ فرقته العاصفة التي جعل بعضهم الفضل الأول في إنشائها إلى القادة الألمان في القرن العشرين . فلقد درّج « جنكيز خان » الخيل بالجلد المقوى ، وجعل لكل فارس قوسين ، قوسًا يستخدمها وهو راكب وقوسًا له وهو راجل . وجعل له جُعبتين للسهام تضم

كلتاها أنواعاً ثلاثة من السهام ، منها ما هو للمسافات القريبة ، ومنها ما هو للمسافات البعيدة ، ومنها ما هو للمسافات التي بين بين ، يرجع الفارس إلى الجعبة الثانية حين تنفذ سهام الجعبة الأولى . وكان على رأس كل فارس خوذة من الصلب لها ذيل ممتد على العنق لتحميه . هذا إلى درع قوية مكيئة تحميه سهام الأعداء . وكان كل فارس من فرسان الوحدات الثقيلة مزوداً ببكطة شُدَّت إلى منطقة في وسطه ، وبجبل في طرفه أنشودة لجرّ العربات وآلات الحصار ، وبكيس فيه علف جواده ، وبوعاء يستخدمه الفارس لطعامه ، وبمبرد لسنّ الرماح والسهام . وكان الفارس يضع سلاحه كلّ في قربة مستطيلة تكون لهذا الغرض ولغرض آخر ، فإذا ما اضطرّ لعبور نهر نفخها واتخذها وسيلة للعبور . وبعد هذا فقد كان كل فارس يحمل معه طعاماً للطوارئ من لحم قديد ولبن خائر أو مجفف ، يعوزه قليل من الماء ليعود مع التسخين لبناً سائغاً . وكانت لكل قائد الحرية أثناء القتال ، غير أنه كان ملزماً بالاتصال بالخان عن طريق الرسل أو الإشارات .

هذا هو الخان ، وهذا هو جيشه الذي غزا البلاد الإسلامية ، فهدم حصونها وقتل رجالها وهتك نساءها وقذف الرعب في قلوب أهلها .

* * *

ولنترك الخان وجيشه لنعود إلى « خوارزم » فلقد كانت لما نزل بعدُ فتية حين أتجه المغول إليها غازين . كان النزاع فيها قائماً بين السلطتين الدينية والدينية ، وعمل أهل « خوارزم » على أن يكسبوا الخليفة

العباسى إلى جانبهم ليكسبوا تأييده الدينى فيكسبوا دنياهم ، وكان من حول السلطان وزراء بيدهم تصريف الأمور .

ولما كانت أيام «علاء الدين» ، وكان لا يثق بوزرائه ، أقام مجلساً من كبار رجال الدولة للنظر فى شئونها ، على ألا يقضى فى أمر إلا إذا أجمعوا عليه . ثم جعل لكل غرض ديواناً ؛ فكان للمال ديوان ، وللإنشاء ديوان ، وللجيش ديوان . وكان إلى هذا الديوان الأخير أمر الجيش وإمداده بالسلاح والذخيرة ، وكان هذا شيئاً يفارق به الجيش المغولى الجيش الخوارزمى . وثمة فرق آخر بين الجيشين ، فلقد كان للمغول جيش نظامى ثابت ، على حين لم يكن للخوارزميين جيش نظامى ثابت . غير أن الذى لا شك فيه أن سلاح الجيش الخوارزمى كان يفوق سلاح الجيش المغولى . فلقد كانت سيوفهم طويلة مقوّسة من صلب متين ، وكانت سهامهم أقوى وكذلك أقواسهم . وكانت لهم مجانيق ترمى بالذهب ، وقاذفات للحجارة الثقيلة ، وكانت لهم مهارة وحذق فى استخدام القار والزيت بعد إشعاله . غير أنه لم تكن بين هذه الجيوش الخوارزمية رابطة ، ولم تجتمع على أمل أو هدف ، تتباين فرقها وتختلف طباعها وتتفرق لهجاتها وتتغاير أمزجتها وأهواؤها . من أجل ذلك فقد سلاطين «خوارزم» ثقتهم بجيوشهم ولم يطمئنوا إليها ، فأحاطوا أنفسهم بحرس خاص .

وكان هؤلاء القوم حديثى عهد بالإسلام ، فلم يبلغ الدين أن يؤلف بين قلوبهم وأهوائهم ، وكان كل فرد منهم يغلبه تعصبه لجنسه

على تعصبه لدينه ، فالفارسي يريد أن تكون له الكلمة على العربي ، والتركي يريد أن يذلّ له الفارسي ، والعربي يرى نفسه أولى بسيادة هؤلاء جميعاً . وهكذا تعرضت الدولة لفتن داخلية أفلت الزمام فيها من أيدي الحكام ، ولم يجدوا الجيوش تغنيهم ، فأقاموا الأبراج والقلاع ، وبنّوا قصورهم من وراء تلك الأبراج وهذه القلاع ليكونوا أشدّ أمنًا ، وجعلوا فيها المخازن ومساكن الجنود . وهكذا قنع الخوارزميون بأن يكون لهم جيش دفاع لا جيش هجوم ، على الرغم مما كانت لهذا الجيش من أسلحة مستحدثة ، ولكنهم على هذا لم يستطيعوا أن يصمدوا لهجمات الجيش المغولي المهاجم . ولمعانًا في حرص الخلفاء على أنفسهم جعلوا لأنفسهم قلاعًا مختلفة في مدن مختلفة ، فقلعة في « مرو » ، وقلعة في « سمرقند » وقلعة في « خوارزم » . وتلك الحياة الحربية الوداعة صحبتها حياة للسلم وادعة ، أسرف فيها الخلفاء على أنفسهم وانغمسوا في ترف واسع وغرقوا في مباحج ذات ألوان .

وكان نظام الحكم عند الخوارزميين وراثيًا رعاه الخلفاء قبل « علاء الدين » ، فلما آل إليه جعله لابنه الأصغر « أزلاع شاه » متخطيًا ابنه الأكبر « جلال الدين منكبرتي » تغريه بذلك أم ابنه الأصغر « ترکان خاتون » ، غير أنه عندما أحسّ الموت عاد فأوصى بالخلافة لابنه « جلال الدين » .

ولقد مرّ بنا كيف أقصى « علاء الدين » الوزراء وأقام مكانهم مجلسًا من كبار رجال الدولة . ولك أن تعلم أن « خاتون » زوج « علاء

الدين» كانت تركية وأنها أقحمت في هذا المجلس كثيراً من رجالها الأتراك ، فأفسد هؤلاء الأتراك الحكم على الخوارزميين فاضطربت أحوالهم .

وبهذا مهدت هذه الدولة الفتية الناشئة السبيل إلى زوالها ، ولم يكف يشرف عليها « جنكيز خان » بجيوشه حتى انهارت حصونها أمامه وتمزقت وأصبحت وكأنها لم تكن ، وذلك بما ملكت مع مولدها من أسباب للفناء ومع نشأتها من بذور للهلاك .

مبعث الشرر

لقد رأينا كيف كانت نشأة الدولتين الخوارزمية والمغولية ، كلتاهما اعتمدت على قوتها الحربية تزيد فيها وتهيب لها علها تستطيع يوماً أن تخضع ما حولها وتضم الشعوب المجاورة إليها . وانفسح الطريق أمام «المغول» فضمّوا إليهم «الخطاي» السوداء كما رأيت ، وباتوا بعدها يتأخون الدولة الخوارزمية لا يفصل بينهما شئ . واجهت قوة قوة ، وجاورت دولة فتية طامحة دولة أخرى فتية طامحة ، فكان لا بُد من صدام بين تلك القوتين ، خسر فيه «المغول» شيئاً ، وخسر فيه «الخوارزميون» شيئاً ، وكان لا بُد من أن يجرّ هذا الصدام إلى حرب عاتية تُكتب لإحدهما فيها الغلبة ، ولكن «جنكيز خان» كان في شغل شاغل بحربه مع الصين ، ولم يشأ أن يفتح على نفسه بايين من الحرب ، فمال إلى أن يهادن الدولة الخوارزمية ، وأرسل إلى الشاه رسالة تفيض ودّاً وتفيض أنساً ، يعينني أن أقتطف لك منها شيئاً ، فهي سوف تدلّك على ما كان لخوارزم من شأن ، حسبنا عنه أن أقرّ به خان المغول ، كما تدلنا على خلق المحاربين ونهجهم ، فهم كما يؤمنون بالبطش حين يأمنون العاقبة ، يميلون إلى السلم حين لا يأمنون تلك

العاقبة . على هذا النحو جاءت رسالة الخان إلى الشاه يقول له فيها :
« ما غاب عني ما بلغت من شأن ، وما أدركت من سلطان ، لك الملك
المبسوط ، والحكم النافذ ، تدين به لك أقاليم شتى ، ولقد رأيت
مسالمتك واجبا من بين الواجبات ، إذ أراك بمنزلة أعز أبنائي إلى ، ولا
إخالك تجهل أنى قد ملكت الصين وبسطت سلطاني على ما وراءها من
بلاد الترك ، أذعنت لى قبائلهم ، ودانت لى عشائرهم ، وإنك لتعلم
أنى أملك أرضا تموج بالجنود وبها معدن الفضة ، فإن رأيت أن نصل ما
بين البلدين ونفتح الطريق أمام التجار يختلفون إلى هنا إلى هناك ، عمّ
النفع بلدينا وشاع الغنم » .

وهكذا أعطى « جنكيز خان » للشاه حقه من الإجلال والإكبار
ليستيمله إليه ، لكنه لم يشأ أن يهمل نفسه فأحب أن يدل الشاه على
شأنه ، من أجل ذلك أعطى للشاه صورة صادقة عن قوته وبطشه ،
ليكبره الشاه كما أكبره هو ، وليكون الأمر بينهما ما بين نذ ونذ ، لا ما
بين رجل كبير ورجل صغير . وحمل الخان تلك الرسالة ثلاثة من
التجار المسلمين ، وحملهم معها جملة من الهدايا والعطور ، وشيئا من
سبائك الفضة ، وشيئا من الأحجار الكريمة . وكان وصول الرسل
مع أوبة « علاء الدين » من « بغداد » فاشلا . ولم يكن رجوع « علاء
الدين » من « بغداد » رجوع المنتهزم فيدل ويهون ، ولكنه كان قد رأى
الأمور فى يديه وأباها عليه القدر ، فلم يهِن ولم يذل ، وعاد يحس
إحساس المنتصر ويستشعر شعور المغلوب على أمره ، فيزيده هذا

الشعور الثانى اعتزازاً بنفسه وثورةً على القَدَر الذى حال بينه وبين ما يريد . وإذا ثار الإنسان على القَدَر ملأته هذه الثورة ضيقاً بما حوله وقُتوطاً وهماً . من أجل ذلك ما كادت رسالة « جنكيز خان » تقع فى يد « علاء الدين » حتى نظر إليها بعينى ثورته وغضبه لا بعينى رضاه واطمئنانه ، فرآه شراً ما رآه « جنكيز خان » خيراً ، وعزَّ عليه أن يخاطبه المغولى فيُسَمِّيه ولده ، ورآه لونا من التهديد ما ذكره المغولى من إخضاعه للأتراك ، وما كان « علاء الدين » بعيداً عن الأتراك نسباً وأصلاً .

والتفت « علاء الدين » إلى تاجر من التجار الثلاثة الذين حملوا الرسالة إليه يستوضحه مبلغ ما وصلت إليه قوة « جنكيز خان » وما وصف به نفسه ، فعَلَّ الرجل الذى قضى فى أمره وقضى أن يجارب خصمه فهو يستوثق قبل أن يُقدم . وما كذب التاجر الشاه ولا أراد أن يغرر به ، فلقد وصف الخائن وما يملك ، لم يَغْل ولم يَنْقُص . ولكنه على هذا أحس الغضب فى عينى « علاء الدين » ، وهكذا الملوك مهما كانوا ، وعلى أية حال وُجدوا ، لا يرون فى الدنيا خيراً منهم ، ويُغضبهم أن يسمعوا أن فى الدنيا من هو خير منهم ، لهذا يعيشون - إلا القليل منهم - مخدوعين ، ويموتون مخدوعين ، تصلى أُممهم بخداهم أحياء وأمواتا . وما إن أحس التاجر غضبة « علاء الدين » حتى عدل عن الصدق إلى الكذب ، وعن الحق إلى الباطل ، فهوَّ من شأن المغولى ورفع من شأن الخوارزمى ، تهويناً كاد يذهب فيه بكل ما

للمغول ، ورفعة كادت تجاوز الحد عن الخوارزميين . ولكن «علاء الدين» على هذا لم يكن بالغُرُّ ولم يكن بالغافل ، فلقد أَرْضَى هذا نفسه ولكنه لم يُرض عقله ، ورأى الأمر سوف يُكلفه شيئاً إن هو ترك للغضب أن يملك زمامه ، فأذعن للخان فيما طلب ، وكانت بينهما مُعاهدة تُظل التجارة والتجار بالأمن والطمأنينة ، يَخْدُونَ ويروحون على الطريق بين «خوارزم» وبلاد المغول « في حراسة الحراس .

وعلى حين كانت الأمور تجري صفواً طيبة رخيّة ناعمة بين المغول والمسلمين في «خوارزم» ، كانت تجري عاصفة عاتية عكرة قاسية بين المسلمين في «خوارزم» والمسلمين في «بغداد» . لم يقو الشاه على الخليفة العباسي ، ولم يقو الخليفة العباسي على الشاه ، وكان للشاه أمل في أن يعود فينتصر ، ولم يكن للخليفة أمل في أن يعود فينتصر ، من أجل ذلك لم يفكر الشاه في أن يحالف على الخليفة ، ومن أجل ذلك فكر الخليفة في أن يحالف على الشاه ، وإذا يد الخليفة العباسي تمتد إلى المغولي يريد أن يجعل منه حليفاً على الشاه .

وأخذ الخليفة يدبر لأمره ، فهو لا يستطيع أن يرسل إلى المغولي إلا إذا اجتاز الرسول «خوارزم» ، وما أخوف الخليفة في أن يقع الرسول في يد الشاه ومن أن يفتضح أمره فتفسد عليه خطته ويضيع عليه تدبيره . ولكن الحكام إذا أرادوا لم يَعْيُوا ، وإذا أعملوا فكرهم لم تَفُتْهُمْ الحيلة ، فأرسل الخليفة إلى رجل من رجاله المخلصين له وأعمل الموصي في شعره فأزاله ، ونَحَطَّ على جلد رأسه رسالته ثم ترك شعره لينمو ،

فكسا الشعرُ الرسالة ولم يعد يظهر منها شيء . عند ذلك أرسل الخليفة رسوله إلى الخان ، واخترق الرسول « خوارزم » دون أن تنكشف له حال ، وبلغ الخان آمناً ، وكان هذا الرسول قد ألزم بحفظ الرسالة فحفظها عن ظهر قلب ، وتلاها على الخان ، وكان الخان يشكُّ في أمره فأمر بأن يُحلق شعره فبان له صدقه حين وجد ما خُطَّ على جلدة رأسه هو ما تلاه بلسانه . ولكن الخان لم يُرد أن يستجيب إلى الخليفة ، واكتفى بأن علّم من أمر الخليفة وأمر العالم الإسلامي شيئاً ، فأرجأ انضمامه إلى الخليفة وأرجأ إقحام نفسه في تلك الحرب بين المسلمين إلى حين قدره في نفسه ليدرس ما حوله ، فإذا أقدم أقدم عن بيّنة وخبرة .

ويُقد إلى بلاد الخان ثلاثة من التجار المسلمين يحملون بضاعة ثمينة ، ويعلم علم هذه البضاعة الثمينة الحافظون للطرق ، ويرون أنها بالخان جديرة ، فحملوا التجار ببضاعتهم إليه . ويسأل الخان واحداً من هؤلاء التجار عن ثمن ما في يديه من بضاعة ، فيجيب هذا التاجر ، وقد أنسى شيئين ؛ أنسى أن « المغول » على بصير بالتجارة يكادون يقدرّون الأشياء قدرها لا تختلُّ في تقديرهم الأثمان ، وأنسى أن أبغض شيء إلى الخان أن يساومه إنسان على تجارة . أنسى هذا التاجر هذين وأخذ يغلو في تقدير بضاعته ويفرض لها ثمناً يجاوز الخيال ، فثارت ثورة الخان وأباح بضاعة هذا التاجر لرجاله ينهبوها كما يشاءون ، وأمر فألقى بالرجل في السجن .

ومثل بين يدي الخان زميلاه — أعنى التاجرَين الآخرين — وكان قد

انتهى إليهما ما حلَّ بزميلهما ، ففطنا لأمرهما وعرضا ما يملكان على الخان هدية . والهدايا تفعل في النفوس فعلها ، تعمرها بالأنس ، وتقرب ما بينها ، وتزيل الوحشة بين أصحابها . وهكذا سرَّ الخان بالهدايا . والملوك حين تُؤنسهم بالهدايا تجرُّهم إلى أن يبذلوا أضعافها ، فهم لا يرضون أن يكونوا أصغر من المهددين . وهكذا عوَّض الخان هذين التاجرين أضعافاً مضاعفة عما قدما . فكال لهما من الفضة كيلاً ، ورضى عنهما رضى جَرَّه إلى العفو عن صاحبهما .

وعاش هؤلاء التجار الثلاثة في معسكر المغولى راضين مطمئنين ، حتى إذا حان حين رحيلهم ، أمر الخان قنودى فى الناس بأن يبعث كُل أمير من دولته رجلاً وكل قائد من قواده جندياً ، يحملون جميعاً سلعاً مغولية إلى غرب آسيا ، ليستبدلوا بها غيرها مما يُعرض فى أسواق تلك البلاد . وأرسل مع هؤلاء التجار رسالة إلى « علاء الدين » ، يصف فيها له ما لقى هؤلاء التجار من أمن فى ظل الخان ، ويذكر له أنه أرسل فى معيته رجالاً من عنده ببضاعة مغولية ليحملوا عوضاً عنها إليه بضاعة خوارزمية . وكما بدأ الخان رسالته إلى « علاء الدين » يذكر الأمن الذى لقيه التجار المسلمون ختم رسالته طامعاً فى أن يلقى التجار المغوليون أمناً مثله ، ليتأكد ما بين البلدين من حلف تجارى ، ويقضى على كل ما من شأنه أن يفرِّق بينهما ، أو أن يدع مجالاً للفرقة .

وبلغت القافلة مدينة « أوترار » على نهر « سيحون » وكان قوامها أربعمائه وخمسين رجلاً ومعهم خمسائة جمل . ورأى القافلة أمير المدينة

«ينال» وكان قريباً من أقرباء السلطان «علاء الدين» ، فهاله الأمر وظنها جيشاً غازياً ، وكان يؤكد له ذلك ما رآه في إثرها من جند مسلحين . فخفف يكتب إلى الشاه ما هو فاعل . وسرعان ما ردّ عليه الشاه «علاء الدين» دون أن يتروى ودون أن يتدبر ، يأمره بمصادرة ما معهم وقتلهم جميعاً .

وكأنى بهذا الأمير لم يقل الحق في كتابه إلى الشاه ، وكأنى به لا عهد له بمثل هذه القوافل التجارية ، وكأنى به لا يعلم ما بين الخان والشاه من حلف تجارى ، وكأنى به حين هاله الأمر خرج عن وعيه فوصف غير ما بين يديه . وما أظن «علاء الدين» مهما بلغ به الشطط ، وبلغ به التزق ، وبلغ به الغضب ، يخرج عن حلف معقود دون مبرر ، ويقسو على الناس تلك القسوة دون إعدار أو إنذار .

ولكنى أعود فأقول : لعل «علاء الدين» ، ولعل ذلك الأمير من قبله ، كانا يعلمان ما للخان من سابقات في التجسس ، يستعين فيها بإرسال التجار والجند عيوناً له يسبقوه إلى تلك البلاد التى يريد أن يغزوها ، وما أظن الأمير وما أظن «علاء الدين» غاب عنهما ما فعل الخان فى الصين من قبل من شىء كهذا .

من أجل ذلك اشتطّ الأمير فأنهى إلى الشاه الخبر كما كان على حقيقته ، نافذاً إلى باطنه غير مخدوع بمظاهره . ومن أجل ذلك استشاط الشاه غضباً ، فأنهى إلى الأمير ما أنهى غاضباً ، يرى الحق معه ، ويرى أنه إن أبطأ فى الخلاص من هؤلاء فتح على نفسه باباً من الشر قد لا يستطيع غلقه .

ويبلغ « جنكيز خان » ما فعل الشاه برجاله فيغضب ويهيج ويخلق من الباطل حقًا ، ويجعل من تلك السابقة - التى هو فيها ملوم - حليفه ملوما ، وكأنه قد عزَّ عليه أن يخفق فى وسيلته تلك فيقلق . وكان إذا قلق صعد فى الجبل ونزع عنه قلنسوته وعلق نطاقه فى عنقه ، واتجه إلى خالق السماء ومُرسل السحب والرياح يسأله النصر على عدوه الخوارزمى هذه المرة .

هذا شىء كان يفعله الخان ، وسواء أكان يصدر منه عن زيف أو عن إيمان فقد ملك أن يحرك به قلوب الناس معه ، وقد جربوه من قبل يدعوا إله السماء فيستجيب له إله السماء . ويحكون أن الخان استقر على الجبل ثلاثة أيام لا يبرح ، صامتا لا يتكلم . ويحكون أنه فى الليلة الثالثة رأى فيما يرى النائم شبحا فى جلابب أسود وييمينه عصا يُشير بها إليه وهو يقول : لا تخش شيئا فإنى ناصرك .

وهبَّ الخان من نومه فزعا ، يخالجه شىء من خوف ، ويخالجه شىء من فرح ، واختار رجلا من المسلمين جعله رسوله إلى الشاه ، وأرسل معه رجلين من « المغول » ، وقد حمل ذلك الرسول رسالة إلى « علاء الدين » يقول له فيها :

« لقد تنكّرت لحلفك ، ونقضت ما خطّيت يمينك ، وإنها لكبيرة على الحليف أن يفعلها ، فما بالك إذا كان ذلك الحليف مسلما ، وإن عنك أن تزعم أن ما فعله الأمير « بنال » كان عن غير أمر منك ، فسلم إلينا الأمير تسلم ، وخل بينى وبينه أجْزِه بالذى فعل ، حقنا

للدماء أن تُراق ، وتسكينًا للنفوس أن تثور ، وإلا فأذن بحرب تذهب
بالرخيص والغال وتترك بلادك وما عليها عرضة للسلب والنهب
والخراب .

وكان الأمير « ينال » يمُتُّ بصلة القربى إلى أمّ الشاه « تركان
خاتون » وهى تركية - كما مرّ بك - وكان لها نفوذ يصغر معه نفوذ الشاه ،
وكان الأمر أمرها والنهى نهىها ؛ من أجل ذلك لم يستطع الشاه أن
يُسلم الأمير « ينال » إلى الخان فيخالف أمر أمه ، بل لقد غلا الشاه فقتل
الرسول المسلم ، وأمر بالمغوليين فحلقت لحاهما وشهرا بهما .

ومن فعل هذا كان عليه أن يستعد لحرب ، لهذا ما نفّض الشاه يده
مما فعل برُسل المغولى حتى أخذ يحشد الجيوش ويقيم الحصون ويبنى
الأسوار حول المدن ، ثم جمع إليه رجاله ممن لهم بالحرب خبرة ،
فأخذ يناقشهم ليرَوا معه الرأى النافع والخطة السليمة .

وعاد المغوليّان إلى الخان على حال يُرثى لها ، فحزّ في نفسه ما رأى
من شأنهما ، وقصّ المغوليان على الخان ما كان من أمر الشاه وما رأيا ،
فازداد غضبًا وعزم على أن ينتقم من الشاه ، وألا يدع الشاه يعبث
برجاله وبرُسله هذا العبث المهين . وكما عودنا الخان أن يفعل ، سبق
فبعث عيونَه والكاشفين يسبقون الجنود ويجوسون خلال الجبال ،
يتعرفون الطرق ويتحسّسون الأخبار .

وأحسّ الشاه ما بدأ به الخان ، فأرسل هو الآخر عيونَه يتعرفون
أخبار جيوش « المغول » . وهكذا سبقت الحرب نُذرها وبدت في

الأفق رُعودها ، ولم يبق إلا أن ينشب القتال وترأق الدماء ويأخذ
الرجال بأعناق الرجال ، حتى تُكتب لأحدهما الغلبة على الآخر .
ومن هنا جرّت حادثة « أوترار » على المسلمين الخطوب الفادحة
والكوارث البالغة ، حتى لقد قيل : « لقد ضحى المسلمون عن كل
قطرة من دماء أولئك « المغول » بسيل من الدماء ، وتقاضى « المغول »
عن كل شعرة في رءوس هؤلاء التجار أضعافها مضاعفة من أرواح
المسلمين » .

صراع الطبيعة

وهكذا صحَّ عزم الخان أن ينتقم من الشاه ، وأن يُلقى عليه درسًا لا ينساه ، فأرسل يجمع إليه الحكام والأمراء الذين يخشى منهم الغدر ويخشاهم على مملكته في غيبتة ، فطلب إليهم أن يخرجوا معه وأن ينضموا إليه في حرب الشاه ، ونظر الخان فإذا قوَّاته لا تزيد عن المائة ألف . فأرسل يدعو قواده أن يلقوه بجيوشهم على ضفة من ضفاف تلك الأنهار التي إلى الجنوب الغربى من صحراء « جوبى » حيث السهول المنبسطة والمراعى الممتدة ، فحقَّوا إليها يسوقون بين أيديهم قطعانًا لا تُعدّ ولا تُحصى ليركوها في تلك السهول وعلى تلك المراعى فصل الصيف الخصب فتسمن وتكبر ، وأمر فخرجت النساء بالخيام ينصبنها لاستقبال المحاربين ، ولتكون مثوي لمن يقدُّ عليهن من القواد ليلا .

واجتمع إليه قواده في مؤتمر عام ودرسوا الخطط ووضعوا الوسائل وأعدُّوا ما هم في حاجة إليه لمثل تل الغزوة . وخرج الخان على جواده الأبيض وفي قلنسوته ريشات من ريش النسر ، مُتمنطقًا بمنطقة عريضة مرصَّعة بالذهب ، يلبس حُلَّة من الجلد ذات فراء أسود وأكمام

طويلة ، ومَرَّ يستعرض جنده . وكان أحرص ما يكون حين يخرج
لحرب ، على أن يتفقد الجياد بعُدَّتْها ، ويتفقد الأسلحة كلها ، فلقد
كان محارباً يَعْرِفُ أن الفارس بجواده وعُدَّتْه ، فإذا هو فقد جواده من
تحتته ولم يصلح له سلاحه الذى فوق كتفه لم يُغْنِ فى الحرب شيئاً .

وما إن استعرض الجند حتى وقف فى وسط الساحة وقد اصطف
الجنود صفوفًا فى سُكون ، وإذا هو يصيح فيهم : سنسير معًا لنكيل
لخصمنا الصاع بالصاع ، ولنعاقبه على ما قَرط منه فى حقنا ، ولننتقم
لمن قُتِلَ من رجالنا ، وستكونون شركائى فى السراء والضراء ،
واعلموا أنه لا نَصْرَ للجند إلا مع الطاعة ، وإلا مع النظام ، فليُطع
الجنديُّ قائده ، وليُطع القائدُ أميرَه ، واعلموا أن جزاء من قَصَّرَ
الموت ، ليس له وحده ، وبلى لنسائه وأولاده .

* * *

وإن نظرة إلى خريطة آسيا وإلى ذلك اللون البنى القاتم الذى يُظل
تلك البقعة ، لتدلّ على ما يقوم فوق هذه الأرض من جبال شاهقة وما
يفترش أرضها من هضاب وتلال . وأرضٌ هذا شأنها لكفيلة بأن تعوق
الجيوش وتقوم حاجزاً منيعاً فى سبيلها ، تفوّت تقدّمها وتمكّن لنفسها
من أن تنال منها . هذا إلى أن طبيعتها المحلّة وأرضها المُجْدبة
ونضوب المياه فيها أمر آخر له خطره على الجيوش .

لذلك كان لزاماً على الخان أن يتدبّر أمره بين تلك الجبال ووسط
تلك المتاهات ، وأن يعرف أى سبيل هو مخترق وأية أرض سوف

يَدُوسُهَا ، فَلَقَدْ كَانَ لَزَامًا عَلَيْهِ وَعَلَى جُنْدِهِ أَنْ يَقْطَعُوا تِلْكَ الْمَرْحَلَةَ مِنْ
غَرْبِ بَحِيرَةِ « بِيْقُول » إِلَى بِلَادِ « فَارَس » ، صَاعِدِينَ فِي الْجِبَالِ مَرَّةً
هَابِطِينَ إِلَى السَّفُوحِ أُخْرَى ، ضَارِبِينَ فِي الْوُدْيَانِ مُحْتَازِينَ الْمَضَاقِقَ
خَائِضِينَ فِي الْأَخَادِيدِ وَالْأَخْوَارِ ، سَابِحِينَ فِي الْأَنْهَارِ . وَهَكَذَا ضُرِبَ
عَلَى هَذَا الْجَيْشِ الْمَغُولِي بِهِذِهِ الْحَرْبِ رَحْلَةٌ مِنْ أَقْسَى الرِّحَالَاتِ وَأَشَقُّهَا ،
إِنْ قَوَى عَلَى الْجُوعِ لَمْ يَقْوِ عَلَى السَّيْرِ ، وَإِنْ قَوَى عَلَى السَّيْرِ لَمْ يَقْوِ عَلَى
الرَّيْحِ الْعَاتِيَةِ وَالْبَرْدِ الْقَارِسِ الَّذِي تَجَمَّدَ مَعَهُ الْأَطْرَافُ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ
الْإِنْسَانُ مَعَهُ حَرَكَةً .

مَا غَابَ عَنِ الْخَانِ هَذَا كُلُّهُ . وَلَقَدْ دَبَّرَ لِهَذَا كُلِّهِ ، وَكَانَ ذَا عَزْمٍ لَا
يُثْنِيهِ عَنْهُ إِلَّا الْمَوْتُ ، عَزَمَ الرَّجُلُ الْبُدَائِي الَّذِي لَا يَمْلِكُ فِي ثَوْرَتِهِ عَقْلَهُ
وَلَا وَجْدَانَهُ وَلَا قَلْبَهُ ، وَيَمْضِي هَائِجًا هَيْجَانِ الْوَحْشِ الْمَفْتَرَسِ لَا يَرُدُّهُ
عَنْ قَصْدِهِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ أَوْ يُمَيِّتَ . دَعَاكَ مِنْ إِيْمَانِ « جَنْكِيْزْ خَان »
بِنَفْسِهِ وَإِيْمَانَهُ بِقُوَّةِ جُنْدِهِ ، فَلَقَدْ كَانَ هَذَا الْإِيْمَانُ وَذَلِكَ شَيْئًا تَنْطَوِي عَلَيْهِ
النَّفُوسُ ، وَيَجْرِي بِهِ الدَّمُ ، وَيَنْبُضُ بِهِ الْقَلْبُ ، فَإِذَا صَاحِبُهُ قَدْ أَنْسَى
نَفْسَهُ وَأَنْسَى الْمَوْتَ الَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ ، وَذَكَرَ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ
يَنْتَصِرَ .

وَيَهْلُ الْفَجْرُ ، وَمَعَ إِهْلَالِ الْفَجْرِ كَانَتْ تَحْرَكَاتُ « الْمَغُول » . فَدَقَّتْ
الطَّبُولُ ، وَانْدَفَعَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قِطْعَانُ الْمَاشِيَةِ ، تِلْكَ الْقِطْعَانُ الَّتِي لَا
تَقَعُ تَحْتَ حَصَرٍ وَلَا يَشْمُلُهَا عَدُوٌّ ، وَالَّتِي شَبَّتْ وَتَرَعَرَعَتْ وَنَمَتْ فِي
تِلْكَ الْمَرَاعِي الْخَضِبَةِ ، وَأَصْبَحَتْ وَكَأَنَّهَا جَيْشٌ يَسْبِقُ جَيْشًا ، مِنْ

ورائها سار المقاتلون في مركباتهم وعلى دوابهم .

ومضى ذلك الزحف في سيره يلقي عناء بعد عناء ويبذل جهداً بعد جهد، يصعد ويهبط . وكان الشتاء قد حلّ وكست الثلوح الأرض ، وبدت من تحت أرجلهم بيضاء ناصعة ، الشيء الذي اضطرّ القوم إلى أن يستبدلوا بمركباتهم زاحفات تنقلهم فوق تلك الأرض الجليدية وكنت تستطيع أن تتعرف مسار القوم على تلك الصفحة الجليدية بما يخلفون وراءهم من عظام على منحدرات الطريق .

صعد « جوشي » بفرقتة في جبال « تيان شاه » كما صعد « شيبه نويون » ، كلاهما قد بلغ القمة التي تناطح السماء ، ثم هبطا منحدرين نحو الجنوب يسلكان بجيوشهما الطريق الشمالى الرئيسى المفضى إلى بلاد الشاه ؛ على حين بقيت القوات الأخرى من الجيوش المغولية تزحف وثيدة ، تخوض الأغوار وتجتاز البحيرات المتجمدة إلى أن بلغت بوابة « سنجريان » أو بوابة الريح - كما كانوا يسمونها - وهناك هبت عليهم رياح عاصفة عاتية فنفقت الماشية . وكان الجيش من قبل ذلك قد استنفد الكثير مما يملك من طعام ، واستنفد الكثير مما يحمل من علف الدواب . فلم تقو بعدُ على أن تجرّ المركبات ، فاضطروا إلى ترك تلك المركبات في الطرق ؛ وخلّوا بينها وبين الخيل ؛ ولكن الخيل على هذا قد أصيبت بالإعياء من قلة الغذاء . وكان البرد يصيب حوافرها بالعطب ؛ فكانوا يلقون تلك الحوافر بسيور من الجلد لوقايتها ؛ وحين فرغ الزاد ولم يبق مع القوم ما يتبلغون به كان الرجل منهم يفرع إلى

جواده فيقطع شرياناً من شرايينه ليمتص شيئاً من دمه ، يدفع بذلك عن نفسه شيئاً من غائلة الجوع وشيئاً من حر العطش . وهكذا كاد البرد وكاد الجوع لهؤلاء الجنود كيذاً عظيماً ؛ وقَسَت عليهم الأرض وعنفت بهم الجبال . فكانت رحلة من أشق الرحلات لا تقوى عليها الجيوش ؛ ولكن قد قوى عليها جيش « المغول » وصمد لصعابها كلها ؛ وتلقى شدائدتها جميعها .

وكانى بهذه المصاعب وتلك الشدائد التى تُوهن من قلوب الرجال ، قد زادت قلوب هؤلاء الرجال قسوة وعُنفًا فوق قسوتهم وعنفهم ، وغدوا كالوحوش الضارية يزيد الجوع وتزيد القسوة من ضراوتها ؛ فإذا هى أكثر ما تكون وحشية حين تجوع ؛ وأكثر ما تكون ضراوة حين تقسو عليها الطبيعة ؛ فاندفع هؤلاء المحاربون المغوليون حين بلغوا الهضاب الغربية وحين أصبحوا خلف بوابة الريح ، إلى غابات الصنوبر التى راعتهم أشجارها الفارعة الطويلة الضخمة ، يقطعون الغصون ويوقدون عليها مع الليل ليعثوا الدفء فى أوصالهم ، وإذا هم حين أنسوا بالدفء قد أنسوا ما مرّ بهم من شدة ، فجلسوا حول مدافئهم يضحكون ويسمرون وكأنهم لم يبعدوا عن مراعيهم وقبابهم فى صحراء « الجوى » ، وانتشروا هنا وهناك فى تلك الغابات الصنوبرية يصيدون الدببة والثعالب ، يقدفون بها إلى النار ثم يلتهمونها نهمين شرهين ، تاركين حين رحلوا من خلفهم عظامها مع عظام ما بقى من حيوانهم لتدلّ على آثارهم .

وانتهت الجيوش بعد ما جازت من جبال ومرت بوديان وسلكت من غابات ، إلى السهول التى على حدود الامبراطورية الإسلامية ، وأخذت فرق الجيش يدنو بعضها من بعض ، يلحق المتأخر بالمتقدم ويتلبّث المتقدم ليلحق به المتخلف ، حتى إذا ما تجمعت أخذت تعبر نهر « سيحون » وكان عندها فى إبان فيضانه ، وكلما مرت تلك الجيوش بقرية من تلك القرى المنتشرة على ضفاف النهر أغارت عليها فنهبت وسلبت وأهلكت الحرث والنسل ، وحملت معها ما يخفّ وما هى فى حاجة إليه من طعام وكسوة وعلف للدواب ، يسترون هجماتهم على تلك القرى الآمنة الوادعة بالحرائق يُشعلونها ليشغلوا الناس بها فينسوا المهاجرين .

وكان الشاه عندما بلغت تلك الجيوش حدود بلاده قد عاد لتوّه من الهند منتصراً فأنتهى إليه خبر هذا الغزو ، وكان جيشه لا يزال على أهبته لم يخلع عنه لباس الحرب فخرج به للقاء « المغول » ، وكان قوامه أربعمائة ألف مقاتل ، فاندفع إلى الشمال لى يدرك هذا الجيش المغولى قبل أن يلتئم شمله ، فيقضى عليه . وكان الشاه يرى أن قوات « المغول » لن تصمد لقواته ، عقيدةً عمّر بها قلبه يُذكيها فى هذا القلب أنه مُسلم وأن خصمه وثنى . وما كاد الشاه يبلغ قريباً من نهر « سيحون » حتى ترك الشطر الأكبر من جيشه هناك ومضى هو فى البقية الباقية منه مُنحدرًا إلى مصب النهر .

لقد قدر شيئًا وساق القدر إليه شيئًا آخر . فلقد قدر أن « المغول »

بعيدون عن هذا الطريق الذى سلكه وأنه سوف يلقيهم فى مكان آخر .
فإذا هو أمامهم وجهًا لوجه فى واد طويل ، تكتنفه الغابات الكثيفة
وعلى جانبه المنحدرات . وكانت جيوش الشاه تفوق جيوش
« المغول » ، تفوقهم عددًا وتفوقهم قوة ، وكانت الرحلة الطويلة الشاقة
قد أنهكت « المغول » ، وكان جنود الشاه قد نالوا حظًا من راحة .
ولذلك أراد الشاه أن ينتهز الفرصة ويأخذ « المغول » على غرة ، فسرعان
ما نُفخ فى الصور ودقَّت الطبول ، فإذا الجيش قد اصططف ، وإذا هو
على أهبة بأن يخوض معركة فاصلة .

وفزع « شيبه نويون » لما رأى من تلك الحشود فى نظامها وعددها
وسلاحها . وعلم أنه لن يقوى لها إذا وقف أمامها وجهًا لوجه وأملى
عليه تدبيره السريع أن يأخذ فى الحيلة . وحيلة « المغول » معروفة ،
لكنها جازت على المسلمين . فحين رأى « شيبه نويون » أن لا حيلة له
فى نصر إذا واجه خصمه فكر فى خداعه . وطلب إلى زميله « جوشى »
أن ينسحب بفرقته أمام العدو ليغريه باللحاق به . خدعة قديمة
للمغول مرَّ بك شئ عنها . ولكن « جوشى » ابن الخان أبى على
صديقه هذا وأصدر أمره إلى جنده أن يهجموا . وامتطى المغول خيولهم
وسيوفهم القصيرة فى أيديهم القابضة على أعنة الخيل والرماح المشرعة
فى أيديهم الأخرى ، واندفعوا نحو أعدائهم . ونشبت الحرب وكان
نصيب المسلمين فيها غرمًا كبيرًا ، وتعرض الشاه لمحنة من المحن
القاسية ، كاد يذهب فيها ضحية حين أحاط به « المغول » لولا أن

استبسل في الدفاع عنه حرسه الأشداء . وكرَّ « جلال الدين » أكبر أبناء
الشاه على قلب « المغول » كرة ضعفوا أمامها ولم يصمدوا لها فارتدوا
بألويتهم .

وحل المساء فترك « المغول » معسكرهم بنيرانه المشتعلة . وامتطوا
خيولهم ينسحبون ، فقطعوا في ليلة واحدة ما كانوا يقطعونه في ليلتين .
وأشرقت الشمس على ذلك الوادي فإذا هو مملوء بجثث القتلى ومن
حولها كتائب الشاه ، وقد نالها ما نالها ، ولا أثر لمغولي في الميدان . فقد
اختفوا وكأنهم لم يكونوا . وكانت المنطقة قد تعرَّت هي الأخرى مما
على سطحها من نبات . فلم تجد الخيل ما تقتات به . ولم يجد الجيش
هو الآخر طعاماً يكفيه . من أجل ذلك رأى الشاه أن يتراجع إلى مُدنه
ليكون وراء أسواره المنيعة ، فيأمن هجمات « المغول » الخاطفة . ومرَّت
هذه الموقعة بعد أن تركت في نفوس المسلمين أثراً أى أثر . لقد هالتهم
الخسائر التي خسروها ، وشق على نفوسهم أن تنال منهم تلك الشراذم
المغولية ، وأذهلتهم تلك الشجاعة الخارقة للمغول . لم ينبجُ من ذلك
الشاه نفسه ، فلقد أصابه همٌّ لا يفارقه كاد يُقْضِ عليه مضجعه ويهيج
نفسه ، ولكنه على هذا خرج من تلك الحرب وهو يُكبر أعداءه ويرى
فيهم خير جند وخير قادة ؛ صبراً وقوة احتمال وتسديد ضربات .

وكان الخان في إثر تلك الطلائع التي التحمت بجنود الشاه . وبلغه
وهو على حدود الدولة الخوارزمية ما قام به ابنه « جوشي » فأرسل إليه
مددًا من الجند ، وأمره أن يعود فيتعقب الشاه .

فيما وراء النهر

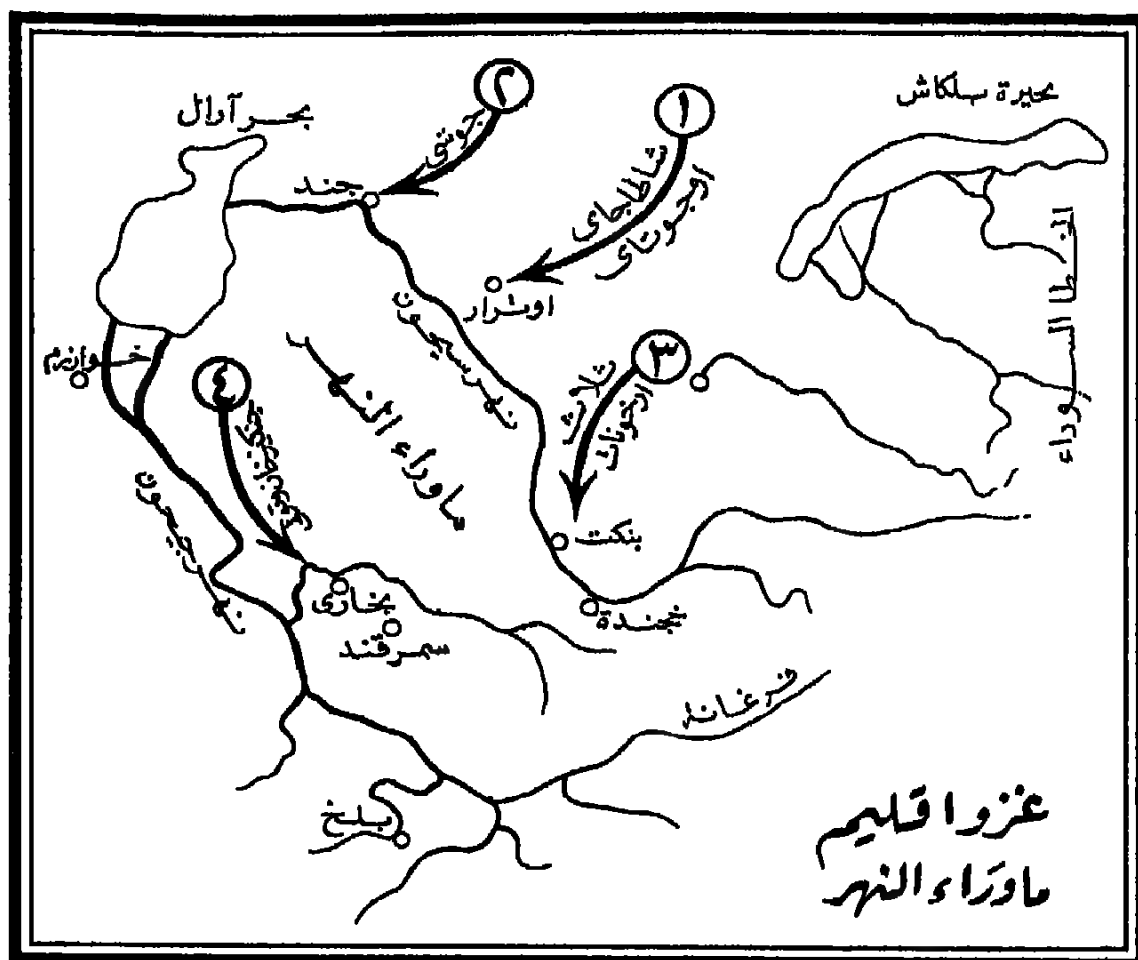
كان أول ما يطالع « المغول » الراجعين من الأقاليم الإسلامية لإقليم « ما وراء النهر » ، وكان ذا شقَّين متباينين يفصل ما بينهما بحر « آرال » ؛ فإلى الجنوب والغرب من هذا البحر المالح كان الشق الأول ، وهو هضبة جرداء قاحلة تكسو بعضها طبقات من الطُّفل الأحمر ويعلو بعضها الآخر رمال وتراب ، وإلى الشرق من هذا البحر كان الشق الثاني من هذا الإقليم يخترقه نهران « سيحون » و « جيحون » . يجري « سيحون » من الجنوب الشرقي إلى الشمال حيث يصب شمالى بحر « آرال » ، ويجرى « جيحون » جنوباً حيث يصب جنوبى هذا البحر ، يضم هذا النهر وذاك بينهما وادياً خصباً مُونعاً مخضراً . وعلى « سيحون » قد أنشئ الكثير من المدن الإسلامية ، شىء منها على ضفته اليمنى وشىء منها على ضفته اليسرى ، تصل هذه المدن بعضها بعضاً طرق القوافل ، فكانت كحلقات فى سلسلة متصلة تمتد فى هذا الوادى الذى تكتنفه الصحراء . وعلى « جيحون » كانت تقوم قلعتا الإسلام المنيعتان « بخارى » و « سمرقند » .



وحين زحف « المغول » إلى « خوارزم » وگُوا وجوهم شطرَ هذا الشقّ الخصب ، وإليه انحدر الشاه ليلقاهم بجيش بلغت عدّته أربعمائه ألف مقاتل . ولبث الشاه إلى الجنوب من نهر « سيحون » يرقب خصمه يريد أن يدهم جيوشه وهى تعبر النهر . وطال به الانتظار فترك مكانه ليبحث عن عدوّه ، فإذا هو يلقيه وجهاً لوجه فى واد من الوديان - كما مرّ بنا - وإذا عدوّه يلوذ بالفرار ، ويدرك الخان جيوشه المنسحبة فيعجب بما كان لها من جولات صادقة ، ويعجب بما كان لها من انسحاب خادع ، فيزوّدّها بمَدَد من الرجال ومَدَد من العتاد ومدد من الرأى والتدبير ، لتعود فتهاجم جيوش الشاه .

وأطبقت جيوش المغولى على ميدان المعركة تحيط به من جهاته الأربع ، فكان ولداه « أوجتاي » و « شاطاجاي » على رأس الجيش الأول الذى قصد « أوترار » ، تلك المدينة الإسلامية التى قتل أميرها البعثة التجارية ، وكان ابنه « جوشى » على رأس جيش ثان ، وكانت وجهته « جند » القريبة من مصب « سيحون » للاستيلاء عليها ، وكان على رأس جيشه الثالث ثلاثة من قواده ، وانحدر هذا الجيش يستولى على « خجنده » و « بنكت » ، وجعل الخان قيادة الجيش الرابع إليه بعد أن ضمَّ إليه ولده « تولى » .

وبدأت الجيوش المغولية زحفها معاً تسبقها الأنباء لتبلغ سمع الشاه ، فنبا من « أوترار » بأن « المغول » على أبوابها ، ونبا من « خوارزم » بأن « شيه نويون » قد انفصل عن « جوشى » بفرقة عبر بها



الجهال وهو في طريقه إليها ، ونبا من « خجنده » بأن الخان بجيشه أصبح على قاب قوسين أو أدنى منها . وهكذا تزاومت الأنباء على الشاه فبلّكت فكره وأوقعته في حيرة ، ورأى إن هو ظلّ في مكانه خلف نهر « سيحون » تعرض لشيئين : انفصال عن مراكز الإمداد ، ثم قطع الطريق عليه إلى « جيحون » وهو خط دفاعه الرئيسي . من أجل ذلك لم يصدر الشاه عن رأى سديد ، ولا ملك فكره ليتدبر ، ولا اطمأن ليتروى ؛ وإذا هو ثائر طائش اللب ، وإذا هو مع تلك الثورة وذلك الطيش يفرّق جنده على المدن ليلقى العدو اشتاتاً . وقد أنسى أنه قد مكّن بذلك لعدوه وأعطاه ما يريد . فلقد أراد الخان أن يشتت قوى الشاه بهذا الهجوم وأن يفوّت عليه التجمع ، فيسهل عليه النيل منه قوة قوة وفرقة فرقة . وقد تمّ للخان ما أراد فإذا الشاه يرسل بأربعين ألفاً من المقاتلين لتشدّ أزر الحصون الممتدة على نهر « سيحون » ويخصّ « بخارى » بثلاثين ألفاً ، ثم يمضى بسائر ما بقى معه إلى « سمرقند » وكان العدو قد أشرف عليها .

ولقد ظن الشاه أن قلاعه ستغنى عنه شيئاً وسوف تردّ المغول على أعقابهم ، وأنهم لن يقووا على اقتحامها وأنهم لن يظلّوا وراءها طويلاً وسوف يعودون أدراجهم بعد أن يسلبوا ويغنموا من الزرع والماشية وغير الزرع والماشية ، لا همّ لهم غير ذلك . ظن هذا الشاه فبرّ به ما فعل من تشتيت قواته على القلاع والحصون ، لكن هذا كان ظناً يُمليه الجهل بحياة « المغول » ، ويُمليه الجهل بسيرة هذا الغازي الجديد

«جنكيز خان» . وما نخال الشاه كان يجهل هذا كله ، ولكنها كانت زلّة حربية ، وكم لكل زلّة من تبرير ، ولكن التبرير إذا لم يسانده شيء ضم إلى الزلّة زلّة .

وكانت «أوترار» على الأطراف ، وكانت المفتاح إلى تلك الأقاليم الإسلامية ، وكان حاكمها «ينال» خصم «المغول» الأول ، وهم لا ينسون له ما فعل . من أجل ذلك أسرع «أوترار» تعدّ نفسها قبل غيرها وتُدعم حصونها وقلاعها . ووقفت «أوترار» تدفع عن نفسها أشهراً خمسة ذاقت فيها ويلات كثيرة حتى خارت قوى الرجال واختفت بطولة الأبطال . وبقي «ينال» في الميدان يمطر المغول من فوق الأبراج وبوابل من السهام ، حتى إذا ما انكشف رمى بنفسه إلى سطح من السطوح ، وأخذ يرمى «المغول» بالحجارة يناولها إياه النسوة إلى أن وقع أسيراً ، فلقد كان هو المقصود قبل «أوترار» . فهو يدافع عن نفسه مع دفاعه عن «أوترار» ولا غرو فهو يدافع عن جاه وإمارة . ولا ندري ما الذى أبطأ به عن أن ينجو بنفسه هارباً بعد أن فقد قواته المدافعة . لعله آثر أن يموت كريماً ، ولعله كان على يقين من أن فراره لن يغنيه شيئاً ، فهو لن يستطيع أن يخرج من مدينة محاصرة يحيط بها الأعداء من جميع جهاتها . ووقع «ينال» في يد الخان المغولى ، فأمر بأن تصبّ في عينيه وأذنيه فضّة مصهورة إمعاناً منه في التنكيل به وإمعاناً منه في تعذيبه .

وفيما كان الجيش الأول يدخل «أوترار» كان الجيش الثالث يجتاز

الوادي الخصيب في طريقه إلى « بنكت » و « خجنده » ، ينتقل بين
بساتين نضرة ، فيها أشجار الفاكهة تتدلى منها ثمارها الطيبة ، يتميز من
بينها الرمان بحجمه الكبير الذي تملأ الواحدة منه قبضتي الرجل ،
وكان للقوم منه شراب لذيذ مرّ . وتمتد على شاطئ النهر من ورائها
حقول فسيحة تفيض بألوان من الزرع ، ويفترش البطيخ أرضها ، كل
بطيخة تزن ما يقرب من خمسين رطلا ، وبها الأراضي المنبسطة تزخر
بالأنعام والإبل والخيل ، ومن وراء هذا كله القرى تحيط بها أسوارها
إحاطة السوار بالمعصم .

لم يغرّ هذا النعيم ذلك الجيش الجائع العطش ، بل مضى في طريقه
لا يتلبّث ، وما نعى أنه لم يصب من ذلك شيئاً ، وإنما نعى أنه مرّ
زاحفاً إلى هدفه الأكبر في بمرات جبال « تيان شان » ذات البرد القارس
ليبلغ « بنكت » و « خجنده » . وتهون « بنكت » فلا تقوى على مقاومة
وتسلم أمرها إلى « المغول » فيدخلونها دون حرب . وكان على « المغول »
أن يرعوا هذا لهؤلاء القوم المسلمين ، وكان عليهم أن يحسنوا إليهم ،
وأن يحتاطوا منهم ، ولكن المغول كانوا غادرين تُملى عليهم ذلك
الغدر طبيعة النفس وطبيعة الأرض . لقد قست عليهم الأرض فقسوا
على أنفسهم ، ثم قسوا على الناس مع أنفسهم .

وإننا لنعجب لهؤلاء « المغول » بعد أن فتح لهم أهل « بنكت »
الأبواب ، وبعد أن مكّنوهم من الدخول حين لم يرعوا لهؤلاء
المسلمين سلمهم ، فقد جمعوا إليهم المحاربين لم يستثنوا منهم أحداً ،

وقتلوهم عن آخرهم لم يُبقوا منهم أحداً . وهكذا يؤمن المغوليون أنفسهم ؛ ويحموا ظهورهم ؛ لا يعينهم ماذا يصيب الناس ولا يقدرون ما يفعلون .

غير أن « خجندة » وقفت لهم تحميها أسوارها العالية وأبراجها السامقة المكيئة ، ومن وراء تلك البروج وقف الجنود ووقف القائد « تيمور ملك » يدافعون عنها دفاع المستميتين . غير أن زحف « المغول » كان عنيفاً ، وهجومهم كان قاسياً فلم تصمد المدينة كثيراً وخرج عنها قائدها « تيمور » إلى جزيرة وسط النهر ، ومعه ألف من جنوده تنقلهم القوارب إلى تلك الجزيرة التي أخذوا في تحصينها . واتجه إليهم « المغول » يضيقون عليهم الخناق . وكانت المياه تفصل ما بين هؤلاء وما بين هؤلاء ، ولا يستطيع « المغول » بلوغ أعدائهم إلا إذا أقاموا جسراً يعبرون عليه ، وإن لم يفعلوا فسيظل ما بين القوم بعيداً وسيطول الحصار .

وشرع « المغول » يقيمون هذا الجسر يسخرون له الأسرى من أهل « أوترار » و « بنكت » ، ينقلون الحجارة ويلقونها في النهر . وأخذ الجسر يمتد يوماً بعد يوم تحت إشراف نفر من مهندسى الصين .

هذا على الرغم مما فعل القائد « تيمور » ، فهو لم يترك أعداءه يمشون في إقامة الجسر ، ولم يقف إزاء ذلك مكتوف اليدين . فلقد هباً من مراكبه أسطولا وحاط كل مركب بمتاريس خشبية تدفع عن رماة السهام الذين بها ، وبعد أن مكّن هذه المراكب أطلقها في النهر تقذف

«المغول» والعاملين في إقامة الجسر بسهام دقيقة . وما سكست رجال المدفعية في جيش «المغول» على هذه ، فراحوا يقذفون تلك القوارب بأوعية حشوها النار والكبريت .

وما يئس «تيمور» ولافت ذلك في عضده ، بل راح هو الآخر يقيم لتلك القوارب حواجز وسقوفاً ذات ميل يكسوها بالطين لتتزلق عليها النار ولا تعلق بها . وهكذا كان مكر «المغول» ومكر «تيمور» ، يغلب مكر مكرًا ، ولكن ماذا يغني المكر أمام أيدٍ عاملة لا يقوى عليها هذا الفناء البطيء ، وأمام جيش جرار للمغول لا يمل ولا يسأم ؟ وما هي إلا أيام أخرى حتى تم الجسر وامتد إلى الجزيرة . وأحس «تيمور» أن عدوه مدركه ، فخرج عن الجزيرة مع الليل في رجاله تحملهم اثنا عشر مركباً قاصدين الجنوب ، وذلك بعد أن حطم هذا الحاجز الذي أقامه «المغول» في النهر يمنعون به العبور . وجرى «المغول» في إثر «تيمور» يتابعونه على الشاطئ ، وسبق «جوشى» وسبق معه المهندسون ، فأقاموا المجانيق على الشاطئ يريدون أن يستقبلوا «تيمور» في أسطوله الصغير فيبيدوه إغراقاً .

وفطن «تيمور» لما أراده أعداؤه ، فلم يُمعن في السير نحو الجنوب ؛ ومع الليل أرسى سفنه عند مكان مهجور من الشاطئ ، ونزل برجاله يظن أنه في مأمن وأن أعداءه عنه بعيدون . ولكنه ما إن وطئت قدماه الأرض ، ووطئتهما معه أقدام رجاله حتى وجدوا «المغول» من حولهم يعملون فيهم السيوف والحراب حتى أفنؤهم جميعاً

لم ينجُ منهم غير « تيمور » الذى لاذ بالفرار . وجرى فى إثر « تيمور » ثلاثة من المغول استطاع « تيمور » أن يرمى أحدهم بسهم فيرديه قتيلا ، واستطاع أن يلوح للآخرين مهدداً فرجعا عنه بعد ما رآيا من إحكامه للرمى بالسهم . ومضى « تيمور » فى فراره حتى أدرك الأمير « جلال الدين » ابن الشاه فى أقصى الجنوب .

وهكذا أفلح « تيمور » فى أن يشغل جيشاً للمغول شهوراً عدّة ، أثبت فيها شيئاً من الشجاعة وشيئاً من الحيلة ، لا يعنينا ما انتهى إليه أمره ، فلقد فعل ما لو فعله غيره وصبر له لعوقوا تلك الجيوش المغولية تعويقاً قد يبعث فيها الملل وقد يتيح للمسلمين فرصة .



ومضى الجيش المغولى الثانى بقيادة « جوشى » يطوى بين يديه القطاع الشمالى من نهر « سيحون » مستولياً على تلك المدن الصغيرة التى يمرُّ بها ، وتخلّت الحامية التركية عن « جند » وتركتها له . وحين تم « لجوشى » الاستيلاء على الإقليم الشمالى واستخلاصه كله من أيدي أربابه المسلمين انحدر جنوباً نحو الجنوب يؤازر الجيش الثالث عند « خجندة » . ولقد مرّ بنا انفصال « شيبه نويون » عنه بفرقه قاصداً « خوارزم » إلى سمرقند . وما خرجت الجيوش المغولية فى فتحها هذا عن مألوفها الفظ وطبيعتها القاسية ، من قتل للمحاربين بعد استيلائهم على المدن ، ومن تسخير للأسرى فى أشق الأعمال .

عرف لهم الخوارزميون هذا فاستبشعوه منهم أولاً ، ثم ألفوه عنهم

ثانيًا ، وسرعان ما يألف الناس القسوة لفهم للرحمة ، يصبرون لذلك مغلوبين عليه ، لا يجدون في يومهم جديدًا من ضيق ولا جديدًا من همّ . وإذا هم ذات يوم يجدون « المغول » قد جاوزوا قديمهم المألوف إلى جديد غير مألوف . لم يكن جديدًا يتصف بالرحمة فيخفف عن النفوس ، ولكنه كان جديدًا يتميز بالإفراط في القسوة ، فضجّت تلك النفوس المتألمة بألم جديد وذابت تلك القلوب التي تحجّرت ألماً لتجرى ألماً .

فلقد حدث أن بعث المغول برسول لهم من التجار المسلمين إلى مدينة من المدن ، وكان الناس في كل مدينة من تلك المدن الإسلامية ضيقة صدورهم بالمغول يضيقون بهم ذرعا ، وهم أكثر ضيقًا بمن يعاونهم ، لا سيما إذا كان ذلك المعين مسلماً . فما إن وقعت أيديهم على ذلك التاجر المسلم حتى قتلوه ومزّقوه إربًا . وانتهى خبر ذلك إلى « المغول » وعدهم المغول امتهانًا لهم وتهوينًا من شأنهم ، وهم قساة وإن لم يُمتهنوا أو يهأنوا ، فما بالك لو أحسوا أنهم امتهنوا أو أهينوا ، فثارت ثائرتهم ، وأقبلت جيوشهم على تلك المدينة الظالمة المظلومة تحصد السكان حصداً ، وإذا هم في عشية وضحاها صرعى لا تجد من بينهم حيًّا ولا تجد من بينهم ساعياً .

* * *

ولقد أنسانا الحديث عن تلك المجازر الدامية التي تلطخت بها أيدي المغول أن نسوق إليك حديث جيوشهم وحديث الجيش الرابع ،

خاصة الذى كان يقوده الخان نفسه . فلقد انطوت أخبار هذا الجيش عن المسلمين وعن «المغول» ، وظل هؤلاء وهؤلاء لا يعلمون عنه شيئاً . وأمعن الخان فى الاختفاء فكان يعمى آثاره على الطريق فلا يترك ما يدل عليه ، وإذا به يظهر فجأة على حافة البادية القاحلة وهو يسرع السير إلى «بخارى» من الغرب وكأنه أراد بذلك أن يقطع ما بين المدن المحاصرة وما بين مراكز إمدادها فيشطر الإقليم شطرين ؛ وكأنه أراد أن يتم له الاستيلاء على القلب ليضرب ضربته الأخيرة ويقطع الطريق على الشاه فيحول بينه وبين أن يسعف مدنه المحاصرة على نهر «سيحون» .

وأصبح الشاه مطوّقاً تحديق القوى المغولية بجانيه ، وتكاد تقطع عليه الطريق إلى الجنوب حيث جيوشه وابنه جلال الدين ، وحيث الإمدادات . وحيث «خراسان» و«فارس» بمواردها الغنية ، وها هو ذا «شيبه نويون» يزحف إليه من الشرق و«جنكيز خان» من الغرب . وأحسّ الشاه الشر ، وأحسّ الشراك الممدود له ، فأرسل جزءاً من جيشه إلى «بخارى» و«سمرقند» ، وأرسل جزءاً آخر للدفاع عن «بلخ» و«كندور» ، وخرج من «سمرقند» لا يصحبه إلا نفر من النبلاء ورجال حرسه وجماعات من الفيلة والجمال ، وقد حمل معه كنوزه وكنوز أسرته ، وكأنه كان قد يش من تلك الموقعة فأراد أن يهيب الموقعة أخرى .

ولكن الشاه الذى عجز عن هذه عجز عن غيرها ، وأتاح لهذا

المغولى أن يقهره فى ميدان البطولة وأن يمحوا اسمه من سجل الأبطال .
فمن قبل هذه كان رعايا الشاه يلقبونه بالإسكندر الثانى ، فإذا هم مع
هذه التجربة القاسية - التى منى فيها الشاه بالفشل ولم يكسب نصراً ما -
يسيئون به الظن ، وتنطوى قلوبهم على حسرة حين خاب رجاؤهم
فيه ، وهو رجاء العالم الإسلامى كله حينذاك .

* * *

وكان الخان عَجَلاً مَشَوْقاً إلى أن يضرب ضربته الأخيرة ، فلم
يتلبث أمام تلك المدن الصغيرة التى مرّ بها إلا ريثما يتزود بماء أو طعام ،
إذ كان همّه أن يفاجئ «علاء الدين» فى «بخارى» . وكان الظن أن
يثبت «علاء الدين» للقاء الخان ، وكان الظن أن ينتفع بقلعة المدينة ،
يكيل لخصمه من ورائها ويكلفه ثمناً ما قبل دخولها ، ولا يدعه
يدخلها دون جهد ما ، فحاميتها لم تكن تقل عن عشرين ألفاً من
المقاتلين بين فرس وأتراك .

ولم تُثبت «بخارى» وجودها أمام هذا الفتى ، وفرّ «علاء الدين»
عنها خائفاً ينجو بنفسه . ودخلها «جنكيز خان» شامخاً . ولا غرو
فلقد كانت قلعة الإسلام الضخمة ومدينة الجامعات الإسلامية ، يضم
ذلك كله سور يحيط بالمدينة وما حولها من قرى ومزارع يبلغ طوله نحواً
من اثنى عشر فرسخاً ، تشرف من فوقه أنى مددت البصر على خضرة
واسعة تنعقد مع خضرة السماء ، فإذا أنت بين قبة أرضها وسائها
سواء ، تلوح القصور البيضاء على رقعتها وكأنها الكواكب ، والماء

ينساب بينها تحمله إليها القنّوات من نهر « سمرقند » .
ومن عجب أن تُدعن تلك المدينة المنيعه بحصونها ، الغنية بالرأى
والفكر ، والتي كانت على رأس البلاد الإسلامية يستملون منها
ويقتدون بها ، من عجب أن تدعن تلك المدينة « للمغول » في هذا اليسر
اليسير ، وتتيح للقائد المغولى أن يسخر بأهلها حين قال : « ليست
الأسوار في مناعتها بمُغنية شيئاً عن أهلها إن فقدوا شجاعتهم ووهنت
قوتهم » .

ولكننا نعود فنسأل : من كانوا هؤلاء المدافعين عنها ؟ لقد كانوا
جنوداً مأجورين من « الأتراك » الذين دخلوا على الدولة الإسلامية من
طرق شتى ، همّهم المناصب ، وهمّهم الجاه ، وهمّهم الرزق ، شركاء في
اليسر ، عونٌ للأعداء في العسر ، يعينهم أن يعيشوا ويموت الناس ،
وإن استشعروا البأس ولّوا الأدبار وتركوا الناس يصلون هذا البأس
ويدوقون ويلاته .

هكذا فعل الأتراك حماة « بخارى » ، لم يكلفوا أنفسهم كثيراً ولا
قليلاً . وحين أشرفت على الأسوار جيوش « المغول » تركوا المدينة لهذه
الجيوش في جنح الظلام آمنين ، وهجروا المدينة بأهلها رجالاً ونساء
وأطفالاً يلقون البأس والهلاك .

غير أن هؤلاء الأتراك الذين فروا من الموت لقوا الموت جبناءً
وماتوا في ساحته جبناءً . فلقد سكت عنهم « المغول » حين خرجوا من
الأبواب الخلفية ، وأغضوا عنهم حين مروا تحت أعينهم ، حتى إذا ما

كانوا في العراء لا يستترهم بنيان ولا يحميهم انقضوا عليهم فأفنوهم عن آخرهم .

وخرج شيوخ المدينة وقضاة وأئمتها ليلقوا الخان ويسلموا إليه مفاتيحها ، ليؤمنوا الأهلين الويلات وليقوا المدينة شر الخراب . فما كان في مقدورهم ولا في مقدور الأهلين من خلفهم أن يفعلوا شيئاً ، ورأوا الأمن والسلامة فيما فعلوا ، ففعلوا .

ولكن المغول هم المغول ، يتربون للدماء ويهشون للدمار ، ويستخفهم أن يقتلوا وأن يسلبوا وأن ينتهكوا الحرمات ؛ لا يعرفون للحرب قانوناً ، قانونهم فيها هواهم ، وهواهم فيها هوى جرىء لا يعرف الحدود ولا يضبطه ضابط . وهكذا لم يؤمن « المغول » من استأمنوهم . ودخلوا المدينة وأهلها وادعون ، فنهبوا ما بين أيديهم ، واقتحموا المكتبات فبعثروا ما في القماطر من كتب ، وتركوها تحت سنايك الخيل تدوسها ، ومن بينها المصاحف ، واندفعوا إلى المساجد وبيوت الله بخيلهم يتخذون من أبهائهم مجالس للشراب يسكرون فيها ويعربدون .

هذا ما فعله جنود « المغول » ، وقد نلتمس لهم شيئاً من عذر لأنهم جفاة بدائيون لم يؤخذوا بحظ من تأديب ، ولكننا لا نستطيع أن نلتمس لمثل هذا الفعل عذراً إذا وقع من رجل مثل الخان قیل عنه إنه تأدب ، وقیل عنه إنه أخذ الحكمة عن مشايخ قومه ، فلقد رووا له أنه نظر فرأى بناء يعلو المباني ويكبرها ، فسأل عنه وهو يظنه قصر الشاه ،

فقليل له : هذا الجامع الأكبر ، فقصد إليه على ظهر جواده ، وصعد درجاته ، حتى إذا ما أدرك صحته ترجل عن جواده وارتقى المنبر ، ونظر إليه المسلمون واجمين ، وكان ظنهم أن الرجل سيقول شيئاً ، فإذا هو يقول من على هذا المنبر المقدس ، ومن ذلك المكان الطاهر الذي لا يباح فيه لغو ولا يسمح بلهو : « لقد نفذ العلف هيا فاجمعوا للخيل علفها ! »

ونزل الخان بعد أن ملأ القلوب اشمئزازاً وبعد أن ملأها جنوده ضغناً وكراهية . ولكنه أحس أن القوم لهم دين يحض على الورع ، ولهم تقوى تنهى عن الفحش ، ولهم إسلام يبدو فيما يقولون وفيما يفعلون ؛ فلان لهم والتفت إليهم يسألهم عن دينهم وعن نبيهم فأمن بشئ وكفر بأشياء ، وإذا كفره يُرَبَّى على إيمانه ، وإذا هو آخر الأمر جرى على الدين وأهله ، ونسى ما كان قد بدأ فيه ، وعاد يذكر الحرب وما كان عنها ؛ يغريه النصر ، ويمعن في الاعتزاز بقوته وجبروته ، ويسخر بهؤلاء الناس الذين سولت لهم أنفسهم الوقوف أمامه والدخول معه في حرب . لام الأهالي لأنهم شاركوا في حربه ، ولام الرؤساء فأكثر ، لأنهم أثاروا هؤلاء الناس لحربه ، وإذا كان هؤلاء وهؤلاء مَلُومين مجرمين فقد عَدَّ نفسه « نعمة الله » أرسلها عليهم ، يسوق الدليل على ما يقول بأنه المنتصر ، ولو لم يكن نعمة الله ما انتصر . .

وكما أفاد الخان من الصينيين أفاد من المسلمين ، فقد كان المسلمون

لا يقلُّون عن الصينيين حضارةً وتمدينًا ، لهم المدن المشيدة ولهم الحضارة التليدة ومن بينهم العلماء والفنانون ، وبين أيديهم كتب ومؤلفات يتناقلها عنهم الناس . هذا الملك الواسع لم يفت « جنكيز خان » أن يأخذ عنه ويفيد منه ، وكما أخذ عن الصينيين أخذ عن المسلمين ؛ أخذ عنهم فنونهم وعلومهم وأخذ منهم رجالهم وصناعاتهم ، وهكذا انتفعت صحراء « الجوبى » بشيء جديد عن المسلمين بعد هذا الشيء القديم الذى أخذته عن الصينيين .

وقد حدثنا حديث الخان حين صعد إلى المنبر وقال ما قال . وما قصّر أهل « بخارى » فى إمداد الخيل بالعلف وإمداد الجند بالغذاء . وكان أهل « بخارى » يظنون أن أمر الخان سيتهى بينهم وبينه عند هذا الحد ، ولكنهم فاتهم أنه غاز شره ، وما تكبد تلك الرحلة لطويلة ليقنع بعلف للدواب وغذاء للجند ، وفاتهم أنه ما دخل بلداً إلاّ حمل منها أنفس ما فيها من جواهر كريمة وكنوز ثمينة . من أجل هذا وقف الخان مرة ثانية إلى أهل « بخارى » يقول لهم : « والآن فلتكشفوا لى عن كل ما خبأتموه من شيء ثمين ، ولا تعنوا أنفسكم بما هو تحت أعيننا فى بيوتكم فهذا أمر معروف لنا » .

ولكى يتم للخان ما أراد من الاستيلاء على الثروات المخفية ، ولكيلا يقف هؤلاء الأثرياء فى وجه « جنكيز خان » ويفوتوا عليه جمع هذه الثروات أو يعملوا على إخفائها عنه ، ساق « جنكيز خان » هؤلاء الأثرياء جملة فى حراسة الجنود ليدلّوا على ثرواتهم ، منهم من استجاب

فنجى من العذاب ، ومنهم من عزَّ عليه أن يكشف عما بين يديه فذاق من العذاب أصنافاً وألواناً ، فإذا هو آخر الأمر يكشف عما بين يديه تحت هذا الإرهاب وتحت هذا التنكيل . وتمَّ « للمغول » الاستيلاء على ما أرادوا ما أظنهم فاتهم شيء ، فقد وقعوا على ما كان من تلك الثروات في المخابى وما دفنه الأهلون في الآبار .

وما قنع « المغول » من القوم بهذا الذى نالوه من ثرواتهم ، وكانهم عزَّ عليهم أن يخفى القوم شيئاً ولا يعطوه عن رضى ، فإذا « المغول » بعد أن تحقق لهم ما أرادوا يسوقون الأهلين جميعاً إلى العراء ليقتلوهم على مرأى من نسائهم وأولادهم ، لا يحرك قلوبهم عويل النساء ولا صراخ الأطفال . وما قنعوا بهذه ، كما لم يقنعوا بتلك ؛ فإذا هم يغتصبون النساء على مرأى من رجال لهم كانوا لا يزالون أحياء ، منهم من أغمض عينيه على أسى وحزن ، ومنهم من عزَّ عليه عرضه فاندفع كالمجنون يدافع عن هذا العرض المسلوب ، وهو يعلم أن دفاعه لا يُغنى عنه شيئاً ولا يعرضه إلا للموت الأكيد .

وتثور الوحشية ثورتها الأخيرة في قلوب هؤلاء البرابرة المتوحشين ، لا يرضى نفوسهم أنهم سلبوا القوم أموالهم وسلبوهم نساءهم وسلبوهم حياتهم ، فإذا هم يشعلون المدينة ناراً ، وتشتعل النار في جميع الأحياء تلتهمها حياً بعد حياً ، وتبقى النار مشتعلة عاماً وبعض عام حتى تأتى عليها كلها فلا تتركها إلا خراباً .

وبقى في المدينة بعد هذا كله قليل من الرجال والنساء والأطفال

ساقهم أمامهم المغول أسرى إلى « سمرقند » ، وكانوا مشاة والمغول راكبين ، وعلى هؤلاء المشاة أن يجاروا راكبين ليلحق عدو بعدو ، وأتى للراجل المتعب المكدود أن يجارى الفرس النشيط السريع ، وكان منهم من ينكبُّ على وجوههم إعياءً فينهال عليهم راكبون بالسياط يشبعونهم ضرباً لينهضوا ، فمنهم من قضى نحبه ولم ينهض ، ومنهم من هاله الضرب فوقف على رجله ليمضى مع الركب ، وكثير منهم سقط في الطريق ولم يبلغ « سمرقند » .



وترك « جنكيز خان » بخارى « مسرعا للحاق بالشاه في « سمرقند » ، وبينما هو في طريقه التقى بفرق من جيشه بعد أن نفضت يدها من « سيحون » تزفُّ إليه نبأ استيلاء جيوشه على مدن القطاع الشمالى .

ويعيننا أن نحدثك عن « سمرقند » ، فلقد كانت مدينة عظيمة أقيمت على ربوة ، تقوم هذه الربوة على حافة الوادى ، يحيط بسورها خندق عظيم ، تدخل إليها المياه على جسر شيد على عُمَد . ومن تحت هذه المدينة ينبسط واد يانع بالأشجار الخضراء تنتشر فيه هنا وهناك قصور سامقة ومجار للمياه تنساب على تلك الأرض المنبسطة . ولقد كانت مدينة كتلك المدن العظيمة مليئة بالأسواق العامرة والحمامات الكثيرة والفنادق الضخمة والمساكن المتعددة ، مرصوفة طرقها بالحجارة .

وكانت « سمرقند » كما مرّ بنا من أمنع المدن بحميها سُورها الملتف بها ، هذا السور الذى كان الشاه قد أمر ببنائه حين أراد أن يجعل منها حصنه الأخير ، غير أنه مما يؤسف له أن الخان أدركها بجيوشه ولم يتمّ بناء هذا السور ، إلا أنها على الرغم من ذلك كانت تقوم فيها مواقع للدفاع قوية منيعة لها مداخل اثنا عشر ، يقوم على كل مدخل أبراج حصينة ، وكانت بها حامية قوامها مائة وعشرة آلاف من المحاربين الترك والفرس . وما من شك فى أن هذه الحامية كانت تفوق الجيوش المغولية المهاجمة ، ولكن « جنكيز خان » كان قد هيأ نفسه لحصار طويل ، فجمع سكان البلاد المجاورة وأسرى « بخارى » وسخّرهم جميعاً ليعاونوه فى التضييق على المدينة . ولو قد أُتيح لتلك المدينة قائد شجاع مثل « تيمور » يحكم التدبير لاستطاعت هذه المدينة أن تصدّ غارة المعتدين أو أن تصمد لهم أمداً طويلاً على الأقل .

ولكن الهجوم الخاطف الذى قام به « المغول » قد ألقى الذعر فى قلوب جنود المسلمين ، هذا إلى شىء آخر خدع به « الخان » تلك الجيوش المسلمة وجعلها تظن أنه يسوق لهم عدداً لا قبل لهم به ، ذلك أنه حمل الأسرى أعلاماً مغولية ودفعهم أمامه ، فإذا المسلمون يهولهم ذلك ، ويظنون أنهم أمام جيوش لا قبل لهم بها ، وإذا هم مستسلمون كما استسلم إخوانهم من قبل ، وإذا الأئمة والقضاة فى هذه المدينة يخرجون إلى لقاء الغازى كما خرج إخوانهم من قبل فى « بخارى » يسلمون مدينتهم . وكما خان الأتراك « بخارى » من قبل خان هؤلاء

الأتراك « سمرقند » ، فإذا ثلاثون ألفاً من مقاتليهم ينضمون إلى « المغول » زاعمين أنهم وإياهم ينحدرون من أرومة واحدة . وأحسن « المغول » استقباهم يستدرجونهم ، وخلعوا عليهم كسوات عسكرية ؛ حتى إذا اطمأنوا إلى أنهم آمنون قام إليهم المغول فلذبحوهم عن آخرهم . فلنسب ذلك غدرًا إن شئنا ، ولكننا لا نتردد في أن نسميه حيلة ، فما كان للمغولي - وهو هذا الرجل الفطري الذي يُملئ عماً في طبعه من جفوة وعماً في طبعه من بداوة - إلا أن يؤمن بالحكمة القائلة : إن من خانك خان غيرك . ولقد خان « الأتراك » « الشاه » فليس بعيد عليهم أن يخونوا « الخان » . وسخر المغول العمال والأهلين فيما يشاءون ، ثم ضموا إليهم من كان من الرجال قوياً جلدًا يريدون أن يفيدوا منه في أعمال كثيرة .

وكان الشاه قد ترك المدينة واتجه إلى الجنوب ، وكان الخان لا يريد أن يفلت الشاه منه ، ويريد أن يقبض عليه حتى لا يترك له فرصة في تعبئة جيش جديد . من أجل ذلك دعا الخان إليه قائديّه « شيبه نويون » و« سابوتاي » وأمرهما أن يمضيا في إثره على أن يأتياه به حيًّا أو ميتا . والغريب أن « الخان » كان هنا يُملئ عن طبيعة أخرى ، طبيعة طيبة غير تلك الطبيعة القاسية ؛ فقد أمر قائديه أن يعطيا الأمان لكل مدينة تفتح لهما أبوابها وألا يفتكا إلا بالمدن التي تمتنع عليهما ، ووضع « الخان » تحت إمرة هذين القائدين فرقتين قوامهما عشرون ألفاً من الرجال ، ومضى القائدان وراء « الشاه » ينحدران نحو الجنوب في أبريل من عام

كان « علاء الدين » قد ولى وجهه شطر الجنوب يقصد « بلخ » التى تقع على مرتفعات « أفغانستان » الشاهقة ، وكان « جلال الدين » حينذاك فى الشمال مشغولا بتعبئة جيش جديد من محاربى الصحراوات التى تحفُّ ببحر « آرال » . غير أننا لا ننسى أن استيلاء الخان على « بخارى » كان حائلا دون الشاه ودون الاتصال برجاله فى الشمال . وخیل للشاه أنه مستطیع أن یدخل إلى الأراضى الأفغانیة فیجمع من قبائل الحدود رجالا من المحاربين یكوّن بهم جيشا جدیدا . وتردّد « الشاه » طویلا فیما یفعل ، ثم اتجه صوب الغرب عابرا الصحارى القاحلة ، یقصد تلك المنطقة الجبلیة الواقعة إلى الشمال من « فارس » . وحين انتهى إلى « نيسابور » خیّل إلیه أن أصبح فى مأمن ، إذ كان بینة و بین الغزاة من « المغول » ما یقرب من خمسمائة میل .

وأدرك « شیبہ » و « سابوتای » مدینة « بلخ » التى كانت سداً منیعا ، تصدّ « المغول » عن عبور نهر « جیحون » فأمرّا مَنْ معهما من الرجال أن یعبروا النهر سابحین بخیلهم ، واصطنع المغول أحواضا كبریة من الخشب غشّوها بجلود البقر حتى لا ینفذ إلیها الماء ، ثم وضعوا فیها سلاحهم وعتادهم وساقوا الخیل أمامهم إلى الماء ممسکین بأذنانهم ، وقد أمسکوا هم بتلك الحیاض ، فكان الفرس یجذب الرجل ، والرجل یجذب الحوض . هكذا عبروا جمیعهم النهر بعتادهم وسلاحهم .

و حين أدركت الجیوش المغولیة « بلخ » وجدت « الشاه » قد خلّف

هذه المدينة أيضًا ، فمضى في إثره « شيبه » و « سابوتاي » نحو الغرب
مسرعين لا يباليان عناء ولا يأبهان بطعام ، يقطعان الصحارى
والفيافي ، إلى أن انتهيا إلى الوديان المزهرة التى تحيط بمدينة « مَرُو »
البيضاء ، وكانا يظنان أن « الشاه » قد استقر بها ولكنها ما كادا
يقتحمان المدينة حتى علما أن الشاه قد تركها إلى « نيسابور » فلم يستقر
لها مقام « بمرُو » ، ومضيا في إثر « الشاه » الفار إلى « نيسابور » ، وما
إن بلغاها حتى علما أنه تركها . وكانت الأنباء قد سبقت « المغول » إلى
« نيسابور » بالنذر والوعيد تشيع عنهم القسوة والوحشية ، فألقى
ذلك الدعر في قلوب الناس وشاع الفزع في المدينة . من أجل ذلك لم
تجد جيوش « المغول » عناء كبيراً فى الاستيلاء على المدينة .

وخرج « سابوتاي » و « شيبه » باحثين عن الشاه حتى بلغا « الرى » .
وفيا هما يسيران لقيًا « ترکان خاتون » أم « الشاه » فى مدينة
« مازندران » ، فأسرأها وبناتها ومن معها من الإماء ، واستوليا على ما
كان فى حوزتها من حلّى وجواهر وثياب ، وأرسلها مع إمائها إلى
« الخان » . وقد بقيت فى حوزة « المغول » إلى أن عادوا بها إلى بلادهم فى
صحراء « الجوبى » . وهناك تزوج « شاطا جاى » إحدى بناتها ، أما
أبناء « الشاه » فقد أمر « الخان » بقتلهم جميعاً على الرغم من حداثة
سنهم .

ومما يؤسف له أن نذكر شيئاً وقع فى مدينة « الرى » ، فقد كان هناك
فى تلك المدينة مذاهب أربعة : الشافعى والحنفى ثم المالكى والحنبل ،

وكان بين أصحاب المذهبين الأولين وأصحاب المذهبين الثانيين خلاف شديد . يجوز هذا بين الناس في وقت السلم ولكنه غير معقول أن يجوز في وقت الحروب والعدو على الأبواب ، وغير معقول أيضاً أن يستعين أصحاب مذهب من هذه المذاهب على غيره بأجنبي ، لا سيما إذا كان ذلك الأجنبي على غير دين . فلقد رأينا أن قاضى القضاة الشافعى - انتقاماً من خصومه الذين هم على دينه لا يفرق بينهم غير اختلاف في المذهب - يسرع فينضم إلى « الخان » ويفتح له الأبواب ليستعين به على أهله وذويه . وهكذا دخل « المغول » المدينة لم يرحموا رجلاً من رجال هذه المذاهب كلها ، وسلطوا السيوف على الرقاب ، فقتلوا خصوم المذهب الشافعى أولاً ليرضوا هذا الخائن بعض الرضى ، ثم انقلبوا فقتلوا أتباع المذهب الشافعى ثانياً ليخلصوا من هؤلاء وهؤلاء ، فهم كما علمت قوم على بداوتهم لا يؤمنون بالخيانة ولا يثقون بالخائن . وخلف « الشاه » كنوزاً لم يلبث « المغول » أن عثروا عليها ، وكان ثم كنوز له أخرى ساقها أمامها لتسبقة إلى بغداد مع أسرته . وكان « الشاه » قد أنسى أنه كان منذ أمد قريب خصماً للخليفة ، ولكنه لم يجد أمامه ملجأ غير هذا ففزع إليه ، وأخذ في طريقه يجمع إليه الرجال من هنا ومن هناك فإذا حوله بضع مئات ، ومضى في الطريق المفضى إلى « بغداد » حتى إذا ما أدرك « همدان » وجد « المغول » من خلفه فتفرق عنه رجاله ، وكادت أن تدركه سهام « المغول » لولا أنه فر متجهاً إلى بحر « قزوين » ومعه نفر من الأتراك الذين عن لهم أن يخونوه في محنته

تلك ، فتركوه حتى نام ورشقوا خيمته بالسهام يريدون القضاء عليه والخلاص منه .

أصبح « الشاه » فرأى هذا بمن كان يتخذهم حاميته ، فقال واليأس يملئ عليه : « أما من بقعة فوق الأرض أجد فيها الأمن والسلامة ! » ، وأقبل إليه رجل من خلصائه يشير عليه أن يركب بحر « قزوين » ويقصد إحدى الجزر ، وهناك سوف يجد مكاناً آمناً يقبع فيه إلى حين حتى يتمكن أبناؤه من تعبئة جيش قوى يستطيع به أن يرد الغزاة . واستجاب « الشاه » وخرج متنكراً ، واجتاز المفازة قاصداً بلدة صغيرة على الشاطئ الغربى لبحر « قزوين » . ولكنه كان ملكاً قبل كل شيء ، وكان عزيزاً عليه أن يخرج عن ملكه على تلك الصورة المشينة ، وأصرَّ على أن يؤمَّ الناس للصلاة في المسجد الجامع .

ولم يعدم « الشاه » أن يجد رجلاً من رجاله حاقداً عليه إذ كان قد أصابه بسوء ، فمضى هذا الرجل إلى « المغول » ووشى بالشاه ، فأسرع « المغول » إلى تلك القرية يمطرونها وابلاً من السهام التى انصبَّت عليها انصباب المطر ، وكان المركب الذى يحمل « الشاه » قد أبعد عن الشاطئ فاندفع بعض الفرسان من « المغول » على ظهور خيلهم فى اليمَّ يريدون أن يلحقوا بالشاه ، ولكن الأمواج طَوَّتْهم ، ونجا « الشاه » منهم .

وعلى الرغم من أن « المغول » لم تقع أيديهم على « الشاه » ، إلا أن « الشاه » كان قد بلغ به المرض والإعياء والضعف حداً بعيداً فقضى

نَحَبَهُ وحيداً بإحدى الجزر التي لا تبعد كثيراً عن ساحل « مازندران » ،
ويحكون أنه لم يجد كفنًا يكفن فيه ، فخلع عليه أحد المقربين إليه قميصه
وكفنه فيه . وقبل أن يمضى « الشاه » للقاء ربه كان قد أوصى لولده
« جلال الدين » بولاية الملك ، وقال في رسالة له إلى أولاده : « لقد
انفصمت عرى المملكة ، وانحلت قواها ، ووهنت أسبابها ، وتهدمت
قواعدها ؛ وهذا العدو قد أنشب أظفاره فيها وقويت كلمته ، وما
أظن من يقدر على الأخذ بالثأر منه إلا ولدى منكبرتى جلال الدين .
وإنى على هذا مؤليه عهدي من بعدى ؛ فالزموا طاعته » .

جوّالة المغول

ما علم القائدان المغوليّان « شيه » و « سابوتاي » أن الشاه الذي يبحثان عنه ويفتشان في مناكب الأرض قد قضى نَحْبَه وحيداً فقيراً بائساً في تلك الجزيرة النائية . وحين يثسا من العثور عليه أرسلوا إلى الخان بما وقعت عليه أيديهما من كنوز للشاه عثرا عليها من هنا وهناك ، كما أرسلوا إليه بمن وقعت عليه أيديهما من أمراء تلك الأسرة المنكوبة ، وأرسلوا مع هذا وذاك رسالة إلى الخان يقولان فيها : « لقد أبحر الشاه على ظهر سفينة يقصد الشرق ، وقد فقدنا الأمل في وجوده » . وحسب « الخان » أيضاً أن « الشاه » لا يزال حياً ، وخشى أن يكون قد قصد إلى الشرق يحاول أن يلقي ابنه « جلال الدين » في مدينة « أورجنش » ، وما إن قرّ في ذهنه هذا حتى بعث جيشاً ليلقى « الشاه » حيث فرّ وحيث قصد .

وقضى « سابوتاي » الشتاء يتنقل في مراعى « قزوين » التي كان الجليد يكسوها ، ثم خطر له بعد ذلك أن يزحف إلى الشمال ملتقاً حول البحر ليلتقى بالخان ، ولكنه قبل أن يفعل أرسل رسوله إلى الخان يطلب إذنه ، وأقر الخان « سابوتاي » على ما طلب ، وبعث إليه ببضعة

آلاف من محاربي « التركمان » ليعزز بها جيشه . وكان « سابوتاي » قد سبق فاختار من قبائل « الأكراذ » - وهم جُفَاة متوحشون - من يأنس فيه أن يكون جنديًا ، فاجتمع له بمن جند وبمن أرسلهم إليه الخان وبمن كان في يده عدد كبير .

وكان « المغول » بعد أن فرغوا من الجنوب قد اتجهوا شمالا صوب « القوقاز » ، فأغاروا على إقليم « الكرج » بعد معارك دامية نشبت بينهم وبين الجنود الكرجيين الشجعان ، وكاد « المغول » أن يرتدوا عن هذا الإقليم ، و « المغول » إذا لم تغنهم قوتهم شيئًا ارتدوا يَحْتَالُونَ ويمكرون ، وهكذا فعلوا بهذا الإقليم كما فعلوا بأقاليم أخرى من قبل ، فاخْتَبَأَ « شيبه » بقواته في جانب الوادي الطويل المفضي إلى مدينة « تفليس » ، وتظاهر « سابوتاي » بالفرار ، فانقضَّ جنود « الكرج » على خصومهم يقتفون أثرهم . عند هذا ظهرت جيوش « شيبه » من مخبئها والتفت بجيش « الكرج » وأعملت فيه السيف فمزقته شرمزق . ومشى « المغول » في زحفهم مجتازين وادي « القوقاز » عابرين بوابة « الإسكندر » الحديدية - وكانت مدينة بناها « الإسكندر » وجعل عليها بابًا من حديد - وما كادت طلائع « المغول » تظهر على المنحدرات الشمالية حتى وجدت أمامها وجهًا لوجه جيشًا قد تألف من سكاك الجبال ما بين « شراكسة » و « قفجاقيين » ، ونظر « المغول » فإذا خصمهم يُرَبِّي عليهم عددًا ، ونظر « المغول » فإذا هم لا يملكور التقهقر . وإذا ضباقت السبل بالمغول وسعتهم الحيلة ، فسرعان م

تراجع « سابوتاي » ، وسرعان ما جرى في إثره جنود « القفجاق » ، وإذا هذا الجيش الكبير الموحد جيشان ، جيش « للقفجاق » في إثر « المغول » ، وجيش للشراكسة ثابت مكانه . وما إن أدرك « المغول » هذا الانقسام في هذا الجيش حتى التف فرسانهم بالشراكسة ، ومضى مشاتهم أمام جنود « القفجاق » معنيين في البراري المألحة فيما وراء « القزوين » واستمروا يجرؤونهم وراءهم إلى بلاد الأمراء « الروس » . وهنا بدا « للمغول » أنهم جروا على أنفسهم شراً جديداً لم يكن في الحسبان ، فقد كان « الروس » يسمعون عن « المغول » ، ويسمعون عن عدوانهم على البلاد الآمنة ؛ فما إن وجدوهم على الحدود حتى هبوا لمحاربتهم فاجتمع لهم جيش من « كييف » وغيرها من البلدان المحيطة بلغ عدده اثنين وثمانين ألفاً من المقاتلين ، وعبر هذا الجيش نهر « الدنيبر » ليلقى هذا العدو المغير ، ولكن « المغول » ما كانوا ليشتبكوا مع عدوهم في حرب في ميدان يختاره العدو ، فانسحبوا وضربوا في الأرض تسعة أيام حتى أدركوا الميدان الذي رأوه صالحاً لتسديد ضرباتهم . وظل القتال بين « الروس » و « المغول » يومين متتاليين لقي بعدهما الأمير الروسي مصرعه ولقى غيره من القواد والجنود مصرعهم ، ومن كُتبت له السلامة من « الروس » - وهم قليلون - عبروا نهر « الدنيبر » مرة ثانية .

وما إن فرغ « سابوتاي » من الروس ومن أنضم إليهم من « القفجاق » حتى مضى ليلحق بزميله « شيبه » . وانضم القائدان

وانضم الجيشان يقصدان شبه جزيرة « القرم » ، وما نسيا « الدنيبر »
وما نسيا تلك المعارك التى نشبت حوله .
وفى الحق لقد كان « المغول » لا تقع أعينهم على أرض إلا تاقوا
لفتحها ، يغريهم المكان بالمكان وكأنهم يريدون أن تكون الدنيا لهم
جميعاً . فلقد فكّر « سابوتاي » وفكّر معه « شيبه » فى أن يعبروا
« الدنيبر » ليغزوا « أوروبا » . فكّرا فى هذا وكانا على وشك أن يهبّا به ،
لولا أن أرسل إليهما الخان - وكان على علم بحركاتهما - يطلب إليهما أن
يعودا ، وأن يلقياه فى مكان حدّده لهما إلى الشرق على بعد ألفى ميل .
وفى طريق العودة قضى « شيبه » نَحْبَه . وما منع ذلك « المغول » فى
رجعتهم أن يغيروا على « البلغار » ، وكانوا ينزلون على ضفاف
« الفولجا » .

وهكذا داس « سابوتاي » هذه الأراضى الفسيحة الممتدة التى تجمع
تسعين درجة من درجات الطول ، لم يمرّ عليها معصوب العينين ولا
مغلق الفكر ، بل رأى وشاهد ودّرّس وتدبّر ، فإذا هو على علم تامّ بما
هنا وبها هناك ، علم مهّد للمغول فيما بعد أن يعودوا بعد بضع سنوات
لينقضّوا على « موسكو » وليعبروا « الدنيبر » وليغزوا شرق أوروبا ،
ثم كانت علاقات تجارية بينهم وبين « جنوا » و « البندقية » .

وبينما كان « شيبه » و « سابوتاي » ينشران الرعب ويخربان ويسلبان
وينهبان غربى بحر « قزوين » ، كان ولدان للخان يمضيان نحو بحر
« آرال » ليتعرّفا خبر الشاه وليضيّقا الخناق عليه . وما لبثا أن علما أن

الشاه قد فارق الدنيا وأنه يرقد في مشواه الأخير ، فمضياً يقطعان الطريق سائرين على شاطئ « جيحون » حتى بلغا مدينة «خوارزم» وهناك التقى جيشان : جيش مغولى يملك الخزم والإرادة ، وجيش وراء أسوار «خوارزم» كله من المرتزقة لا حزم عنده ولا إرادة . ولكن الأهالي عزّ عليهم أن يسلموا مدينتهم ، وعزّ عليهم أن يتركوا أمر الدفاع عنها إلى تلك الحامية المستضعفة ، فوقفوا للمغول صفّاً واحداً . ورأى « المغول » فى الأهالى الإرادة والخزم فتهيئوا لحربهم ونصبوا مجانيقهم . وحين أعوزتهم الحجارة قطعوا الأشجار ، وقطعوا من الأشجار كتلاً ، وأشربوا الكتل ماءً لتثقل وتصلب .

ويشاء القدر أن يقع الخلاف بين « جوشى » و « شاطاجاى » فيطول الحصار ويدخل فى شهره السادس . ولكن سرعان ما يبلغ الخبر الخان ، فيبادر بإرسال جيش آخر يعقد لواءه لابنه الأصغر «أوجتاي» ، ويعيد «أوجتاي» النظام ويوحّد الصفوف ويبدأ الهجوم . وبعد أسبوع سقطت «خوارزم» وما استطاعت أن تقاوم ، وما استطاعت أن تصمد للنقط المشتعل الذى صبّه المغول عليها . ودخل « المغول » «خوارزم» وخرجوا منها بالأسرى والغنائم راجعين إلى حيث يقيم الخان .

* * *

وكان الصيف قد حلّ ، والصيف فى الوديان غيره فى المرتفعات ؛ لهذا فكّر الخان فى أن يريح جنده ، وفى أن يخفف عنهم ، وفى أن يجنبهم قسوة الحر فى الوديان وما اعتادوه ، وأن يخرج بهم إلى المناطق الباردة

فيما وراء نهر « جيحون » ، وأن يتيح لخييلهم أن تستريح وترعى في تلك الوديان الخصيبة .

ولقد كان هذا الموسم - موسم الصيد - لا يقل عند المغول شأنًا عن أية معركة حربية ، وكان الجيش كله بوحداته كلها يشارك فيه ، ينظم لهم هذا دستور موضوع سنّه لهم زعيمهم جنكيز خان ، ويمضون في صيدهم هذا عنه لا يحيدون . وكان « جوشي » أمير الصيد عندها غير حاضر إذ أرسله الخان بعيداً في شأن من شئونه الخطيرة ، فقام نائبه يحدد الميدان وسط الجبال ويبين معالمه ، واضعاً عمداً عند أماكن البدء ، لكل كتيبة عمود تتدلى منه أشرطة تتميز عن غيرها . وكما يفعل هذا في أمكنة الابتداء يفعل مثله في أمكنة الانتهاء .

وتصطف السرايا في نظام دقيق ثم تنقسم شطرين ، شطر إلى اليمين وشرط إلى الشمال في تنسيق رائع ، ويمضى كل شطر إلى غاية يقف عندها . ويتلبث هذا الشرط وذاك مكانه يرقبان وصول الخان ، ويهلّ الخان ومن حوله النافخون في الأبواق وقارعو الطبول . وإذا جيشه من حوله في نصف دائرة قد طوت ما يربى على ثمانين ميلاً . ويشير الخان بيده فيبدأ الصيد وتنطلق الخيل بفرسانها عليهم دروع قد جُذلت من الأغصان وفي أيديهم السلاح يقصدون أن يثيروا الحيوان أمامهم .

ويندفع الفرسان وسط الأجاث والأدغال ، يهبطون الأنخايد ويعلون الرُبى ، تسمع لهم صراخاً حين تقع أبصارهم على النمور والذئاب وهى تطل برءوسها من خلل الأجاث . وما يكاد ينصرم

الشهر حتى يكون قد اجتمع بين أيديهم أعداد عديدة من الحيوان .
ويُضَيَّقُ الفرسان الخناق على تلك الأعداد من الحيوان شيئاً فشيئاً ، فإذا
هم آخر الأمر قد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وإذا هو لا يجد له
من بين صفوفهم المتراصة منفذاً ، وإذا ما تعثر منه شيء دفعوه أمامهم
يستحثونه ، وكلما توارى منه شيء أثاروه ليخرج من مخبئه ، وهم
يفعلون هذا كله دون أن ينالوا هذا الحيوان بأذى ، إذ كان دستورهم
يحرم عليهم أن يشهروا السلاح على الحيوان أثناء مطاردته .

وإذا ما استدار الفرسان بالصيد تقدم الخان ليلقى وجهها لوجه أشد
الحيوان شراسة وأجراًها افتراساً فيصوّب إليه سهمه . ويكون هذا
إيذاناً منه باستخدام السلاح . فيعدو الفرسان في إثره يقتلون والخان
مشرف عليهم من فوق ربوة عالية . وقد تمتد هذه المذبحة يوماً بأكمله
إلى أن يتقدم أحفاد الخان وأبناءؤه يطلبون منه الإبقاء على بعض
الحيوان . وحين يستجيب الخان لهم ، يقف الذبح وينصرف القوم
يجمعون ما قتل . .

ومضى الخان بجيوشه نحواً من أربعة أشهر في هذا التدريب
القاسى ، الذى كان « المغول » يقصدون به إعداد أنفسهم إعداداً قوياً ،
فمن قوى على مجابهة الحيوان المفترس قوى على مجابهة الإنسان الوداع .
ثم رأى « الخان » أن يعدّ العدة للخريف وما سيكون فيه من حروب ،
وعاد ليلقى « جوشى » و « شاطاجاى » وهما يحملان إليه نبأ وفاة
« الشاه » .

* * *

وعلى حين كان الخان يفعل هذا كان « جلال الدين » السلطان الجديد يهيئ نفسه لحرب جديدة ، ويجمع لتلك الحرب جيشاً جديداً . وانتهى إلى الخان أن ثمة قوات فيما وراء الأفق تتجمع للقاءه . وكان المسلمون حين فقدوا الشاه ، وفقدوا قبل الشاه اثنين من أبنائه في المعركة ، وفقدوا قبل هذا الكثير من قادتهم وأمرائهم ورجالهم وأبنائهم ، وفقدوا مع هذا ديارهم وثرواتهم ، ثم أصيبوا في أعضائهم . كان المسلمون لهذا الذي فقدوا ولهذا الذي أصيبوا به ينقمون على « المغول » ويرون أن عليهم واجباً مقدساً لا بد من حمله . لهذا تجمّعوا ، فكان لهم جيش جديد على رأسه قادة جدد من أمراء الفرس .

وأحسّ الخان تلك الروح العالية في قلوب المسلمين ، وأحس ذلك التجمع السريع فقدر الأمر قدره وبات يتدبّر موقفه . لقد كانت جيوش المسلمين هذه المرة تبلغ المليون في عُدّة كاملة ، ولكنها كانت تعوزها قيادة قادرة . وكانت جيوش الخان لا تتجاوز مائة ألف ، وكانت ثمة قبائل من « الأويغور » قد طلبوا إليه أن يعودوا إلى « تيان شان » فسمح لهم ، وكان الخان إلى ذلك قد فقد بعض قواده وأحس أنه في حاجة إلى جمع من « الأرخونات » يكونون إلى جواره . ولكنه على هذا عقد العزم على أن يجمع أمره وينظم صفوفه ويهيئ الجيش للحرب ، وخرج زاحفاً وهمّة القضاء على كل من يلقاه .

نحو خراسان

سم « الجنكيز خان » الاستيلاء على إقليم « ما وراء النهر » و«خوارزم» وأصبح بهذا يحيط بإقليم « خراسان » ، هذا الإقليم الذى كان يطمع الخان فى الاستيلاء عليه وأن يجعله هدفه الثانى . من أجل ذلك أرسل الخان ابنه على رأس جيش كبير إلى « خراسان » ، وما إن تولى ابنه قيادة الجيش الداهب إلى « خراسان » حتى أرسل طليعة له من عشرة آلاف مقاتل تحت إمرة « توجاشر » الذى كان زوجاً لابنة الخان . وأدرك هذا القائد مدينة « نسا » ، وقاومت « نسا » واستطاعت حاميته أن تقتل جملة كبيرة من الجيش المهاجم . « والمغول » - كما نعلم - فيهم عناد وفيهم جلد ، فما راعهم هذا العدد الكبير الذى قتل منهم ، فلقد جربوا القتال وعلموا أن الضحايا الأولى وإن كثرت لا تعنى أنهم المغلوبون وأن خصمهم هو الغالب ، فطوّقوا المدينة يضربون عليها الحصار . ونصبوا حولها المجانيق ، ودام الحصار أسبوعين استطاع « المغول » بعدهما أن يحدثوا ثغرة فى سور المدينة نفذوا منها ليلاً ، وما أصبح الصبح إلا وكان « المغول » داخل الأسوار يملثون ساحات المدينة وكأنهم قطعان الماشية يسوقها الرعاة ، ولم تمتد يد « المغول » أول

الأمر بالسلب والنهب ، فاجتمع إليهم أهل المدينة رجالاً ونساء وصبياناً مخدوعين بهذا الذى رأوا ، ظانين أنهم بين يدى جيش آخر غير هذا الجيش الذى سمعوا عنه من قبل ، فإذا ما اطمأنوا شيئاً ألقى «المغول» إليهم أمراً غريباً . لقد رأى المغول هذه المرة ألا يكلفوا أنفسهم عناء النبل من خصومهم وأحبوا أن يكلفوا خصومهم أن ينال بعضهم من بعض ، وأن يقتل بعضهم بعضاً . ولقد كانت كبيرة على إخوان مسلمين أن يفعلوها بإخوان لهم مسلمين ، ولكنهم فعلوها مكرهين متراخين ، ولكن «المغول» لم يرضهم من أعدائهم هذا التراخى فى القتل ، وهذا اللين فى الإيذاء ، فهبوا هم يفعلون ما لم تقو عليه تلك الأيدى المضطرة المكروهة ، فقتلوا وأسرفوا فى القتل ، لم يرحموا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة ، فإذا المقتولون بيد المغول سبعين ألفاً . ولو قُدر لأهالى «نسا» أن ينجوا بأنفسهم وألا يُخدعوا بها خُدعوا به وولّوا وجوههم شطر الجبل القريب لوجدوا من كهوفه ومغاراته وشعابه مكاناً آمناً .

ويحدثنا التاريخ أن المؤرخ الكبير «محمد النسوى» الذى أُرّخ «جلال الدين» فرّمع الناس إلى قلعة حصينة من قلاع «خراسان» . ويحدثنا التاريخ نقلاً عن هذا المؤرخ ما نحب أن نسوقه إليك ، فلقد قال :

«بعد سقوط «نسا» لجأتُ إلى قلعة مشيدة على قمة من قمم الجبال الصخرية المرتفعة ، وكانت من أقوى قلاع «خراسان» وأمنعها ،

وكانت تتوسط الإقليم . من أجل ذلك عُدَّت مأوى يلجأ إليه الفارون
أمام هذا الزحف القاسى . ولم يمض غير قليل حتى ظهر « التتر » أمام
القلعة ، غير أنهم وجدوها منيعة حصينة ليس من الهين الاستيلاء
عليها ، ولم يرغبوا فى أن يرتدُّوا دون أن يغنموا شيئاً ، فطلبوا أن يُعطوا
عشرة آلاف من الأثواب القطنية ، كما طلبوا غير ذلك من نفائس
«نسا» ، وأجبَّتهم إلى طلبهم وجمعت لهم ما أرادوا . ثم كانت
المشكلة ، مَنْ يا تُرى هذا الشخص الذى يقبل أن يحمل « للمغول » ما
طلبوا ؟ فلقد كان الناس يعلمون أن المغول خونة لا يُقدِّرون العهود
ولا يرفعون الذمم . وتقدَّم منى شيخان وطلبا إلى أن يكونا رسولين إلى
« المغول » يريدان أن يخلِّصا المدينة من هذا الشر المحيط مضحيين
بحياتيهما ، فلقد كانا يعلمان أنها غير راجعين ، واستودعانى أطفالهما
وأوصيانى بهم ، وأكبرت الشيخين على هذا البذل . وانفصلا عنى إلى
« المغول » ، غير أن الأمر وقع كما قدرنا وقدَّر هذان الشيخان ، فلقد
قتلها المغول وقطعوا رقبتيهما .

* * *

وعاث « المغول » فى « خراسان » يسلبون وينهبون ويخربون ، لا
تقع أيديهم على شىء إلا أخذوه إن خفَّ عليهم حمله ، أو أحرقوه
وأتلفوه إن ثقل عليهم حمله . يسوقون أمامهم الأهلى سَوْقاً
ليتقدموهم إلى المدن الأخرى التى يريدون غزوها ؛ يُسَخِّرونهم أولاً فى
حمل الأثقال وفى شئون أخرى من شئون الحرب ، ولينشروا بهم الذعر

والياس بين الناس . وكان « المغول » لا يفرقون بين نبيل وفقير ،
يضمونهم جميعاً جنباً إلى جنب ويكلفونهم جميعاً عملاً واحداً لا تفرقة
بينهم ، والويل لمن يخالف عن أمرهم .

* * *

وأراد الخان أن يغزو « فارس » فاختر لذلك جيشاً ، وولى عليه ابنه
الأصغر « تولى » وأمره أبوه أن يتعقب « جلال الدين » فى طريقه ، غير
أن الأمير الخوارزمى استطاع أن يفلت منه . ومضى الجيش المغولى
نحو « مَرُو » ، تلك المدينة التى كانت جوهرة وسط رمال الصحراء ،
وكانت مقراً للهو الأمراء ومتعة العظماء ، يمرّ بها نهر « مرغ آب » ،
وكانت تضم مكتبات فيها آلاف المخطوطات .

وفىما كان « المغول » فى طريقهم إلى « مَرُو » وقعوا على جماعة من
« التركمان » كانوا قد غنموا من « مَرُو » أشياء منتهزين تلك المحنة التى
حلّت بها ، فأوقع بهم « المغول » وسلبوهم ما معهم .

وأشرف « المغول » على « مرو » ووقفوا بين يدى أسوارها
يتحسسون ثغرة . وكما مئى المغول أمام أسوار « نسا » مئى أمام أسوار
« مرو » بقتل عدد من رجالهم ، فثارت ثورة « تولى » وأقام جسراً من
الطين يريد أن يعبر عليه إلى المدينة ومن ورائه رماة السهام يحمون تقدم
الجنود العابرين ، ودامت المعركة اثنين وعشرين يوماً . ولكن المدينة -
فيما يبدو - كانت قد تعرضت حاميته لشيء من الوهن و شيء من

الضعف ، يشير إلى ذلك ما يُروى من أن رجلا من أئمة المسلمين خرج
خلسة من المدينة يقصد «المغول» يريد أن يفاوضهم على الصلح .
ويسروون أن هذا الإمام لم يخرج إلى «المغول» بعلم الأهلين وإنما كان
ذلك بعلم الحاكم ، فهو الذى أرسله ليتعرف ما عند «المغول» من
استعداد لهذا السلم ، وكان «المغول» مكررة كعادتهم ، فلقد رحبوا
بهذا الإمام وقبلوا ما حمل إليهم من هدايا وأهدوا إليه مثلها ، وأمعن
«تولى» فى إكرام الإمام فدعاه إلى أن يأكل معه ليملأ قلبه طمأنينة ، ثم
طلب إلى هذا الإمام أن يبعث إلى أصحابه فى المدينة فيدعوهم
ليحدثهم . وخذع الإمام وبعث فى طلب أصحابه وأجلسهم «تولى»
حوله يظهر لهم الودّ ويضفى عليهم الأنس ، وأخذوا فى الحديث ،
يحدثون ابن الخان ويحدثهم ، حتى إذا ما أنسوا أنفسهم وأنسوا أنهم بين
يدى عدوهم ، طلب إليهم «تولى» أن يمدّوه بقائمة فيها ستائة رجل
من أغنى رجال «مرو» . وأجاب المسلمون وكتبوا ما أَراده منهم ابن
الخان ، وعاد هؤلاء الأغرار إلى المدينة ليجدوا جيوش «المغول» فى
إثرهم شاهرة سيوفها لتفتك بهم ، ودخل «المغول» ساحة المدينة
يطلبون أولئك الأغنياء بأسمائهم ، وكان لزاماً على هؤلاء الأغنياء أن
يخرجوا ، فأسرهم «المغول» ، ثم انتشروا فى أنحاء المدينة يأمرون
السكان بالخروج إلى العراء أجمعين ، معهم نساؤهم وأولادهم حاملين
كل ما يستطيعون حمله . وهكذا أجلى «المغول» أهل المدينة كلهم من
مساكنهم فى ساعات قليلة .

وجلس « تولى » ليشهد مصرع قادة المسلمين وضباطهم وفرسانهم ،
وليشهد تلك الأوامر التى أمر بها أن تنفذ فى الأهالى ، فلقد أمر « تولى »
بأن يُقسَّم الأهالى إلى فئات ثلاث : الرجال فى ناحية ، والنساء فى
ناحية ، والأطفال فى ناحية ثالثة ؛ ثم أرغموا الرجال على الرقاد على
الأرض وأيديهم وراء ظهورهم ، وانطلق المغول بين صفوف هؤلاء
الرجال المنبطحين على الأرض يقتلون ويذبحون ، لم يبقوا منهم غير فئة
قليلة من الصناع لحاجة الجيش إليهم . وأخذوا الأطفال عبيداً ،
وانفردوا بالأغنياء الذين كتبوا أسماءهم فأخذوا يعذبونهم ليدلّوا على
كنوزهم ، وبعد أن نكّلوا ما شاءوا أن ينكّلوا وسلبوا ما شاءوا أن
يسلبوا خرجوا عن المدينة ، ولكنهم عزّ عليهم أن يخرجوا عنها دون أن
يهدموا أسوارها ويشعلوا النار فى بيوتها .

ويحدّث المؤرخون أن من بقوا أحياء من سكان تلك المدينة لم
يجاوزوا الخمسة الآلاف عدداً ، أبقى عليهم حياتهم أنهم لاذوا بالأقبية
والمخابىء فامتنعوا بذلك عن أن تقع عليهم عيون « المغول » .
والمؤرخون يروون أيضاً أن « المغول » بعد أن خرجوا من المدينة عادوا
إليها لا لشيء إلا ليستوثقوا من أنهم لم يُبقوا بها حياً .

* * *

وهكذا كان شأن « المغول » فى « مرّو » وفى غير « مرّو » من المدن
التي مرّوا بها ، حتى لقد كان الناس يلقون بأنفسهم بين جثث الموتى

والقتلى لينجوا من موت محقق ، وأحسَّ « المغول » حيلة القوم فإذا هم لا يتركون القتلى ولا الموتى دون أن يقطعوا رؤوسهم ويفصلوها عن أجسامهم استيثاقاً منهم بأنه ليس على الأرض حىّ بين تلك الجثث الراقدة .

لم يكن « المغول » فاتحين ولم يكونوا محاربين بالمعنى الذى نفهمه للفاتح وللمحارب ، ولكنهم كانوا قتلة سفاكين ، بينهم وبين الأدميين ثار لا يهدأ ونهم لا يشبع ، فلقد كانت كل تلك الألوان من القسوة لا تطفى ظمأهم إلى الدماء . فيروون عنهم أنهم فى حرب من حروبهم التى قتلوا فيها فأسرفوا وفرّ الناس عنهم خائفين وجلين يبحثون عن مأوى يختفون فيه - وحسب المحارب النبيل أن يخضع الأهالى له هذا الخضوع وأن يفرّوا عنه ، ولكن « المغول » كانوا محاربين لا يتصفون بنبل - عزّ عليهم أن يفرّ عنهم الناس دون أن ينالوا من رقابهم ، فاضطروا مؤذّن المدينة إلى أن يعتلى المئذنة وينادى للصلاة ، وحسب الناس أن المغول ولّوا وأن الدنيا عادت أمناً ، فخرجوا من مخابئهم يلبّون صوت المؤذّن ، فإذا هم يلقون المغول بسيوفهم المشرعة ويلقون القتل على أيديهم .

وإمعاناً فى التخريب وإمعاناً فى القتل والدمار ، كان المغول لا يتركون المدينة دون أن يحرقوا ما بها من طعام ، ليأمنوا أن من سلّم من الموت على أيديهم لا يسلم من الموت جوعاً . وفى « خوارزم » لا ينسى التاريخ ما فعله المغول بعد القتل والنهب والسلب حين فتحوا السد

الذى يحجز مياه نهر « جيحون » فطفت مياهه على المدينة فأغرقتها وتركها بحيرة ماء .

وما نعلم أن الذين نجوا من بطش « المغول » عاشوا أصحاء ولا عاشوا مالكين لقواهم العقلية ولا عاشوا بنفوس هادئة مطمئنة . وفى الحق لقد أساء « المغول » إلى المجتمع الإنسانى فعطلوا حضارته ، وكادوا أن يقضوا على الجنس البشرى وتركوا من تركوا بنفوس هالعة وقلوب غير مطمئنة .

والغريب أن هذا الخان لم يرتكب مثل هذه القسوة فى حروبه الأولى فى صحراء « الجوبى » أو بأرض « الخطاى » ، ولكنه فعل تلك الأفعال الشنيعة بالمسلمين وبالبلاد الإسلامية ، وكأنه أراد أن يثبت بحق أنه نقمة السماء على هؤلاء ، ولقد وجدناه يلوم ابنه « تولى » على تأمينه أهل « هراة » وعلى تركه عشرة آلاف من جنود « جلال الدين » دون أن يقتلهم .

قد يقولون إن أهل « هراة » لم يراعوا هذا الصنيع الجميل الذى فعله بهم « تولى » فثاروا بالمغول ، ولكن ذلك القول لا يمكن أن يكون عذراً للخان فيما فعل ، فما يلام المغلوب على حقه حين يثور لحقه ، ولكن الملموم هو هذا المعتدى حين يعتدى أولاً وحين يقسو ثانياً . ثم إن الخان وإن كان قد كسب أرضاً فقد خسر قلوباً وأحرق العالم كله عليه فوقف له هذا العالم بالمرصاد ليحول بينه وبين طغيانه .

* * *

ويذكر التاريخ أن قبيلة « التركمان » كانت تقطن قرب « مَرُو » ثم فرّت عنها فزعاً حين غزا « المغول » « مرو » ومضت إلى « أرمينيا » . ثم يروى التاريخ أن المغول بعد أعوام بلغوا « أرمينيا » فخرجت عنها قبيلة « التركمان » حتى بلغت آسيا الصغرى وألقت فيها عصا الترحال ، وكان عليها زعيم هو « أرطغرل » الذي ما إن لقي ربه حتى انتقلت الزعامة إلى ابنه « عثمان » الذي أسس دولة على أنقاض الدولة السلجوقية عرفت باسم الدولة العثمانية .

وحلّ الصيف فاتجه الخان بجزء من جيشه إلى مرتفعات « هندوكوش » شمالى « الهند » ، وهناك أباح لجنده أن يستريحوا وأن يأخذوا في اللهو . وجلس الخان يفكر في أمره ويفكر في أن عليه مهمة ثقيلة هي إدارة هذا الملك الواسع ، ويفكر في أن الأمر لا يمكن أن يتم له عن طريق المراسلات بل عليه أن يجمع إليه الخانات يشاورهم في الأمر . من أجل ذلك فكّر الخان في دعوة مجمع الخانات على أن يكون الاجتماع في « هندوكوش » .

جلال الدين

ويحلُّ الخريف ويبدأ « المغول » يتحركون للحرب ، فلقد ثارت « هراة » وغير « هراة » من المدن التي لقيت شيئاً من شر « المغول » أو سمعت بشيء من ذلك الشر . وانتهى إلى الخان وهو في « هندوكوش » أن « جلال الدين » يتهياً لحربه ، وأنه يعدُّ العُدَّة لإعداد جيش في الشرق . وعزم الخان عندما انتهت إليه هذه الأنباء أن يبعث ابنه « تولى » على رأس جيش ليلقى الأمير وليؤدب العصاة ، غيّر أنه رجع عن عزمه ، وبدلاً من أن يرسل جيشاً إلى الشرق أرسله إلى الغرب صوب « خراسان » .

ونخرج « جنكيز خان » على رأس ستين ألفاً من المقاتلين ليلقى هذا الجيش الجديد يقوده الشاه ويتولى القضاء عليه ، ومرّ الخان في طريقه بمدينة « باميان » فطوّقها بحصاره ، وكانت مدينة منيعة فتلبّث أمامها أياماً . وحرصاً منه على لقاء الشاه أرسل قائداً من قواده للمضى في إثر الشاه .

وتجىء الأنباء إلى الخان بأن الجيشين قد التقيا : جيش « المغول » وجيش الشاه ، وأن جيش الشاه قوامه ستون ألفاً من المقاتلين ، وأن

الشاه كاد يوقع بالقائد المغولى . ولم تكن كل تلك الأنباء التى انتهت إلى الخان عن الشاه صحيحة ، فلقد حدث أن جيشاً من الأفغان انضم إلى « جلال الدين » ، وحدث بعد هذا أن « الأتراك » و « الأفغان » ثاروا بالأرخون المغولى وشتتوا رجاله فى الجبال ، وكان هذا كل ما وقع فلم يجتمع للشاه جيش من ستين ألفاً كما ذاع ، ولم يشتبك الشاه مع القائد المغولى كما بلغ الخان ، ولكن « جنكيز خان » على هذا لم يعنه أن ما نُقل إليه حقٌّ أم باطل ، وحسبه أن قد علم أن هناك ثورة وأن هناك تجمعات ضده ، وأن هذا وذاك كفيلا بأن يحركاه إلى أن ينتقم فيعنف فى الانتقام .

وكان « جنكيز خان » قد خرج هذه المرة دون أن يتزوّد بعتاده الحربى المعهود ، حتى إن « المغول » تعرضوا لكثير من المحن فى حربهم هذه ، ولكن الخان كان ذا عزيمة قوية ، وكان ذا بطش قاس فلم يثن ، وأمر رجاله أن يزحفوا على « باميان » زحفة رجل واحد ، فإذا « باميان » فى أيديهم بعد لحظات . وعلى مألوف « المغول » انطلقوا فى المدينة يذبحون ويقتلون ويهدمون المساجد والقصور ، وتركوا « باميان » ثكلى تنعى من بناها . ولم يكن غريباً بعد أن تُسمى « باميان » « مدينة الأحرار » ، فإنهم يروون أنها ظلت خمس سنين ليس فيها إنسان .

وتلبّث « جنكيز خان » قليلاً ليستريح من هذا الأثم وليجمع جيشه الذى كان موزعاً فى شعاب الجبال ، ثم خرج به بعد أن التأم صفوفه وتضامّت وحداته . وكان « الشاه » قد ظفر بجيش « للمغول » سبق

إليه فشئت شمله في موقعة نكراء ، غير أن جنده ما لبثوا أن دبّ
الخلاف بينهم على الأسلاب ، فإذا هم منقسمون على أنفسهم ، وإذا
« الغوريون » الذين كانوا معه ينفصلون عنه ، وجهد الشاه في أن يعيد
الأمور إلى نصابها ، وقد أفلح ولكن بعد جهد جيد . وارتد الشاه شرقاً
إلى « غزنه » يستعد لملاقاة « المغول » ، ولكن « المغول » كانوا له
بالمرصاد فقد قطعوا على رسله السبيل ، وكان الشاه قد أرسلهم يأتونه
بمدد جديد ، فسدّ « المغول » على هؤلاء الرسل الطريق وحالوا بينهم
وبين ما يريدون .

وأسرع الشاه بجيشه - وكان قوامه ثلاثين ألفاً من المقاتلين - يعبر به
جبال « السند » ، وكان أمله أن يعبر النهر لينضم بقواته إلى قوات
« دلهي » ، ولكن « المغول » كانوا منه قاب قوسين أو أدنى ، فأحاطوا
بالشاه وجيوشه ، وعرج الشاه نحو النهر يريد أن يعبره ، فإذا هو بين
يدى مكان عميق عسير عليه عبوره ، وإذا الجبل عن يساره والنهر عن
يمينه و« المغول » أمامه . ورأى « الشاه » هذا الحرج وخاف أن يدرك
اليأس جنوده فيركنوا إلى الفرار ، فأمر فأحرقت السفن حتى لا يمكن
من تطاوعه نفسه بالفرار أن يفرّ .

وأطلّ الفجر واندفعت جيوش المغول زاحفة يتقدمهم الخان . وكما
تقدم الخان جيشه تقدم الشاه جيشه ، واشتبك الجيشان ، يهجم الجناح
الأيمن من جيش الخان على الجناح الأيسر من جيش الشاه فيرده ،
وكان ينبغي أن يبلغ النهر فيلتف بجيش الشاه . وهكذا ثبت جيش

المسلمين لجيش «المغول» . ويحمل الشاه حملة صادقة على قلب الجيش المغولي فيمزقه بَدَدًا ، ويُطمعه هذا النصر في أن يوغل في التقدم بحثًا عن الخان . ويدرك الخان الشر ، وكان جواده قد صُرع تحته ، فيمتطى غيره ويتحول عن مكانه إلى مكان آخر .

وفي الحق لقد كانت فرصة مواتية للنصر أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا ، وارتفعت فيها أصواتهم بالتهليل والتكبير وساد الفزع قلوب «المغول» ، ولكن المسلمين كانوا قد سحبوا بعض قواتهم من فوق المرتفعات ، ورأى الخان العجز هذه الفرصة فاستغلها وأمر قائداً من قواده هو «بيلانويون» بأن يمضى إلى تلك الأماكن التى انسحب عنها المسلمون ، يريد بذلك أن يَمَكِّنَ لنفسه من أن يلتف بالمسلمين بتلك الحركة التقليدية «التولوغما» . وتمَّ «للمغول» ما أرادوا على الرغم مما لقي هذا الجيش المتقدم من ويلات ونكبات ، وتدفق الجنود الذين اعتكّلوا شعاب الجبال يريدون أن يلتفوا بالمسلمين . وهكذا تم «للمغول» أن يفصلوا ما بين وحدات المسلمين ، وانقلبت المعركة رأساً على عقب ، فإذا المسلمون محوطين بـ «المغول» ، وإذا الشاه يفكر في الانسحاب بـرجاله إلى النهر . ولكن عدوه كان أسرع منه إلى النهر فقطع عليه السبيل ، وإذا الشاه يبلغ النهر وحده لا يجد إلى جانبه إلا عدداً قليلاً من أتباعه ، وحين أدرك أنهم سيلحقون به تخفف من سلاحه وامتطى جواده ورمى بنفسه في النهر يريد أن يبلغ الضفة الأخرى ، والخان ينظر إليه في حسرة ، إذ وجده قد أفلت من يده ،

غير أنه كان مُعجبًا بشجاعته . ولقد رووا عنه أنه في غمرة هذا الإعجاب قال : « ما أسعد من يلد مثل هذا الابن » . ويحدث التاريخ أن الشاه كان حريصًا على هذا الجواد الذى نجا به وخلّصه من هذا المازق الحرج ، وظل محتفظًا به لم يمتطه إلا حين استعاد سلطانه بعد عودة «جنكيز خان» إلى أرضه .



وما من شك في أن الشاه قد خسر كثيرًا من جنده في الميدان قتلا ، وخسر كثيرًا من جنده في النهر غرقا ، وخسر ابنه الصبى الذى كان عنده في السابعة من عمره ، فقد وقع في يد الخان فقتله الخان ولم يرحم صباه .

وما سكّنت الخان عن تتبّع الشاه ، ففي اليوم التالى أرسل فرقة في إثره فعبرت النهر ودمّرت في طريقها قرى وقتلت أناسًا ، ولكن تلك الفرقة لم تقوَ على جوّ تلك البلاد ولم تقوَ على أمراضها فعادت تنذر الخان بالويل إن هو بقى ، فلقد نقلوا إليه فيما نقلوا أنهم رأوا حيوانًا مخيفًا أخضر اللون له قرن واحد وذيل يشبه ذيل الحصان وأنه يستطيع أن يحكى صوت الإنسان ، وحين رآهم ذلك الحيوان صاح فيهم محذرا بأن يرحلوا . وصدّق الخان ما سمع ودعا إليه رجلا يثق به هو « بى لوتشوساى » يسأله عن تفسير ذلك . ويقول المؤرخون إن هذا الرجل قال له : « إن ذلك الحيوان هو « كيو توان » الذى يجيد جميع لغات العالم يجب البشر ويفزع من رؤية الدماء ، وحديثه هذا هو نذير لك أيها

الخان ، وأنت يا مولاي أكبر أبناء السماء ، والشعب والناس أبناؤك ، وهو يطلب إليك العطف الذى ألهمتك إياه السماء لنفع الجنس البشرى» .

والمؤرخون الذين يروون هذا يزعمون أن عدول الخان عن غزو الهند كان لذلك السبب . .

* * *

وحين أفلت الشاه وعبر نهر « السند » بمن معه كانوا لا طعام لهم ولا مأوى فأغاروا يقتاتون ويطعمون . وظل الشاه بمن معه يتنقل بين ربوع الهند حتى بلغ « دلهى » ، وهناك أبى أمير « دلهى » أن يجبر الشاه خوفاً من بطش « المغول » ، وطلب إليه أن ير حل عنه بعد أن زوّده بالهدايا ونصحه بأن يقصد إلى « مولتان » التى على نهر « السند » .

لقد كانت موقعه « السند » هى المعركة الأخيرة التى خاضها فرسان «خوارزم» ، كما كانت سبباً فى تفكير الخان فى أن يعود إلى صحراء «الجوبى» . فقد بدأ النزاع يدبّ بين مجمع الخانات كما بدأت الثورة تهبّج فى مملكة « هيا » . وعاد الخان يشق طرقاً جبلية وعرة ، غير أنه فى طريقه أغار على مدينة « بشاور » ثم خلفها إلى « سمرقند » فبلغها فى خريف ١٢٢١ ليجدها خربة قد يبست أشجارها وتهدمت قصورها وتقوّضت مساجدها ، ونظر إليها الخان وفى قلبه شىء من أسى ، ووجد الحكيم «بى لوتشوساى» الفرصة سانحة لأن ينصح الخان فتقدم منه يقول : «لقد آن أن نضع حداً لتلك المذابح يا مولاي» .

وكان من بين الأسرى « الذين وقعوا في يد الخان إمام مدينة « هراة »
وكان حاضراً هذا الحديث فاشترك فيه والتفت إلى الخان يقول له : « إن
ما فعله حاكم « أوترار » بالتجار كان غدرًا من الغدر » ، يريد ذلك
الإمام أن يلين قلب الخان بعد ما وجده قد لان شيئاً عند سماعه كلمة
الحكيم الصيني . والتفت الخان إلى هذا الإمام يقول له : « وهل يبقى
اسمى خالداً بعد موتى » وأجابه الإمام - وكان حكيماً لبقاً - : « إنما
يبقى الاسم ما بقى السكان » .

عندها رقى « جنكيز خان » شيئاً وأقام على « سمرقند » حاكماً من
أهلها ، وأشرك « المغول » مع الأهلين في إدارة شئون البلاد ، ولكنه
اشتراط عليهم أن يجعلوا « الياسة » قانونهم .

ولكن ما كاد الخان يخرج عن المدينة ، وما كاد يمضى بعيداً حتى
ارتدت إليه قسوته ، فإذا هو يأمر بقتل الأسرى كلهم ، وإذا هو يقضى
على جموع كثيرة كانت تمضى في إثر الجيش المغولى ، ثم حمل معه نساء
المسلمين إلى صحرائه بعد أن تركهن يُلقين آخر نظرة على أرضهن .

دستان انجام دادند و بهر طرب و عیش و نشاط سرور و بهار داد از خون انا مار دای فرار سنی زانند در و غزلایان جمله مرانز باس
 درگاهان . . . قریب فرموده بود خاندان دینعلی و مجرب صنی نام داشت و مملو طایفه نمایم آن از اوای روز و نو رسم مجاورتین صنیتم آن
 در و رویی نهایت سعادت و آنرا بر اثر داشت و مجلس را با نواح تعلقات جارا شدند و هر . . . است از این بدین داشته مبارکی و طالع سعد و تخت بخاری
 رسید تا سقاری نشست و در این و نمازگان و ارا که حاضر بودند و تمامت ارکان دولت و احیان حضرت و عول و یکام اطراف جامع کشته نامتد فرسر
 : بحرین شمس رسا نیندوان



«جامع التواریخ» لرشید الدین هراة ۱۴۲۵ م هولاکو و زوجته
 فی مجلس انس و طرب . دار الکتب القومية بیاریس



«جامع التواريخ» لرشد الدين هرة ١٤٢٥ م المغول يسوقون الأسرى
دار الكتب القومية بباريس.



«جامع التواريخ» لرشد الدين هرة ١٤٢٥ م هو لأكو بناصر مدينة بغداد
دار الكتب القومية بباريس



شاهنشاهنامه . شیراز ۱۳۹۷ م الخلیفة المعتصم بین یدی هولاکو -

المتحف البریطانی

نهاية محارب

لقد بدأ الوهن يدبُّ في جسد هذا المغولى الهَرَم ، فلقد جعلت السنون وجهه الغليظ وانحطَّت قواه وفقد حيويته وأخذت جراحاته القديمة تلحُّ عليه وتنغص عليه راحته ، وأدرك الخان أنه ميت ، وأن منيته قد قُربت ، فأرسل رسله يدعو إليه كبار ضباطه لحضور مؤتمر كبير على ضفاف نهر «سيحون» ، في ذلك المكان الذى نفذ منه أول مرة إلى «خوارزم» . وكان الوقت في مستهل الربيع ، ذلك الشهر الذى جرت العادة بأن ينعقد «الكورلتاي» فيه .

واجتمع إليه قواده من الشرق والغرب بعد أن قطعوا مسافات طويلة ورحلات شاقة . وجاء إليه ابنه «تولى» من خراسان «يجر وراءه قوافل ممتدة من الجمال البيضاء ، بينما انحدر إليه «شاطا جاي» من قمم الجبال الثلجية يسوق أمامه مائة ألف جواد ، ومن هضبة «تيان شان» حضر إليه زعيم «الأويجور» أعز حليف للخان ، كما وفد إليه زعماء «القرغيز» و«شيوخ» التركمان .

واجتمع «الكورلتاي» في سرادق أبيض ممتد وسع ألفاً من الرجال ، وقدم القادة والأمراء الهدايا من مختلف الأنواع إلى الخان

الذى جلس فوق عرش الشاه « علاء الدين » وكان قد حمله معه من « سمرقند » ووضع إلى جانبه صولجان الشاه الراحل وتاجه ، وفرش تحت عرشه اللباد الرمادى المنسوج من وبر الحيوان رمزاً لسيطرته على « الجوبى » .

وأخذ الخان يقصّ على المجتمعين أخبار حروبه ومعاركه التى خاضها ، عازياً النصر الذى أحرزه إلى التمسك بشريعة « الياسة » ، ومن ثم نصح الأهالى بالتزام نصوصها . ثم التفت إلى بنيه الثلاثة ناصحاً يقول لهم : « لا تجعلوا للخلاف بينكم سبيلاً » .

وفىما كان المؤتمر منعقدًا وفد « سابوتاي » قادمًا من « بولندا » مصطحبًا معه « جوشى » بعد أن أقنعه بالثول بين يدي أبيه . وفرح الخان ببقاء ابنه ، وركع الابن بين يدي أبيه آخذًا بيده ليضعها على جبهته رمزاً للخضوع والولاء . وانفضّ المؤتمر ، وعاد « جوشى » إلى « الفولجا » ، ومضى « شاطا جاي » إلى بلاده ، ورجعت بعض الجيوش إلى « قره قرم » .

ولم يكن الخان وهو فى تلك السن قد هدأ على الرغم من كبره ، فلقد كان له خصمان لا معدى عن أن يثأر منهما ، هما ملك « هيا » فى نهاية الطريق إلى « التبت » وآل « صُون » فى جنوب الصين . من أجل ذلك أرسل الخان قائده « سابوتاي » لغزو بلاد « صُون » وأراد هو أن يخضع قبائل « هيا » .

وخرج الخان للقاء خصمه واستقبله خصومه بهجوم عنيف موحد ،

غير أنهم لم يوفقوا ، وقُتل عدد كبير منهم ، بلغ فيما يقال ثلثمائة ألف رجل قتلوا في المعركة وقُتل الخان غيرهم ممن بقوا بعد ذلك . أما ملك الـ « هيا » فقد لاذ بقلعة جبلية وأرسل يطلب الصلح من الخان ، وأجابه الخان إلى ما أراد وهو يضمّر له الشر . .

وفيا كان الخان خارجاً بنفسه للقضاء الأخير على « آل « صُون » بلغه نبأ وفاة ابنه « جوشي » في برارى « روسيا » فاهتمّ وحزن ، ولكنه على ذلك كتم همّه وحزنه ، وبينما هو في الطريق تلّث وأرسل يطلب ابنه « تولى » ، وحضر الابن ليلقى الأب ، فلما الأب راقد قرب الموقد متدنّئ بالفراء ، وكان الخان قد أحسّ الموت فالتفت إلى ابنه يخاطبه : « إنى لأرى منيتى قد حانت ، وسأترككم عما قريب » . ثم استدعى الخان إليه كبار ضباطه وأخذ يملى عليهم ويشير ، وفيما هو يملى ويشير ، لفظ أنفاسه الأخيرة دون جزع أو تأوّه .

ومات الخان بعد أن خلّف لأبنائه إمبراطورية واسعة ممتدة وجيشاً كبيراً مُعدّاً ، وكان موته عام ١٢٢٧ .

وركّز القوم سهماً في الأرض أمام خيمة الخان الراحل ، وكان الخان قد أوصى بالانتقام من ملك الـ « هيا » . وحضر ملك الـ « هيا » في الحاضرين للقاء الخان وهو يظنه حياً ، ولكنه ماكاد يصل هو ورجاله حتى أخذهم « المغول » على غرة وقتلوهم عن آخرهم .

* * *

لقد هال « المغول » موت الخان ما في ذلك شك ، فهو الرجل الذى

بسط أيديهم على العالم . من أجل ذلك كان لابد لهم قبل أن يوارو جثمانه التراب أن يعرضوه على شعبه ، ومن بعدها يحملونه إلى مقرّ المختار إلى جوار زوجه الأولى « بورتاي » . والغريب أن « المغول الذين قتلوا الناس باسم الخان حياً ، استرسلوا فقتلوا الناس باسم الخان ميتاً ، فلكى يُخفوا عن الأعداء موت الخان مضوا يقتلوا ويدبحون كل من يلقونه في الطريق .

ويعزو « ماركو بولو » موت الخان إلى سهم أصابه في ركبته أثناء حصاره لإحدى القلاع في إقليم « صون » ، على حين يُغفل المؤرخون هذه ويقولون إن موته كان إثر مرض اضطره إلى لزوم فراشه ، وكاد الطقس قاسياً فعجل بموته .

وكانت عادة « المغول » أن يدفنوا خاناتهم في سفح جبل شاهز يسمونه جبل « الطاي » مهما كانت الشقة بينهم وبينه ولو استغرق ذلك مائة يوم سيراً على الأقدام . وكان من معتقداتهم أن كل من يقتلوا وهم يحملون رفات الخان إلى مقره الأخير يصبح خادماً للمراحل في حياته الأخرى ، يستوى في ذلك الرجال والحيوان . وما ندرى كم قت « المغول » من رجال وحيوان في طريقهم لدفن الخان !

وحفر القبر تحت سنديانة ضخمة ، ويقولون : إنهم وكلوا إلى قبا برُمَّتْها العناية بالقبر وإطلاق البخور الذي انتشر دخانه في الغيض المحيطة ثم انتشر منها في الغابات المجاورة فغطى على ذلك كله وك يخفى القبر .

خاتمة المطاف

طوى « المغول » عامين فى حزن على زعيمهم الراحل « جنكيز خان » ولى ابنه « تولى » فيها أمر « المغول » يدبر شئونهم مكان أبيه من حاضرة ملكه « قره قرم » . وما إن انقضى العامان وانسلخت عنهم فترة الحداد وخرج « المغول » من حزنهم حتى تهباً الأمراء والقادة ليختاروا الخاقان الجديد أو الامبراطور الجديد ، تنفيذاً لمشيئة الغازى الراحل . وعاد أبناء « جنكيز خان » كلهم على أنهم ملوك حاكمون ، يخول لهم هذا الحق ما أوصى به أبوهم قبل وفاته . فعاد « شاطاجاى » الغليظ الطبع - والذى غدا الابن الأكبر بعد أن توفى أخوه « جوشى » - من البلاد الإسلامية فى أواسط آسيا . كما عاد « أوجوتاي » اللين الطبع من سهول « جوبى » ، و « باطو » العظيم - حفيد « جنكيز خان » من ابنه « جوشى » - من برارى روسيا .

لقد شبّوا جميعاً عن الطوق وغدوا رجالاً تجرى فى عروقهم دماء القبائل المغولية ، كما أصبحوا الآن سادة الدنيا يحكمون رقعة كبيرة من العالم ، وينعمون بما تنضم عليه من ثروات لم تكن لتخطر لهم على بال ، وهم الآسيويون الذين نشؤوا بين قوم بدائيين متوحشين ، فلماذا هم

أربعتهم لكل واحد منهم جيش عظيم تحت إمرته يخضع لمشيئته ،
سكروا بخمرة الحياة فامتثلوا نشوة وذاقوا ملذات الدنيا ونعموا
برغدها ورفاهيتها ودانت لهم ربوعها ، وإذا هم كما خال لهم أبوهم قد
وقع في أيديهم ما تمنى لهم حين قال : « لقد كُتِبَ لأحفادي أن يرددوا
فاخر الثياب الموشاة بالذهب ، وأن يطعموا شهى الطعام ما لذّ منه
وطاب ، وأن يمتطوا صهوات الجياد العريقة ، وأن يأنسوا بعشرة
العذارى الفاتنات اللاتي تهفو إليهن القلوب ، وما أراهم سوف
يفكّرون فيمن ساق إليهم هذا النعيم المحبّب إلى النفس » .

هذا الملك الواسع الذى وقع للأبناء سرعان ما أثار النزاع بينهم
وحرك الخلاف فى نفوسهم ، فما كاد العامان ينقضيان حتى وقف
الأبناء الأربعة ينازع بعضهم بعضا . وكان أول ما ثار من ذلك موقف
« شاطاجاي » منهم ، فهو أكبرهم ، وهو بهذا جدير - وفق تقاليد
المغول - بأن تكون إليه الرياسة الخاقانية . ولكن الأخوة وجدوا
أنفسهم أمام وصية للغازى الراحل وما باستطاعتهم أن يخالفوا عما
أوصى به أبوهم ، إذ كانت لا تزال هيئته تملأ نفوسهم وكأنه حىّ بينهم
يمثلون أمره ويستجيبون لرأيه ولا يخرجون عن طاعته . وكم حذرهم
أبوهم عواقب الفتنة وساق إليهم النذر إن هم اختلفوا على أنفسهم ،
وكم أوصاهم أن يشد بعضهم أزر بعض ، وأن يفزعوا فى كل خلاف
يجدّ بينهم إلى « الياسة » يجعلون من موادها حكماً بينهم . ولقد أدرك
الأب ببعد نظره أن امبراطوريته تلك الشاسعة ، التى لما يصلب عودها

بعد ، لن يكتب لها البقاء إلا إذا بقيت في سلطان رجل واحد يجتمع إليه أمرها كله .

و حين فكر « جنكيز خان » في هذا قبل أن يتخطفه الموت فكر في أن يجعل أمر تلك الامبراطورية إلى ألين ولده عريكة ، وأسمحهم نفساً ، وأكرمهم خلقاً ، وأنقاهم سريرة ، ليضمن شعبه حول حاكمه فيقوى به الحاكم . من أجل ذلك فكر « جنكيز خان » في ولده « أوجتاي » ولم يفكر في غيره من أبنائه ، لأنه رأى « أوجتاي » يجمع هذه الصفات كلها . وكما فكر الخان في هذه حين اختار « أوجتاي » فكر في غيرها ، فلقد رأى إن هو وليّ « تولى » أصغر أبنائه فسوف لا يرضاه أخوته الآخرون ، كما فكر إن هو جعل الأمر إلى « شاطاجاي » اللفظ الغليظ لم يرضه إخوته ، وهكذا كان اختيار الخان لابنه « أوجتاي » يمليه هذا كله .

واجتمع مجلس الأمراء في « قره قرم » ليختاروا الخان ، وتقدم « تولى » - وكان الأمر إليه كما مرّ بنا - إلى هذا المجلس يطلب اعفاءه من الحكم . وكان المجلس يترسم في اختياره للخان - مبادئ « الياسة » ويلتزم وصية الراحل ، من أجل هذا طلب المجلس من « أوجتاي » أن يقبل عرش أبيه . غير أن رئيس المجلس لم يقر المجلس على هذا الرأي ورأى أنه غير لائق أن يتقدم « أوجتاي » أعمامه أو أن يتقدم شقيقه الأكبر ، وارتضى أوجتاي هذا الرأي . وبقي القوم مختلفين أربعين يوماً يسودهم الاضطراب ، يزيد في ذلك القلق وهذا الاضطراب ما

عُرف عن « أوجتاي » من صلابة رأى ، ينضم إلى ذلك أن الكهنة لم يكونوا على وفاق فيما حَدّسوا ، ولم يكونوا كلهم راضين بما كان . من أجل هذا لم يجد الأمراء والقادة والمحاربين القدماء بُدًا من التدخل في الأمر ليحسموا هذا الخلاف ، فأقبلوا على « أوجتاي » يعنفون به أشد العنف ويذكّرونه بأن الخان قد اختاره خَلْفًا له ، وأنه لا مفرّ له من الانصياع لأمر الخان . وانضم إليهم « تولى » يذكّرهم بما أوصى به أبوه وهو على فراش الموت قبل أن يترك الحياة ، كما شارك « تولى » الرأى بى لوتشوساى الذى كان مستشاراً لـ « جنكيز خان » ، ولقد بذل هذا المستشار الحكيم كل ما فى وسعه واحتال ما وسعته الحيلة ليحول بين الناس وبين أن ينزلقوا إلى مزالق الطيش .

وتربّع « أوجتاي » على العرش ، نزولا على رأى الناصحين له . وفيما القوم ملتفون به يُملى على « بى لوتشوساى » فكره الثاقب ، إذا هو يتجه إلى « شاطاجاى » يقول له : ما أنت — وإن تك أكبر الأبناء — إلا فرد من أفراد الرعية ، وجدير بك فى سنّك أن تغتنم الفرصة فتكون أول راكم بين يدى أخيك على عرشه ليحدو الباقون حدوك . ولقد تردد « شاطاجاى » شيئًا ، ولكنه على هذا لم يجد مناصًا من أن يركع بين يدى أخيه . وحين ركع « شاطاجاى » ركع النبلاء والكبراء ، وغدا « أوجتاي » خاقانا يدين له الجميع .

وكان حكم « أوجتاي » — كما يقول المؤرخون — يمتاز بالتسامح ، يعزى ذلك إلى وثوقه بالحكيم « بى لوتشوساى » . وقد مرّ بنا أنه كان

لا يؤيد الخان في قسوته ، وهو الذى أشار على الحاكم الجديد بأن يُعنى بتعزيز إمبراطوريته ، وبأن يضع حداً لذلك الشرّ في إبادة البشر . ويحكى عن هذا الحكيم أنه عارض « سابوتاي » الذى كان يحارب « الصُّون » مع « تولى » عندما همّ بذبح سكان مدينة من المدن ، و كانت تضم مليوناً ونصف مليون من الناس .

وارتاح « أوجتاي » إلى مستشاره الحكيم وأنس برأيه وكان يأخذ بكل ما يشير به ، وحين وجد هذا المستشار الخان معه وضع له نظماً جديدة للضرائب ، ففرض رأساً من الماشية على كل مائة من « المغول » ، كما وضع مبلغاً من الفضة أو وزناً من الحرير على كل أسره صينية ، وهو الذى أشار على الخان الجديد باستخدام الكتبة الصينيين في الإدارة الحكومية ، وهو الذى أسس المدارس لأولاد « المغول » ، وأصبحت « قره قوم » بفضلها تزخر بالمؤن والغلال والبضائع .

ولقد كانت للخان الجديد معارك ، اشتبك مع الشاه فأوقع به ، ولم تقم للشاه بعدها قائمة . وفي عام ١٢٣٥ جمع الخان الجديد مجلس « الكورلتاي » الذى أسفر عن موجة غزو ثانية « للمغول » ، ولكن هذه الموجة ما لبثت أن تعثرت لموت الخان عام ١٢٤١ . وانقضت سنوات عشر في خلافات متصلة بين بيت « شاطا جاي » وبيت « أوجتاي » على العرش ، وانتقل العرش من بيت « أوجتاي » إلى ابنى « تولى » : « مانجو » ثم « قوبلاي » من بعده .

* * *

وبدأت موجة الغزو الثالثة للمغول وكانت أشد الموجات الثلاثة عنفا . وأخذ المغول يغيرون على بلاد العالم مرة أخرى ، فغزا «هولاكو» شقيق «قوبلاي خان» العراق واستولى على «بغداد» وبلغت جيوشه قرب «بيت المقدس» ، وامتلك «أنطاكية» وزحف على آسيا الصغرى إلى أن وصل إلى «أزمير» وأصبح على مسيرة أسبوع واحد من القسطنطينية .

وحين ولى «مصر» قُطُز بن عبد الله المعزى سنة ١٢٦٠ ميلادية كانت الأراجيف حول تحرك «المغول» قد شاعت وذاعت ، فلقد عبروا الفرات وخرجوا يقصدون الشام وهددوا حلب بغاراتهم . وإذا صاحب حلب والشام يؤكد ما ذاع ، ويرسل إلى «قطز» يطلب منه العون على قتال «المغول» وصد غاراتهم ، وإذا «هولاكو» يرسل رسلا أربعة إلى «مصر» ومعهم رسالة منه إلى «قطز» يدعو فيها «قطز» إلى الاستسلام بعد تهديد ووعيد نقتطع للقارى منها هذه العبارة ليعلم مدى ما انتهى إليه الغرور في نفوس أولئك البرابرة . يقول «هولاكو» في رسالته إلى «قطز» : «من ملك الملوك شرقا وغربا يعلم الملك «قطز» الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم . . . » ويمضى «هولاكو» على هذا النحو في رسالته يمجّد من شأنه ويهوّن من شأن «قطز» ويدعوه إلى الاستسلام والخضوع ، ويذكر بطشه وسلطانه ويذكر ضعف من يقف في سبيله وهوانه .

فيجمع « قطز » إليه أولى الراى يستشيرهم ، فإذا هم كلهم مجتمعون على نجدة صاحب « حلب » وعونه ، وإذا هم مجتمعون على قتل هؤلاء الرسل الأربعة ، فيقتلهم « قطز » ويعلق رؤوسهم فى جهات متفرقة من « القاهرة » : واحداً بسوق الخيل تحت « قلعة الجبل » ، وواحداً بظاهر « باب زويلة » ، وثالثاً « بباب النصر » ، ورابعاً بالريدانية . فعل هذا « قطز » لينفث فى روح شعبه وليهون من شأن عدوه ، وليلقى عليه الدرس الأول فى الإذلال والامتهان ، وليعرفه أنه غير آبه بشأنه ولا مكثرث بقوله .

وكان هولاء قد عبأ جموعاً كثيرة من المغول أخذ يزحف بها ، لا يصادفه شىء فى طريقه إلا أتى عليه ، حتى إذا ما نزل « حرّان » وملك الجزيرة أرسل ولده « أشموط » إلى الشام . ويشرف « أشموط » على حلب فإذا الناس يهلعون فيتفرقون ثم يتجمعون وإذا هم بعد تجمعهم يتفرقون ، تهولهم تلك الجموع الغفيرة وذلك الجيش الجرار الذى قد ملأ الأرض ولم يترك على ظهرها شبراً ، هذا إلى ما عرف عن هذا الجيش من غدر وقسوة ، ثم ما عرف عنه من حيلة وخداع .

ولقد استولى المغول على حلب بعد أن غدروا بأهلها ، وبعد أن قتلوا وسلبوا وبعد أن نهبوا وسلبوا ، وحين نفّض المغول أيديهم من حلب قصدوا إلى دمشق . وحين انتهى المغول إلى هذا قصدوا إلى غزة وبلد الخليل ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان ، وساقوا أمامهم الأسرى والأبقار والأغنام ، وحملوا معهم كل نفيس وغال . وهكذا

كان شأنهم كلما دخلوا قرية أفسدوا فيها وعاثوا ليلقوا الرعب في القلوب ، ويشبعوا تلك الأنفس الظامئة إلى الشر والعدوان .

بلغ هذا كله « قطز » فأخذ يتهيأ للقائهم واجتمع بين يديه جند كثيرون ، فألقى الله في روعه أن يخرج لهؤلاء المغول ، لم يشنه عن هذا الخروج ما ثنى قادة وملوكا عن لقاء « المغول » من قبل . ولقد عزم دون أن يرده عن هذا العزم ما كان يعلمه من أن بلدا مالم يقو على الوقوف أمام زحف تلك الجيوش الجرارة ، بل لقد امتلأ « قطز » حماسا وتصميما على القيام بهذه الحملة ، فخرج من مصر على رأس جيش من « مصر » و « الشام » ، ومضى بجيشه يطوى الأرض حتى انتهى إلى « عين الجالوت » حيث وقفت له جيوش « المغول » ، وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر رمضان . وهناك استند المسلمون على مستنقعات بيسان بجناحهم الأيمن ، وهاجم « المغول » جناح المسلمين الأيسر ، فتظاهر قطز بالإنكسار والفرار محدثا ثغرة بجناحه الأيسر يندفع فيها « المغول » بقوة إلى مسافة تتيح له الانقضاض عليهم ، فيستأنف « قطز » الهجوم على العدو وينفخ في روح جناحه الأيسر حتى يثبت ، ويرمى « قطز » بنفسه في المعركة بعد أن يطرح عن نفسه خوذته وهو يصيح بأعلى صوته « وإسلاماه » فإذا الجنود من حوله يقدفون بأنفسهم في ذلك الأتون كما قدف بنفسه « قطز » لا يبالون الموت كما لم يبال هو ، وإذا المسلمون يثخنون في عدوهم ، وإذا المغول يولّون الأدبار . وحين ولّوا لم تسعفهم أرجلهم والمسلمون في

إثرهم حتى انتهوا إلى بيسان ، عندها قنع المسلمون بأن المغول لن يعودوا فإذا المغول لموا شملهم مرة ثانية وأرادوا الإنقضا على المسلمين ، ولكن المسلمين ما أحسوا منهم هذا التجمع حتى بادروهم ، وإذا « قطز » يصيح صيحته الأولى « وإسلاماه » يقولها مرات ثلاثا ويشفعها بقوله : « اللهم انصر عبدك قطز على التتار » . ويستجيب الله لقطز ويؤيد المسلمين من حوله ، وإذا هم جميعا قد أمكنهم الله من « المغول » مرة ثانية ، وإذا « المغول » كما فروا أولا فروا ثانيا ، ولكنهم حين فروا هذه المرة فروا لا يلوون على شىء .

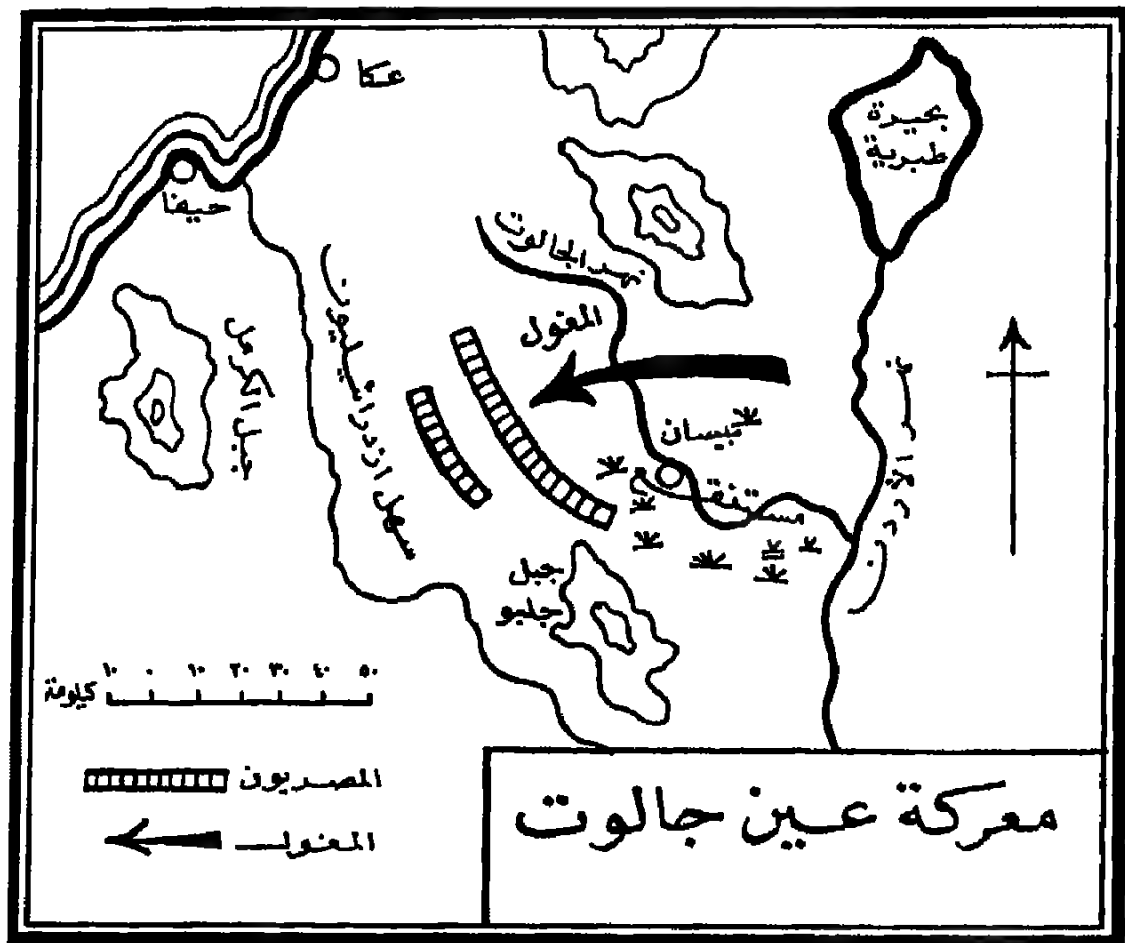
وما كان « قطز » وما كان المسلمون معه يحلمون بهذا النصر ، وما كانوا يطمعون فى كثير منه أو قليل ، فهم لهذا أحسوا بقلوبهم أن الله من ورائهم قد أيدهم بنصره . وكان أكثرهم إيمانا بذلك « قطز » ، فما إن رأى النصر بعينه حتى نزل عن فرسه يمرغ وجهه فى التراب ويقبل الأرض ، ثم يتصب. قائما ليصلى ركعتين لله شكرا على ما أعطى من نصر وتأيد ، ثم يستقبل جنده ليراهم وقد امتلأت أيديهم بالمغانم . وتحتصم طائفة من « المغول » بالثل الذى كان إلى جانب المعركة فإذا المسلمون يحدقون بهم ويفنونهم عن آخرهم ، وما سلم من « المغول » غير القليل واسترد المسلمون بذلك ما كانوا قد فقدوه من أرض وعتاد .

وكان الأمير « ركن الدين بيبرس » من القادة الذين أبلوا فى تلك المعركة بلاء عظيما ، فلقد كان له الفضل أولا فى مناوشة « المغول »

وتعويقهم عن الهجوم ، وذلك حين أرسله « قطز » يسبقه إلى المعركة بفريق من الجيش ، فأخذ « بيبرس » بهذا الجمع الصغير الذى معه يراوغ « المغول » ، يُقدم مرة ويحجم أخرى ، لا همّ له إلا أن يقف « المغول » فى مكانهم هذا إلى أن يصل « قطز » بجيشه . ولقد أفلح « بيبرس » ، فلقد انخدع « المغول » بأمره وخالوا أن من ورائه خدعة فتلبثوا محتاطون ، وظنوه يحتال للإيقاع بهم فترثوا يتدبرون .

وكان لـ « بيبرس » بعد هذه فضل آخر فى تلك المعركة حين جدّ فى إثر الفارين منها وتتبع جيوشهم حتى اضطرها إلى أن تخلّى سبيل الأسرى الذين كانوا بين أيديهم من المسلمين .

وكان على مقدمة « المغول » قائد جبّار هو « كتبغا » الذى يرجعون إليه فى الرأى ويمضون فى أمرهم عن تدبيره ، وكان إلى هذا وذاك شجاعا مقداما له دراية شاملة بشئون الحرب ، ماهر فى انتزاع الحصون والاستيلاء على الممالك ، وهو الذى فتح الكثير من بلاد العجم والعراق ، وكان « هولاكو » يعتمد عليه ويتبرّك برأيه ولا يخالفه فيما يشير به . وكان هو الذى خرج للقاء « قطز » بعد أن ساق بين يديه جيوش « المغول » ومن انضم إليهم من غير « المغول » ، وحين رمى « قطز » بنفسه فى المعركة ليحمى جنوده رمى كذلك « كتبغا » بنفسه فى المعركة حتى لا يتخاذل جنده ، ولكن « قطز » عرف كيف يحمى نفسه ولم يعرف « كتبغا » كيف يحمى نفسه . وتقدم إلى « كتبغا » أمير من أمراء المسلمين ، وهو « جمال الدين آقوش الشمسى » وأمكنه



الله من «كتبغا» فقتله شر قتلة .

وما من شك في أن مقتل هذا القائد كان له أثر أى أثر في اضطراب صفوف «المغول» وزلزلة نفوسهم وبث الفزع في قلوبهم ، فلقد كان مقتله نصراً كبيراً أحس الجنود المسلمون حلاوته وأحبوا أن يذيقوا إخوانهم من حلاوة هذا النصر فحملوا رأس «كتبغا» إلى القاهرة حيث طيف به في شوارعها ليرى الناس ما أفاء الله على المسلمين من نصر ، وما أعطاهم من تأييد وما أصاب به عدوهم من خذلان .

وما إن كتب الله النصر لـ «قطز» حتى أخذ يعيد الأمن إلى «الشام» ، وينشر السكينة بين ربوعه ، وأقطع الأمراء من أصحابه ولايات «الشام» وأتاب عنه الأمير «علم الدين سنجر الحلبي» على «دمشق» .

نهاية دولة

وكما امتدت الحرب غرباً امتدت شرقاً ، فلقد أرسل « قوبلاى خان » أسطوله للاستيلاء على « اليابان » ، وامتد سلطانه إلى « الملايو » وما وراء « التبت » حتى « البنغال » ، وكانوا يسمون عهده (١٢٥٩ - ١٢٩٤) « العصر الذهبى » للمغول . فلقد كان يحكم رقعة من أوسع الرقاع ويتمتع بجاه عظيم وسلطان كبير ، لم يبلغه ملك من ملوك الغرب .

ونقل « قوبلاى خان » عاصمة ملكه إلى الصين خارجاً بذلك عن مألوف آبائه ، وأخذ كثيراً من عادات الصين حتى أصبح صينياً أكثر منه مغولياً . ولكن الأيام دارت دورتها ، ونسى المغول صلتهم بأصلهم ، واندمجوا في البلاد التى دخلوها ، وأسلم كثير منهم . وما كاد الموت يختطف « قوبلاى خان » حتى تعرضت الامبراطورية المغولية إلى حروب وفتن وأصبحت ممالك متفرقة .

وفى سنة ١٤٠٠ ضم « تيمورلنك » القائد التركى أواسط آسيا إلى الأقاليم الفارسية التى كان يحكمها ، وأوقع بالجيش الذهبى الذى كان يتزعمه « باتو » ابن « جوشى » هزيمة منكرة .

ولقد ظل « المغول » يملكون أمر الصين إلى عام ١٣٦٨ ، وما فقدوا قواعدهم في روسيا إلا عام ١٥٥٥ عندما طردهم « إيفان » الرهيب .
وفي منتصف القرن الثامن عشر - أى بعد ستماية عام من مولد « جنكيز خان » - نزحت آخر سلالة للغازى المغولى عن الهند عندما قبض الإنجليز على الأمر .

أما مغول الشرق فقد استسلموا لجيوش الامبراطور الصينى « كيين لونن » ، على حين أصبح خانات « التتار » فى شبه جزيرة « القرم » رعايا للقيصرة « كترينه » الروسية .

هكذا انقضت هذه الأعوام بما تحمل دون أن تخلف أثراً يدل عليها ، وعفى البلى معالم مدينة « قره قرم » التى كانت حاضرة لتلك الصحراء ، وغطتها كثبان الرمال ، وغُيِّبَ قبر « جنكيز خان » فلم يعد يُعرف له مكان ، كما غُيِّبَ قبر زوجه التى عاشت وفيةً له . وإن القدر الذى قسا على هذا المحارب الراحل هذه القسوة فأخفى آثاره ، قسا عليه أخرى حين لم يرزق سيرته أديباً من أدباء « المغول » يصوغها ملحمة من الملاحم . ومن عجب أن هذا الذى حفظه لنا التاريخ عن « جنكيز خان » لم يكن غير الذى سجله له الأعداء لا الأصدقاء .

* * *

ونظرة واحدة إلى خريطة « آسيا » فى القرن الثامن عشر تكشف لنا عن المقر الأخير الذى استقرت فيه تلك القبائل البدوية التى هى من سلالة جحافل « جنكيز خان » . فإلى الشرق البعيد من البادية

القاحلة ، بادية « الجوبى » حيث الجبال شاهقة لا ترقى السحب إلى قممها وتمرّ متطامنة وثيدة من بينها ، وحيث الرياح الهوجاء تعصف برمالها والشمس المتقدة تلهب صخورها ، وأنّى مددت الطرف لا تقع إلا على فيافي جرداء ؛ لا شجر ولا حيوان ، ولا مدن ولا إنسان ، كلاً هنا وهناك حول مسارب المياه التى تنساب شحيحة بطيئة . فى تلك البقاع التى ينتهى فيها المناخ إلى طرفيه من قيظ لافح وبرد قارس ، فى تلك المساحات الشاسعة الممتدة بين بحيرة « بيقول » العظمى وما حولها من بحيرات تكتنفها الحرجات وتحلق فى سمائها جوارح الطير ، تُمعن حيناً نحو الشمال ، وتصوب حيناً صوب الجنوب منذرة بميلها نحو الشمال أو انحدارها إلى الجنوب بما سيطراً على المناخ من تقلب وما سيصيب الجو من اختلاف . هناك حيث مدينة قره قرم » التى دفتها رمال الصحراء الساقية ، وحيث قبر « جنكيز خان » المندثر ، فى تلك المنطقة المتطرفة التى تغطى مراعيها ثلوج الشتاء يعيش « المغول » الآن جائلين صيفهم وشتاءهم ينزلون فى قباهم المصنوعة من اللباد وبين أيديهم قطعان الماشية . وما من أحد يكاد يذكر أنه فوق هذه الأرض عينها وعلى تلك الهضاب نفسها زحف « جنكيز خان » ، وزحفت جيوشه معه لتلقى الرعب فى القلوب وتنشر الفزع فى الأفتدة .

هكذا ارتفعت دولة « المغول » ثم وقعت ، وعادت كما كانت قبائل تغدو وتروح فى تلك البرارى ، حيث غدا وراح أبائهم المحاربون من قبل .

كلمة أخيرة

وبعد ، فهذه هى سيرة المغولى « جنكيز خان » يسبقها شىء ويعقبها شىء آخر ، ويجتمع من هذا كله تاريخ « للمغول » يؤرخ لهم ، يفصل شيئاً عن نشأة الدولة ويُجمل شيئاً عن نهايتها ، ويعرض تاريخ هذا المغولى كله ويستوعبه لا يكاد يُفلت منه شىء . وما قصدت حين جمعت هذا التاريخ وبوّبته هذا التبويب إلا أن أسوق صفحة يعنى كل مثقف أن يطالعها ، ويعنى كل عربى أن يُلِمَّ بدقائقها ، ففيها العبرة مزدوجة ، عبرة عن صاحبها وعبرة لنا . فما من شك أن صاحبها كان غازياً وكان شجاعاً وكان قائداً ، يُلقى علينا بسيرته الدرس بعد الدرس ، فى الوحدة بين صفوف الأمم وكيف تقودها إلى عزّة وكرامة ، وفى الشجاعة ونسيان الذات والإقدام وكيف يهيبُ هذا كله للأمة أن تسود . هذا هو مكان العبرة عن « جنكيز خان » . أما مكان العبرة لنا من تلك السيرة فهو ما طالعتك به من انقسام الأمم . وكيف يثول بها هذا الانقسام إلى هوان ، ويعينى ما أصاب الأمة الشرقية الإسلامية من ذلك وما مُنيت به من فُرقة ، وما جرّته تلك الفرقة إلى ذلك الخذلان الذى مرّبنا .

وما أحوج الناس إلى أن يقرأوا التاريخ ، ويفيدوا من ذلك التاريخ العظات والعبر ، لاسيما إذا كان ذلك التاريخ قطعة من تاريخهم وصفحة من سجل حياتهم . وما من شك في أن تاريخ « المغول » كان قطعة من تاريخ الأمة العربية ، دخل على حياتها فملاً من تلك الحياة صفحات لا يصح أن تمر دون أن نعيها ، ودون أن نتدبر ما فيها ، ودون أن نعرف ما كان منها لنا وما كان منها علينا ، وكان في سيرة هذا الغازي ما هو لنا وما هو علينا ، أملكته علينا تلك الصفحات التي ضمت تلك السيرة .

وتلك القسوة التي عُرِفَت عن « المغول » فصورتهم غلاظ الأكباد وجفافة برابرة ، لنا منها أكبر درس وأبلغ عظة ، فالمرء إذا خاف حذر ، وإذا أراد أن يدفع عنه الشرّ استعد لهذا الشر . وما كان « المغول » قساة وحدهم ، فمع كل فتح قسوة ، ومع كل غزو شدة ، فالمعتدون هم هم وإن اختلفت عصورهم وتباينت أجناسهم ، وإنما يختلفون في لون تلك القسوة ومظهر تلك الوحشية . ولكن ربّ ضارة نافعة . فلولا غزوات « جنكيزخان » وقسوته واعتداءاته على القيم الإنسانية وحرّيات الشعوب ، لما نعم الناس بالسلام بعد زوال حكمه بالقدر الذي نعموا به بهذا السلام ، فالغزو والعدوان أكّد شعور الناس بقيمة السلام ، وزادهم تمسكاً به وحماية له . والسلام كما نعلم غاية ، ولا بد لتحقيق هذه الغاية من أن نعدّ لنا عدّة من قوة ندفع بها عن أنفسنا عدوان أي معتد ، لكي نضمن لهذا السلام أن يكون ولا ينال منه

غاصب . فمن الغفلة بمكان أن نستقيم لدعاة مغررين يدعوننا للسلام وما أرادوا بهذه الدعوة الباطلة إلا أن يضمّنونا على الخنوع والخضوع حتى لا نشمر عن ساعد الجدّ ونعدّ للشدائد عدتها .

ولقد كانت الغزوات عامة ، وغزوات « جنكيزخان » خاصة ، عملاً بغيضاً وكرهاً يتنافى مع كرامة الإنسان ، إلا أنها عن غير قصد كانت وسيلة لتلاقى الشرق والغرب ، وكان لهذا التلاقى أثره على مظاهر الفكر ، فخرج عن عزلته أو قصوره على مكان دون مكان وشاع بين أوسع رقعة من العالم ، فصار بذلك ملكاً للإنسان في كل مكان .

سُقنا هذه السيرة لتحمل هذه المعانى ؛ لتحمل معالم التاريخ فتزداد به وعياً ، ولتحمل مآسى التاريخ فتنبّه منا الوجدان وتوقظ منا الفكر ، ولتدل الإنسانية عامة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، على اختلاف العصور وتقدم الحضارات .

سردنا هذه القصة لنهيب بالإنسان - أنى كان هذا الإنسان - ليعرف حق أخيه عليه ، وليعرف أن الظلم بغيض وأن مرتكبه آثم ، فلقد مضى « جنكيزخان » وهو يعدّ نفسه بطلاً من الأبطال ، ولو أنه استمع في قبره لما سجّله التاريخ عنه لودّ أن يُردّ إلى عالم الحياة ثانية ليكفر عما ارتكبت يده . فهل للإنسان أن يدرك أنه ليس في ميزان التاريخ إلا سيرة فحسب ، وأن مقاييسه الخاصة في الحكم على أعماله لن تقف عشرة في طريق التاريخ ، ولن تلوى قصد المؤرخين عن أن يعرضوا سيرته ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ؟

على أن اختلاف وجهات النظر لا يعنى أنه ليس هناك مقياس عام استقرت عليه أحكام الإنسان منذ بدأت الخليقة . فالخير والحق والفضيلة والجمال ، وعمل الإنسان الدائب فى سبيل الإنسانية مبادئ قررتها طبائع الأشياء . وهى تتنافى مع العدوان والبطش والغزو مهما تكن هذه العناصر براءة وضاعة لامة ، ولكنه بريق زائف وضوء مصيره ظلام . فهل الإنسان قادر دائماً على أن يحدد سيرته بين سير التاريخ ، فى أخذ جوانب القيم الثابتة المستقرة ؟ أم أن المغريات الزاهية قد تخطف بصره فيعدو وراء الأوهام ؟

هنا تفرق سيرة عن سيرة ، ويختلف الحكم على الأشخاص فى صفحات التاريخ . فأما الذين يعجزون عن مقاومة أهوائهم فإن مكانهم فى صفحات التاريخ هو مكان « جنكيزخان » أياً كانت مظاهر الخير التى تنبثق عن شروره . وأما الذين يقدرّون على مكافحة أهوائهم فهؤلاء هم عمّد التقدم الحضارى الإنسانى فى تاريخ البشر .

ثبت ببليوجرافى لكاتب هذه السطور

★ موسوعة تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى . *

- | | | |
|---------------------------------------|-------|-----------------|
| ١- الفن المصرى : العمارة | دراسة | طبعة أولى ١٩٧١ |
| | | طبعة ثانية ١٩٩٠ |
| ٢- الفن المصرى : النحت والتصوير | دراسة | طبعة أولى ١٩٧٢ |
| | | طبعة ثانية ١٩٩١ |
| ٣- الفن المصرى القديم : الفن السكندرى | دراسة | طبعة أولى ١٩٧٦ |
| | | والقبطى |
| ٤- الفن العراقى القديم | دراسة | طبعة أولى ١٩٧٤ |
| ٥- التصوير الإسلامى الدينى والعربى | دراسة | طبعة أولى ١٩٧٨ |
| ٦- التصوير الإسلامى الفارسى والتركى | دراسة | طبعة أولى ١٩٨٣ |
| ٧- الفن الإغريقى | دراسة | طبعة أولى ١٩٨١ |
| ٨- الفن الفارسى القديم | دراسة | طبعة أولى ١٩٨٩ |
| ٩- فنون عصر النهضة | دراسة | طبعة أولى ١٩٨٨ |

* (الصور الملونة بالأجزاء التسعة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينيرد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو»).

- ١٠- الفن الرومانى دراسة طبعة أولى ١٩٩٢
- ١١- الفن البيزنطى دراسة طبعة أولى ١٩٩٢
- ١٢- فنون العصور الوسطى دراسة طبعة أولى ١٩٩٣
- ١٣- التصوير المغولى الإسلامى فى الهند دراسة طبعة أولى ١٩٩٣
- ١٤- الزمن ونسيج النغم (من نشيد أبو للو إلى أوليفيه ميسيان) طبعة أولى ١٩٨٠
- ١٥- القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية دراسة طبعة أولى ١٩٨١
- ١٦- الإغريق بين الأسطورة والإبداع طبعة ثانية ١٩٩٢
- ١٧- ميكلائنجلو دراسة طبعة أولى ١٩٨٠
- ١٨- فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى [أثر إسلامى مصور] و تحقيق طبعة أولى ١٩٧٤
- ١٩- معراج نامه [أثر إسلامى مصور] طبعة ثانية ١٩٩٢
- ★ أعمال الشاعر أوفيد
- ٢٠- ميتامور فوزيس [مسخ الكائنات] ترجمة طبعة أولى ١٩٧١
- ٢١- آرس أماتوريا [فن الهوى] طبعة ثانية ١٩٩٢
- ★ أعمال جبران خليل جبران
- ٢٢- النبى : لجبران خليل جبران ترجمة طبعة أولى ١٩٥٩
- طبعة سابعة ١٩٩٠
- طبعة ثامنة ١٩٩٢

- ٢٣- حديقة النبی : لجبران خليل جبران ترجمة طبعة أولى ١٩٦٠
طبعة سابعة ١٩٩٠
- ٢٤- عيسى ابن الإنسان : لجبران خليل جبران ترجمة طبعة أولى ١٩٦٢
طبعة رابعة ١٩٩٠
- ٢٥- رمل وزبد : لجبران خليل جبران ترجمة طبعة أولى ١٩٦٣
طبعة رابعة ١٩٩٠
طبعة خامسة ١٩٩٢
- ٢٦- أرباب الأرض : لجبران خليل جبران ترجمة طبعة أولى ١٩٦٥
طبعة ثالثة ١٩٩٠
- ٢٧- روائع جبران خليل جبران . الأعمال المتكاملة ترجمة طبعة أولى ١٩٨٠
طبعة ثانية ١٩٩٠
- ٢٨- كتاب المعارف لابن قتيبة تحقيق طبعة أولى ١٩٦٠
طبعة سادسة ١٩٩٢
- ٢٩- مولع بفاجنر : لبرنارد شو ترجمة طبعة أولى ١٩٦٥
طبعة ثانية ١٩٩٢
- ٣٠- مولع حذر بفاجنر دراسة نقدية طبعة أولى ١٩٧٥
طبعة ثانية ١٩٩٣
- ٣١- المسرح المصرى القديم : لإتيين دريوتون ترجمة طبعة أولى ١٩٦٧
طبعة ثانية ١٩٨٩
- ٣٢- إنسان العصر يتوج رمسيس
- ٣٣- فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد تأليف طبعة أولى ١٩٧١
ترجمة طبعة أولى ١٩٦٤
طبعة ثانية ١٩٨٩
- طومسون : لبيير دانيوس

- ٣٤- إعصار من الشرق أو جنكيز خان تأليف طبعة أولى ١٩٥٢
طبعة خامسة ١٩٩٢
- ٣٥- العودة إلى الإيمان : هنرى لنك ترجمة طبعة أولى ١٩٥٠
طبعة ثالثة ١٩٦٤
- ٣٦- السيد آدم : لبات فرانك ترجمة طبعة أولى ١٩٤٨
طبعة ثانية ١٩٦٥
- ٣٧- سروال القس : لثورن سميث ترجمة طبعة أولى ١٩٥٢
طبعة ثانية ١٩٧٦
- ٣٨- الحرب الميكانيكية : للجنرال فولر ترجمة طبعة أولى ١٩٤٢
طبعة ثانية ١٩٥٢
- ٣٩- قائد البانزر : للجنرال جوديريان ترجمة طبعة أولى ١٩٥٢
- ٤٠- حرب التحرير تأليف طبعة أولى ١٩٥١
بالمشاركة طبعة ثانية ١٩٦٧
- ٤١- تربية الطفل من الوجهة النفسية ترجمة طبعة أولى ١٩٤٤
بالمشاركة
- ٤٢- علم النفس فى خدمتك ترجمة طبعة أولى ١٩٤٥
بالمشاركة
- ٤٣- مصر فى عيون الأوروبيين من الرحالة دراسة طبعة أولى ١٩٨٤
والأدباء والفنانين (١٨٠٠ - ١٩٠٠) طبعة ثانية ١٩٩٢
- ٤٤- مذكراتى فى السياسة والثقافة تأليف طبعة أولى ١٩٨٨
طبعة ثانية ١٩٩٠
- ٤٥- المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية إعداد طبعة أولى ١٩٩٠
وتحرير [إنجليزى - فرنسى - عربى]

بالفرنسية

Ramsès Re - Couronné : Hommage Vivant au Pharaon Mort, ٤٦-
"UNESCO" 1974.

بالإنجليزية

In The Minds of Men. Protection and Development of Mankind's ٤٧-
Cultural Heritage " UNESCO " . 1972.

The Muslim Painter and the Divine .The Persian Impact on Islamic ٤٨-
Religious Paniting . Rainbird Publishing Group, Park Lane
Publishing Press . London 1981.

The Miraj - Mameh: A Masterpiece of Islamic Painting . Pyramid ٤٩-
Studies and other Essays presented to . I.E. S . Edwards. The Egypt
Exploration Society. London 1988.

أبحاث

The Portrayal of the Prophet . The Times Literary Supplement ٥٠-
December 1976.

Problématique de la Figuration dans l'art Islamique. ٥١-
La Figuration Sacrée .

La Figuration Profane.

Plastique et musique dans l'art pharaonique.

Wagner entre la théorie et l'application

سلسلة محاضرات ألقى بالكوبيج ده فرانس بباريس خلال شهرى يناير
ومارس ١٩٧٣ .

Annuaire de Collège de France 73 e Année Paris, 11, Place Marce-
lin - Berthelot 1973.

- ٥٢- المشاكل المعاصرة للفنون العربية . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة «مواقف»
عدد ٢ آيار ١٩٧٤ . بيروت .
- ٥٣- حرية الفنان . نشر بمجلة «الفكر» . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ . الكويت .
- ٥٤- رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة أقيمت بنادي الجسرة الثقافي بالدوحة
«دولة قطر» فبراير ١٩٨٩ .
- ٥٥- إطلالة على التصوير الإسلامى : العربى والفارسى والمغولى والتركى .
محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافى . أبو ظبى . أبريل ١٩٩١ .
- ٥٦- سبيل إلى تعميم مُدن التكنولوجيا «تكنوبوليس» فى العالم العربى . معهد العالم
العربى بباريس يونية ١٩٩٠ .

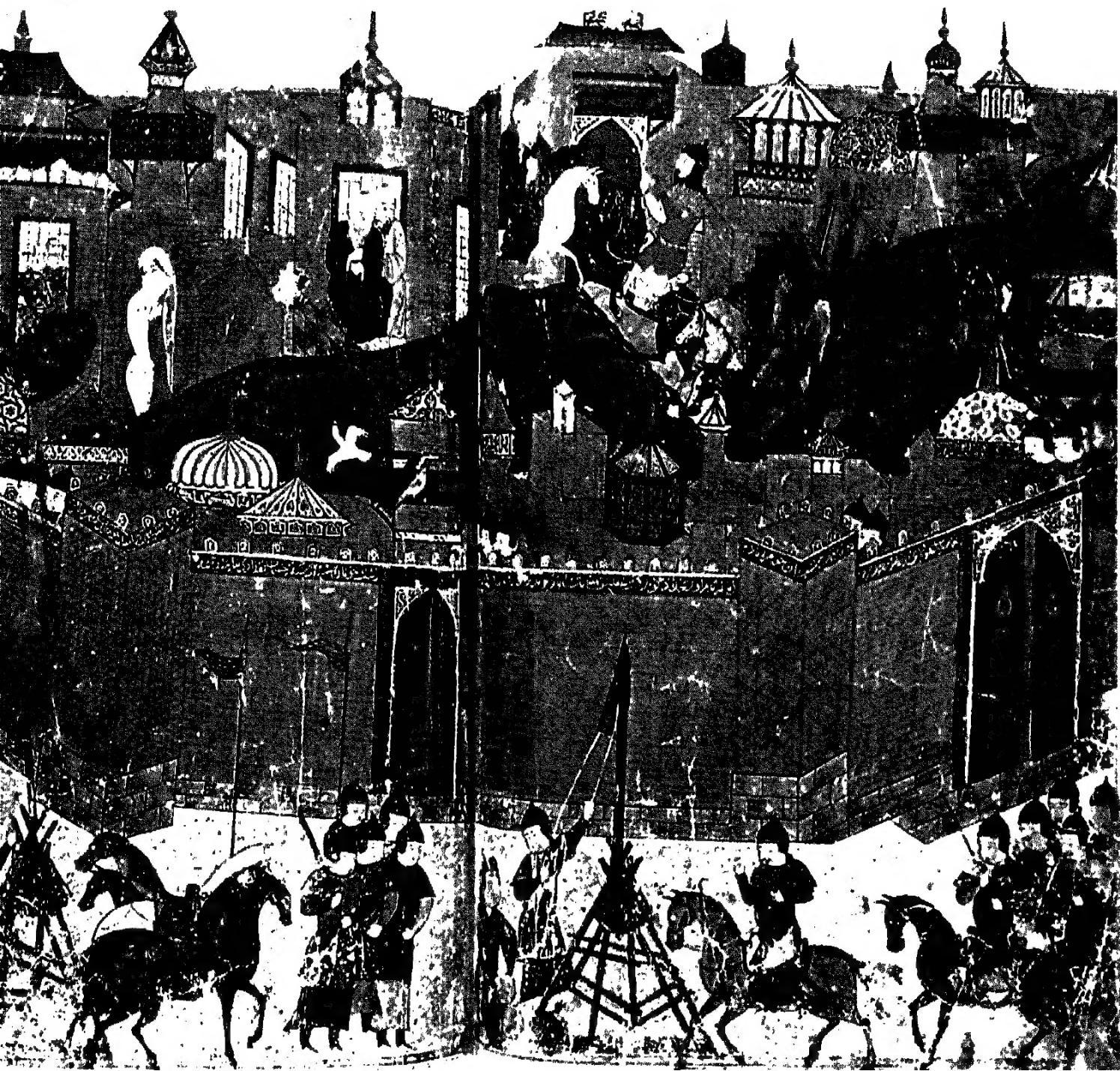
الفهرس

٧	كلمة أولى
١٧	مع المغول
٣١	تيموجن
٤٣	كفاح العبقريّة
٦٥	وقيعة
٧٧	جنكيز خان
٩٧	آلة الحكم
١٠٥	نحو الشرق
١٢٧	قره قرم
١٣٩	نحو الغرب
١٥٩	مبعث الشرر
١٦٩	صراع الطبيعة
١٧٧	فيما وراء النهر
٢٠٣	جوالّة المغول
٢١١	نحو خراسان
٢٢١	جلال الدين
٢٣٥	نهاية محارب
٢٣٩	خاتمة المطاف
٢٥١	نهاية دولة
٢٥٥	كلمة أخيرة

رقم الإيداع: ١٩٨٧ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 - 09 - 0088 -5

مطابع الشريعة

التمارة، ١٦ شارع جواد حسـيـهـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت، ص ب ٨٠٦٤٠ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣



مطابع الشارقة

شارع جواد حسن، هاتف : ٣٣٣٤٥٨ - ٣٣٣٤٥٩

ب : ٨٠٩٤ - هاتف : ٣١٥٥٩ - ٨١٣٦٥ - ٨١٣٦٦

مدينة إسلامية
تحت حصار المغول

جنازة
غازان خان .



Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com